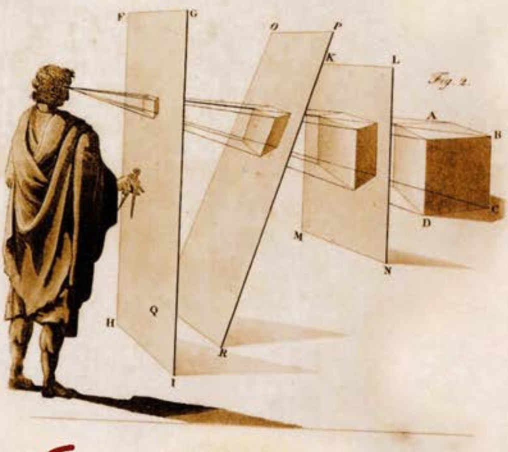
إيان كروفتون

موجز لأفكار عظيمة

200 مفهوم غيّرت العالم

العولمة
الماركسية
الفن
التطور
النسبية

الليبرالية
العنصرية
الفاشية
الاقتصاد
الفوضوية



مكتبة آفاق

ترجمة: محمد حسونة

مُوجز لأفكارٍ عظيمة

إيان كروفتون

- المؤلف: إيان كروفتون
- العنوان: موجز لأفكار عظيمة
- ترجمة: محمد حسونة
- الطبعة: الأولى 2023
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢٢ / ١٧٠٣٥
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 349 - 7

مكتبة
t.me/soramnqraa

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إيان كروفتون

مُوجز لأفكارٍ عظيمة

٢٠٠ مفهوم غيّرت العالم

ترجمة

محمد حسونة

مكتبة
t.me/soramnqraa

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

كروفتون، إيان

موجز لأفكار عظيمة - إيان كروفتون

ترجمة: محمد حسونة

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023

328 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17035 / 2022

الترقيم الدولي 7 - 349 - 765 - 977 - 978

1 - معارف عامة

2 - العنوان

هذه ترجمة كتاب:

Big Ideas in Brief:

200 World-Changing Concepts Explained In An Instant

By: Ian Crofton

First published in 2011 by Quercus Publishing

Design and editorial by Pikaia Imaging

Illustration Tim Brown and Patrick Nugent

المحتويات

مُقدِّمة المترجم	٧
مُقدمة	١١
الفصل الأوَّل : الفلسفة	١٣
الفصل الثَّاني : الدِّين	١٠٧
الفصل الثَّالث : العلم	١٢٩
الفصل الرَّابع : السِّياسة	١٥٩
الفصل الخامس : الاقتصاد	٢٣٧
الفصل السَّادس : علم الاجتماع	٢٦١
الفصل السَّابع : علم النَّفس	٢٧٩
الفصل الثَّامن : الفن	٢٩٩

محمد أحمد حسونة

- خريج مدرسة كوليج دو لاسال.
- التحق بالجامعة الألمانية وافتتح فيها قسم البيولوجيا الحيوية (بيوتكنولوجي).
- حصل على بكالوريوس البيوتكنولوجي من الجامعة الألمانية بالقاهرة.
- حصل على ماجستير في الخلايا الجزعية من جامعة باريس ٦ بفرنسا.
- ترجم عن الفرنسية كتاب «ما الفلسفة؟» وصدر عن دار العين.
- ترجم سبعة كتب عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية للمركز القومي للترجمة بعضها صدر وبعضها تحت الطبع.
- له مؤلفات أدبية أبرزها مذكرات طالب ثانوي عن دار شرقيات، وله مجموعة قصصية تحت الطبع.
- ألف عددًا من المقالات عن البيوتكنولوجي والخلايا الجذعية نشرت على حلقات في مجلة العربي الكويتية.
- آخر ترجماته كتاب (موجز لأفكار عظيمة) عن اللغة الإنجليزية.

مُقدِّمة المترجم

في البدء كانت العلوم والمعارف والمعتقدات وَحدة واحدة. اختلط فيها السحر بالفن والحرفة والدين. وفي العصور الوسطى، جمع العلماء بين تخصصات عدة. فمثلًا ابن سيناء -من العلماء المسلمين- كان طبيبًا وفيلسوفًا وشاعرًا في آنٍ واحدٍ. ولكن مع تقدم العلم في العصر الحديث، زاد التخصص، وأصبح كل علم مستقلًّا بذاته، وأصبحت الدراسة الجامعية متخصصة أكثر فأكثر في مجالٍ بعينه، حتى إننا نجد طالب الطب لا يعلم الكثير عن الفلسفة، ولا يعلم طالب الفلسفة إلا النزر اليسير عن العلوم. ومع تزايد متطلبات الحياة الاقتصادية الصعبة والمعقدة وتفاقم الضغوط، انصب اهتمام الطلاب على الحصول على علامات جيدة في الصف الجامعي لزيادة فرصهم في العمل فحسب. ومع ضغوط العمل نفسه، لم يعد هناك وقت للمطالعة. وشيئًا فشيئًا، فقدت الثقافة العامة ميزتها الوجيهة، وهي التي كانت تمنح الفرد منافع جمة. فالتعرف على مختلف العلوم الإنسانية يثري الفرد عقلًا وروحًا؛ إذ تُغذى القدرة الابتكارية للعقل بالمزج بين شتى العلوم، كما تُضفي عليه طابعًا إنسانيًّا؛ لأنه به يوقن أن القيم الإنسانية مطلقة ورحبة جدًّا، مما يوسع نظرته للحياة، وبها يدرك أنه لا يوجد منظور واحد للصعاب التي يواجهها في الحياة. فمع استيعابنا

لرحابة الفكر الإنساني، ندرك أن المشاكل اليومية ليست إلَّا شيئًا بسيطًا مقارنة بالعالم الواسع الممتد اللا نهائي. تأثير ذلك هو تأثير رؤية البحر أو الصحراء اللا نهائية. حينها نعلم أن آفاق الحياة شاسعة ولا تتوقف على اليومي المحدود الخاص الضيق وسجن الذات.

ومن هنا تظهر أهمية هذا الكتاب؛ فهو يحيط بشتى المجالات الفكرية العامة؛ الفلسفة- الدين- العلم- السياسة- الاقتصاد- علم الاجتماع- علم النفس- الفنون.

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يشرح المصطلحات والأفكار الجوهرية في هذه المجالات. فمع نهاية قراءة كل فصل، تتشكل لدى القارئ معرفة شاملة وعميقة -في آن واحد- بأساسيات كل مجال، مما يوفر عليه عناء قراءة العديد من الكتب في العديد من المجالات لإدراكها، أو ربما يفتح شهيته لمتابعة الجديد في كل مجال بتفاصيله ودقائقه. كما يمتاز الكتاب بأن كل المصطلحات فيه مبوبة على شكل معجم، مما يسهل على القارئ التعرف على أي مصطلح شاء.

أسلوب الكتاب سهل ممتنع. فشرح كل مصطلح لا يتجاوز صفحة أو صفحتين، وفيه يوجد كل ما تحتاج إليه، فهو تكثيف للمعلومات الخاصة بكل مصطلح. فالمنهج المستخدم في العرض يقوم على: التعريف بالمصطلح، وبيان أهم رواده وكتبه الأساسية، وتطوره الفكري، والنقد الموجه إليه. علاوة على ذلك يتسم الكاتب بالموضوعية في طرح القضايا الشائكة. فمثلًا يقول الكاتب في فصل الاقتصاد: «واتفق بعضهم -على الرغم من ذلك- على أن التجارة الحرة غير الـمُقيدة تنحاز إلى مصالح الدول الثرية على حسب التطور الاقتصادي للدول الأفقر».

تتسم أيضًا محاور الكتاب بالعصرية، إذ تحيط بثقافة عامة سهلة الاستيعاب والتذكر لا غنى عنها لأي فرد يعيش في القرن الحادي والعشرين، تساعدنا على فهم المصطلحات التي تتردَّد يوميًّا على أسماعنا بشكلٍ مبهم، وتوضح لنا الأصول الفكرية للسياسات القائمة في العالم من حولنا حاليًا. فمثلًا تُلقي فقرتا «الاقتصاد الكينزي» و«النمو الاقتصادي» -في فصل الاقتصاد- الضوءَ على كيفية نمو المجتمعات الأوربية والأمريكية نموًّا اقتصاديًّا هائلًا، وتجاوزها للأزمات الاقتصادية الحادة حتى يومنا هذا، مما يساعدنا على فهم سبل تطور البلاد اقتصاديًّا.

بالطبع يعرض الكتاب هذه المصطلحات من المنظور الغربي، وليس هذا تقصيرًا من المؤلف، وإنما هو أمرٌ طبيعي، وربما يحفزنا في ثقافتنا العربية على الإضافة إليه عبر منظورنا العربي. ونظرًا لغموض بعض المصطلحات بالنسبة للقارئ، فقد وضع المترجم بعض الهوامش التفسيرية.

هذا الكتاب رائع وممتع بلا أي مبالغة، تستفيد منه كل الأعمار صغارًا وكبارًا؛ للتزود بثقافة عامة وإنسانية راقية. والآن، أتمنى لك رحلة قراءة ممتعة، راجيًا أن يضيف إليك هذا الكتاب أفكارًا عظيمة.

محمد حسونة

أكتوبر ٢٠١٤

القاهرة

مُقدمة

ما الذي يجعل من فكرةٍ مبتكرةٍ فكرةً عظيمةً؟

في عام ١٩٥٣، نشر الفيلسوف البريطاني إشعياء برلين Isaiah Berlin مقالًا مشهورًا بعنوان (القنفذ والثعلب *The Hedgehog and the Fox*)، وهو مقال مبني على جزء من حكاية رمزية قديمة للشاعر اليوناني القديم أرشيلوسيوس Archilochus، فحواها أن الثعلب يعلم أشياء كثيرة صغيرة، في حين أن القنفذ يعلم شيئًا واحدًا عظيمًا.

استخدم برلين هذه الأسطورة كنواة لتقسيم مفكِّري العالم وكُتَّابه العظام إلى قسمين: الثعلب والقنفذ. لدى القنفذ فكرة عظيمة واحدة، فهو يرى العالم كله من خلال هذه النظرة الـمُفردة. وقد ضرب برلين عددًا من الأمثلة على هذا الصنف من المفكرين والفلاسفة مثل أفلاطون وهيجل ونيتشه، والكُتَّاب مثل دانتي ودستويفسكي وإيبسن وبروست. في المقابل يبتكر الثعلب -الذي يُمثله أرسطو وشكسبير ومونتاني وجوته- نطاقًا واسعًا من الأفكار والتجارب، كما أنه يرى العالم من زوايا متعددة.

يتضمن هذا الكتاب العديد من الأفكار العظيمة «للقنفذ» -مثل نظرية الـمُثل الأفلاطونية أو النظرية المثالية لهيجل أو النظرية المادية الجدلية الماركسية- على سبيل المثال لا الحصر.

ولكن بسبب النطاق الواسع لمثل هذه الأفكار «القنفذية»، وبسبب رغبتي في ضم الكثير من المفاهيم المتناقضة: تساؤلاتها وفرضياتها؛ بسبب كل هذا ستكون طريقة عرضي للأفكار العظيمة في هذا الكتاب أقرب لطريقة «الثعلب».

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعرض آفاقًا شاسعة من المجالات الأكاديمية، إلا أنه يحاول الإحاطة بكل هذه المفاهيم، أو وبالأحرى اختيار مجموعة من الأفكار التي يشعر القارئ العام أنه ينبغي له أن يعرف القليل عنها، ومن ثم يمنحه هذا الكتاب ملخصًا وجيزًا لمفاصلها الرئيسة. أطولُ الأقسام في هذا الكتاب كُرِّست إلى حدٍّ كبير للأفكار الفلسفية والسياسية، ولا عذر لي في ذلك. ولكن القارئ سيجد أيضًا موضوعات عن العلم والاقتصاد وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس والفنون. أما الذين يتوقون لمعرفة المزيد عن الأفكار العلمية، فهناك مجلد كامل في هذه السلسلة مُكرَّسٌ لهذا الموضوع.

إيان كروفتون

مايو ٢٠١١

الفصل الأوّل

الفلسفة

الفلسفة Philosophy

يرجع مصطلح الفلسفة إلى الكلمة اليونانية القديمة *philosphos*، بمعنى «حب الحكمة»، وإلى استخدام الفلاسفة اليونانيين القدماء لها في نطاق فلسفي شديد الشمولية. اليوم، نلقي نظرةً أكثر تحديدًا لما تمثله الفلسفة. يتم تعريف الفلسفة بوصفها فحصًا نقديًّا للأسس التي تُبنى عليها معتقداتنا الجوهرية، مثل: ما الحقيقية؟ وبوصفها تحليلًا لمفاهيم تعودنا على التعبير عنها كمُسلَّمات.

اهتم الفلاسفة قبل سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) بالتفكير في العالم الفيزيائي، مثل طبيعة الأشياء المادية أو ظاهر الكون. وقد طُرحت مثل هذه المسائل في العصور الوسطى تحت مُسمَّى «فلسفة الطبيعة» التي نطلق عليها اليوم «العلوم» Science.

يمكن تصنيف العلوم بوصفها نشاطًا «من الدرجة الأولى» «first-order» يهتم باكتشاف حقيقة العالم الفيزيقي. وهناك نشاط آخر أيضًا يوصف بأنه نشاط من الدرجة الأولى ألا وهو الوعظ، فهو يُبلغنا ما هي الأفعال الصحيحة وما هي الأفعال الخاطئة. أما الفلسفة؛ فهي على العكس من ذلك، نشاطٌ«من الدرجة الثانية» «second-order»؛ لأنها تقوم بفحص الافتراضات الناتجة عن أنشطة الدرجة الأولى.

صوَّب سقراط -الذي حُفِظت أفكاره من خلال محاوراته التي سجلها تلميذه أفلاطون (انظر ص ١٨)-أسئلة الفلسفة صوب القضايا التي تخص الإنسانية، مثل «ما الخير؟». ومن هنا كانت بداية علم الأخلاق: وهو فرع من الفلسفة يبحث عن أسس الحكم الأخلاقي. طَوَّرَ سقراط أيضًا أساليب اختبار صحة البرهان: ومن هنا كانت بداية علم المنطق.

إن الأخلاق والمنطق هما الفرعان الأساسيان للفلسفة. الفرع الثالث هو فلسفة الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، الذي يتساءل عن الحقائق النهائية للواقع Ultimate Nature of Reality[1]، مثل «ما الوجود؟». هناك مجالات أخرى للفلسفة تشمل علم المعرفة الذي يدرس طبيعة المعرفة، وعلم الجمال الذي يدرس طبيعة الجمال والفن ويستفهم عن أسس البراهين النقدية المسوغة لها.

علاوة على ذلك، تخصص فلاسفة آخرون في موضوعات من «الدرجة الأولى»، مثل فلسفة العلوم وفلسفة التاريخ والفلسفة السياسية.

المنطق Reason

المنطق كلمة تحمل ظلالًا ومعانيَ مختلفة. فالمنطق هو القدرة التي تسمح للإنسان بالاستدلال المنطقي والحِجاج بدءًا من العام إلى الخاص (الاستنتاج)، أو انتقالًا من الخاص إلى العام (الاستقراء). بالنسبة لبعض الفلاسفة، يُعَد «المنطق» امتدادًا دالًّا للعقل ومصدرًا للمعرفة في مقابل التجريب.

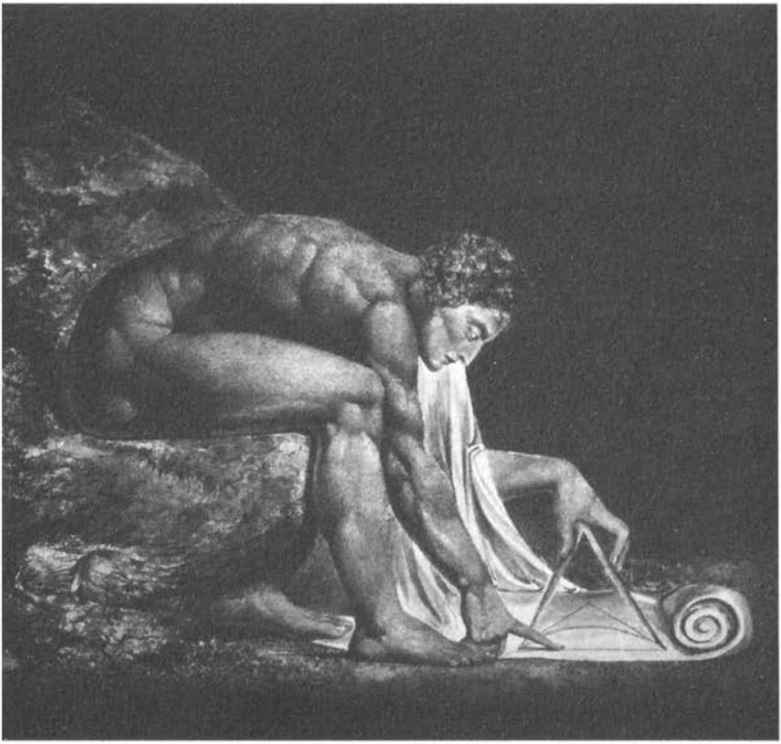
---

(١) الحقائق النهائية للواقع- ترجمة: زكي نجيب محمود- الموسوعة الفلسفية المختصرة- القاهرة- مكتبة الأنجلو، ص ٣٥٦. (المترجم).

بصفة عامة يتضاد المنطق مع المشاعر أو الخيال أو الجنون أو الإيمان.

لكن في القرن الثالث عشر تطلع القديس توما الإكويني St Thomas Aquinas إلى التوفيق بين الإيمان والمنطق بتعظيم مكانة المنطق في نظرية اللاهوت المسيحية.

في القرن الثامن عشر، أكد مفكرو عصر التنوير على أولوية المنطق؛ رغبةً منهم في القضاء على الخرافة والتعصب، وفي إعادة هيكلة الحياة العامة على أسس منطقية. وكرد فعل لذلك، شددت الحركة الرومانسية -التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر- على مركزية المشاعر في التجربة الإنسانية. (انظر ص ٣١١).



صورة لنيوتن بفرشاة الإنجليزي وليام بلاك William Blake من المدرسة الرومانسية. صورة تنم عن الهوس بالمنطق وتغفل العالم الطبيعي. وعلاوة على ذلك تعكس صورة الإله في مجلد الصور الخاص بوليام بلاك الذي يحمل عنوان العصور القديمة The Ancient of Days.

الأفلاطونية Platonism

لقد وُصِفَت الفلسفةُ الغربية كلها بأنها هوامش على فلسفة أفلاطون. وهكذا نرى مدى استمرارية تأثير الفيلسوف اليوناني القديم حتى يومنا هذا.

عاش أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م) وتعلَّم في أثينا وأنشأ بها مدرسة فلسفية عُرِفَت بالأكاديمية. كان أفلاطون تلميذًا لسقراط (انظر ص ١٥- ١٦)، وأغلب كتاباته حُرِّرَت على شكل محاورات بين سقراط وأتباعه، حتى بات من غير المعروف ما مدى قرب هذه الكتابات من أفكار سقراط ذاته، ومدى تميزِها عن أفكار أفلاطون نفسه.

تستخدم المحاورات ما يُسمَّى «منهج سقراط»، وفيه يدَّعي سقراط بموجب الجهل وهو يسأل أتباعه أسئلةً متتاليةً، فيبدون متناقضين في أجوبتهم. وبهذه الطريقة تتضح القضايا وتتشكل أبعادها لتقارب الحقيقة. كُرِّسَت المحاورات الأولى للفضائل مثل التقوى والشجاعة، وقد خَلُصت إلى أن الفضيلة هي المعرفة وأن الرذيلة ناتجة عن الجهل.

منهج المحاورات دالٌّ في ذاته؛ إذ يتضمن تحديًا شديدًا للمسلمات، وإلحاحًا على تقديم البراهين المنطقية. وهذه هي السمات المميزة للفلسفة الحقيقية.

ناقشت المحاورات أيضًا الحقائق النهائية للواقع. وهي -بحسب أفلاطون- عبارة عن الـمُثل أو أفكار وليست ما نختبره في العالم المادي. أسمى الـمُثل: الخير الذي يُعادل المعرفة. لتوضيح هذا المفهوم، اعتمدت جمهورية أفلاطون حكايةً رمزيةً لسجناء في كهف (انظر ص ٢٠). تهتم الجمهورية أيضًا بالسياسة، وتناقش طبيعة العدل، وتتخيل مفهومًا مثاليًّا لدولة يحكمها الفلاسفة الملوك وحدهم.

في نهاية حكم الإمبراطورية اليونانية القديمة، طورت الأفلاطونية الـمُحدثة Neo-Platonists[٢] فلسفة صوفية مبنية على مُثل أفلاطون، وجاءت بمعرفة سرية تراتبية تصاعدية (إلى المبدأ الأسمى تقابلها حركة نقوصية ترتد إلى المحسوس)[٣] فيما عُرِفَ بسلم الوجود. وقد أثرت الأفلاطونية الـمُحدثة هذه على كلٍّ من الفلاسفة اليهود والمسيحيين والمسلمين حتى عصر النهضة وما بعده، ولكنها لم تحظَ بذات الأهمية التي حظيت بها أعمال أفلاطون نفسه.

كهف أفلاطون Plato's Cave

يقدم أفلاطون في الجمهورية حكاية رمزية يمثل فيها الإنسانية في صورة سجناء مربوطين بسلاسل في كهف. كل ما يستطيعون رؤيته هو الحائط الماثل أمامهم، وبالتالي فهم يختبرون الأشياء من خلال ظلالها المرسومة على الحائط بفعل النار الموقدة في الكهف. وبحسب أفلاطون، هذه الظلال مرادفة لجهلنا بالحقائق النهائية للواقع، التي تتألف من مُثُلٍ كاملةٍ وخالدةٍ.

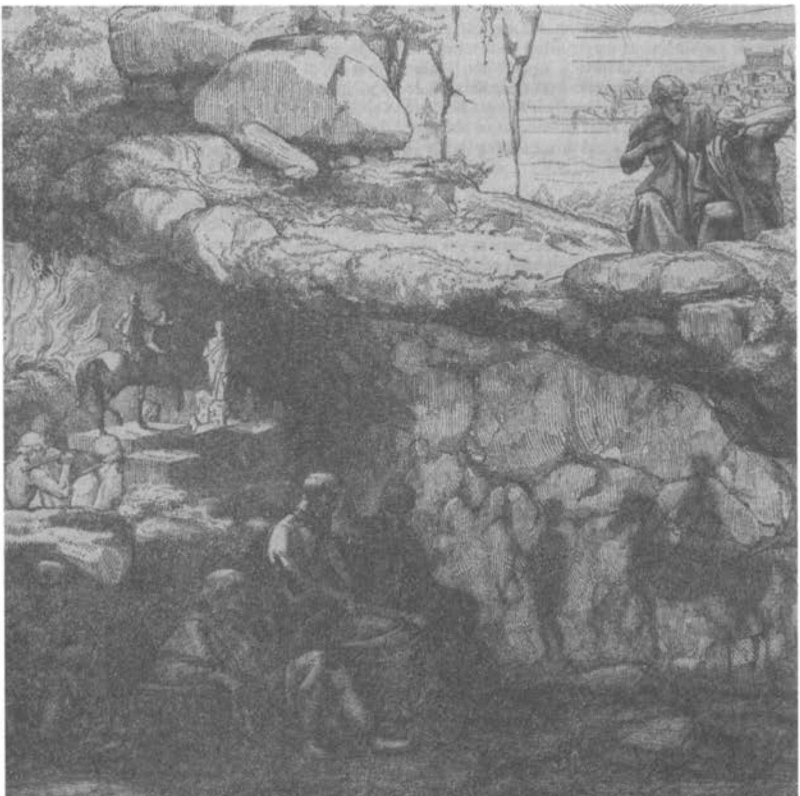
ومن ثم، فإن طاولةً في واقعنا ما هي إلا نسخة غير مثالية، أي ظل لطاولةٍ أخرى مثالية. كما أن الحصان هو مظهر لنموذج أصلي لوجود

---

(٢) الأفلاطونية الـمُحدثة: نسبة إلى فلسفة أفلوطين (٢٠٥-٢٧٠)، وهو فيلسوف مصري جاء من مصر العليا ليدرس الفلسفة في مدرسة أثينا بالإسكندرية. لم تكن الأفلاطونية المُحدثة في الواقع إحياء للفكر الأفلاطوني بقدر ما كانت محاولة لدمج الفكر القديم كله بما في ذلك أرسطو والمشائين والرواقيين والفيثاغوريين والأفلاطونية، ووصفت بأنها محاولة إسكندرانية سورية أثينية، وقيل إنها آخر محاولات العصور الوسطى لإخراج فلسفة متكاملة يمكن أن ترضي الطموح الفكري والديني للإنسان في ذلك الوقت. (المترجم).

(٣) العبارة بين القوسين وضعها المترجم للتوضيح.

الحصان، كما أن الأحصنة كلها مختلفة على أنحاءٍ شتى، إلا أن أيًّا منها لا يمثل الحصان الحقيقي والمثالي. الأشياء التي نختبرها في الحياة هي دائمًا أشياء متغيرة: لقد كانت الطاولة في فترةٍ ما شجرة، والحصان يحيا وينمو ويموت. إننا نصل إلى المعرفة الحقيقية فقط في العالم غير المرئي للمُثُل؛ كل المعرفة التي نحصل عليها في العالم المحسوس هي في واقع الأمر لا شيء أكثر من رأي أو اعتقاد.



الأرسطية Aristotelianism

الفيلسوف الإغريقي أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، تلميذ أفلاطون، ولكن نهجه كان شديدَ الاختلاف. ففي حين تَمَسَّكَ أفلاطون بأن الحقائق النهائية للواقع هي أبعد ما يكون عن التجربة الإنسانية، كان أرسطو مهتمًّا بدراسة العالم كما يجده. كتب أرسطو العديد من الموضوعات -على نطاقٍ واسع- في المنطق والأخلاق والجمال والسياسة، وحتى الفيزياء وما وراء الطبيعة والفلك والظواهر والأحوال الجوية وعلم النفس وعلم الأحياء وبيولوجيا الحيوانات.

وعلى عكس أفلاطون، شدَّد أرسطو على أن الحقيقية تتألف من عناصر مفردة، وليست كيانات مجردة. وبحسب أرسطو، فالمصدر الوحيد للمعرفة هو الشواهد التي تمنحنا إياها حواسُّنا، وأكد أنه يمكن إقرار الصفات المميزة للأشياء -أي جوهرها- باستخدام المنطق. إذنْ فانطلاقًا من الخاص يمكننا الاستدلال على العام واستنتاجه.

فكر أرسطو في وضع منطقه على أسس سليمة، ومن ثم اكتشف طبيعة القياس المنطقي (انظر ص ٧٤)، بوصفه منهجًا للاستدلال كما هو مُبَين في المثال التالي: «كل اليونانيين بشر؛ كل البشر فانون؛ وبالتالي اليونانيون فانون»، وللتمييز بين الاستدلال الصحيح والاستدلال الخاطئ، أرسى أرسطو أسس المنطق الصوري، ووضع قواعدَ منطقية للعلم.

في تحليله للشِّعر والدراما، أكد أرسطو أن الفن يجسد الطبيعة في صورة مُثلى، وأن جوهر الجمال متناسق ومنظم، وأن وظيفة الدراما تطهير المشاعر عن طريق الشفقة والخوف. لقد شدد أرسطو على أنه من المهم

لسعادتنا أن نتمرن على المنطق بوصفه مَلَكَة الإنسان الأساسية. يشمل تمرين المنطق كلًّا من الجهد الفكري والتحكم في مشاعرنا حتى نحقق «الوسط الذهبي» ما بين التقشف والفيض. (انظر ص ٨٦).

خلال عصور الظلام في أوربا، تم حفظ تعاليم أرسطو عن طريق علماء العالم الإسلامي، لا سيما حين انتشر المترجمون اليونانيون في أوربا في القرن الثاني عشر وترجموا عنهم. كان لهؤلاء المترجمين تأثير كبير في الفكر الغربي، فقد شيَّدوا الأسس التي تطور في إطارها الفكر الغربي اللاحق.

النزعة الإنسانية Humanism

يمكن تفسير النزعة الإنسانية بوصفها مذهبًا فكريًّا يضع الإنسان في مركز اهتماماتنا. كان الفلاسفة اليونانيون -قبل سقراط- معنيين بصفة أساسية بطبيعة الكون، في حين سلَّط سقراط وأفلاطون وأرسطو -في اهتمامهم بالسياسة والأخلاق- الضوء على الإنسان.

في العصور الوسطى الأوربية، كانت الجهود الفكرية تنصب على الله وعلم اللاهوت. وأما في عصر النهضة فقد تم إحياء التراث اليوناني والروماني القديم ذي النهج الدنيوي إلى حدٍّ كبيرٍ. بدأت كلٌّ من الفنون والآداب والعلوم الاهتمامَ بالإنسان على نحوٍ أكثر حسمًا، وذلك على الرغم من إثباتها وجود الله وجلاله. مع بداية الثورة العلمية في القرن السادس عشر، بدأ الناس يؤمنون بأنه يمكن لعقل الإنسان أن يكشف عن كيفية عمل الكون. أما اليوم، فغالبًا ينطوي مصطلح «النزعة الإنسانية» على الإلحاد، أو على الأقل على موقف دنيوي قوي.

الطبيعة الإنسانية Human Nature

إن أسئلةً على شاكلة: هل هناك شيء يُمكن أن يُسمَّى بالطبيعة الإنسانية Human nature ؟ وإن كان ذلك كذلك، فما هذه الطبيعة؟ هذه أسئلة كَثُرَ الجدل حولها بين المفكرين قرونًا عدةً. لقد أكدت العقيدة المسيحية أن آدم وحواء طُرِدَا من الجنة لعصيانهما الله منذ الأزل، ومن ثم فإن كل إنسان يُولد من هذه «الخطيئة الأصلية». بحسب هذا المنظور، فكل البشر مخطئون أصلًا، والنجاة غير ممكنة إلا باتحاد عناصر عدة: الوساطة الكهنوتية (وفقًا للنظام الطائفي) والأعمال الخيِّرة والإيمان بشكل جوهري. (انظر ص ١٢٤).

تبنَّى الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes هذا التصور الـمُظلم نفسه عن الطبيعة الإنسانية، مُشددًا على أن حياة الإنسان الأول كانت «بغيضة ووحشية وقصيرة»، وراح يُؤكد أنه يمكن فقط لمجتمعٍ منظمٍ بشدة يقوده حاكمٌ شاهرٌ للسلطة المطلقة أن يحفظ البشر من «الخوف المستمر وخطر الموت الوحشي».

وإلى يومنا هذا، يميل السياسيون المحافظون إلى التشديد على أهمية السلطة والتراتبية ورفض محاولات تحسين أحوال الفقراء، بما أن «الهيكلة الاجتماعية» Social engineering محكومٌ عليها بالفشل، وذلك بحسب منظورهم للطبيعة الإنسانية بوصفها كسولة وأنانية.

وفي القرن الثامن عشر، اتخذ الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو Jan-Jacques Rousseau موقفًا مضادًّا للطبيعة الإنسانية؛ إذ يؤكد أن الإنسان في مرحلة الطبيعة كان يتسم «بالوحشية النبيلة»، وأن طيبتهُ الطبيعية هذه تُفْسِدُ المجتمع.

بعد هوبز بجيلٍ، جاء الفيلسوف جون لوك John Locke (انظر ص ٦١) لينفيَ وجود شيءٍ اسمهُ الطبيعة الإنسانية، قائلًا إن الإنسان يولد «كالصفحة البيضاء». وأضاف أنه يمكن للإنسان أن يتشكل وفقَ بيئته وتربيته. ومن ثم أعطى لوك أولوية كبرى للتعليم في هذا الصدد.

وبشكلٍ عام تبنى مفكرو اليسار السياسي من الاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين هذه الرؤية. فهم يؤمنون أن المجتمع إذا ما تم تنظيمه بشكلٍ صحيح، فسيسلك البشر سلوكًا صحيحًا، وسيؤثرون التعاون مع بعضهم ويحققون السعادة. هذا هو الجانب السياسي للطبيعة الإنسانية في مقابل الجدل الدائر حول أهمية التربية.

الحب Love

عندما نسمع كلمة «الحب» اليوم، فإن أول ما يخطر ببالنا هو مشاعر الشوق والحنين والعاطفة والرغبة بين شخصين: «الحب الرومانسي». لكن بعض أصحاب النزعة النسوية يرفضون ذلك، ويرون أن الحب على هذا النحو ليس أكثر من بناء ثقافي لتعزيز سطوة الرجل، في حين أن البيولوجيين الاجتماعيين يؤكدون أن وظيفة الحب مرتبطة بالانتقاء الجنسي وتطور الإنسان.

يميز اليونانيون القدماء بين ثلاثة أنواع من الحب: العاطفة (*philos*) مثل تلك التي توجد بين الأصدقاء؛ والحب الجنسي (*eros*)؛ والحب الأناني (agape). وكلمة Agape هي الكلمة المستخدمة في اللغة اليونانية الأصلية من قبل القديس بولس St Paul (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس١٣ :١٣) Corinthians 1 – «أما الآن فَيَثْبُتُ الإيمانُ والرجاءُ

والمحبةُ هذه الثلاثةُ ولكن أَعْظَمَهُنَّ المحبةُ». في علم اللاهوت المسيحي يصبح حب الله لخلقه هو الحب الأقصى، وهو بحسب دانتي Dante «الحب الذي يحرك الشمس والنجوم الأخرى». اعتبر أفلاطون وأرسطو الحب نوعًا من التوق إلى الكمال: «الحب الأفلاطوني» الذي يتجاوز الرغبة الجنسية. أما أعلى مراتب الحب فتتمثل في حب الحكمة؛ وهو المعنى الأصلي لكلمة «فلسفة».

التاريخ History

في أبسط صورة، ينطوي التاريخ على القصص التي لا نزال نتحاكاها عن الماضي. فالكتابات التاريخية المبكرة هي قائمة أسماء الملوك مثل الموجودة في الشرق الأوسط. وتتبع هذه القائمة عامةً سلسلة نسب الحكام لتصل بها إلى الإله، وبالتالي فهي تمنح الحاكم طابعًا إلهيًّا لحقه في الحكم. لقد صاغت الأساطير والملاحم قصصًا حول هذا النسب لتفسر كيف صارت الأمور في هذا العالم على هذا النحو.

بعد ذلك، بدأ المؤرخون يسجلون أحداث الماضي القريب، تحدوهم نزعةٌ لتحريف هذه القصص من أجل إظهار دولهم أو ثقافتهم أو دينهم في أفضل صورة؛ مثلما فعلت الأساطير والملاحم من قبل. إن ميل المؤرخين للكتابة وفق دوافع خفية هو سلوك متكرر لدى الكثيرين.

في القرن التاسع عشر مثلًا، كتب العديد من المؤرخين التاريخَ بوصفه بيانًا لتقدم الإنسان، مراكمين في ذلك ما يرونه مناسبًا لرفعة دولة

الأعمال المعاصرة لهم. أما بالنسبة لبعض المؤرخين الإنجليز مثل اللورد ماكولي Lord Macaulay (١٨٠٠-١٨٥٩) فالتاريخ عبارة عن زحف لا يمكن إيقافه يتجه من النظام الملكي نحو النظام الدستوري البرلماني الديموقراطي.

أما في ألمانيا، فقد رأى الفيلسوف هيجل G.W.F. Hegel (انظر ص ٥٤) أن التاريخ عبارة عن تجلٍّ للروح المطلق، والذي بلغ ذروته في الحكم المطلق للدولة البروسية[٤] التي كان يعيش فيها. وقد اتخذ ماركس Marx نهجًا حتميًّا مشابهًا، ولكن بالنسبة له هدف التاريخ هو الوصول إلى الشيوعية المثالية. (انظر ص ٢٠٤).

---

(٤) بروسيا Prussia: هو اسم كان يطلق بالأصل على المقاطعة الألمانية التي أطلق عليها لاحقًا اسم «بروسيا الشرقية». سُميت المنطقة على اسم السكان الأصليين البروسيين ذوي الأصول البلطيقية. أصبحت منذ عام ١٢٢٥ مركز دولة فرسان الرهبنة الألمانية Deutschordensstaat، ثم قسمت إلى جزئين، أحدهما بدءًا من عام ١٤٦٦ بروسيا الملكية تحت سلطة التاج البولوني، والأخرى منذ ١٥٢٥ إمارة بروسيا بعد علمنة ما تبقى من دولة الفرسان. في عام ١٦١٨ أُلحقت إمارة بروسيا بإمارة بطرسبرج الانتخابية. تحولت بروسيا بعد انهيار الملكية في **ثورة تشرين الثاني** ١٩١٨ إلى جمهورية ما لبثت الحكومة الإمبراطورية أن أسقطتها فيما عرف -«ضربة بروسيا» سنة ١٩٣٢. ثم جاءت نهاية بروسيا على يد الحلفاء بعد انتهاء **الحرب العالمية الثانية**، حين أمر مجلس قوات الاحتلال المتحالفة سنة ١٩٤٧ بحل الدولة البروسية. إلا أن تاريخ بروسيا شكل أرضية تقليدية لجمهورية ألمانيا الاتحادية المؤسسة سنة ١٩٤٩. تتقاسم **ألمانيا** اليوم أراضي بروسيا (لعام ١٨٧١) مع ست دول أخرى من **فرنسا** إلى **روسيا**. يُستخدم اسم «بروسيا» اليوم للإشارة إلى الدلالات التاريخية الثقافية أو الجغرافية فقط. يؤمن بعض الناس أن بعض «القيم البروسية» المحددة كانت جزءًا من الأسباب التي أدت لنهوض دولتهم وبروزها كقوة عظمى، ومثال ذلك: التنظيم المثالي، الانضباط، **التضحية**، الدور الفعّال للقانون، الخضوع للسلطات، الموثوقية، الصبر والجلد، الصدق، التدبير، الانتظام، التواضع، والاجتهاد.

يرفض المؤرخون اليوم الفكرة التي بموجبها يعمل التاريخ من أجل أهداف شاملة مهيمنة. ويسعى المؤرخون الآن إلى كتابة التاريخ بنهج أكثر موضوعية. ولكن الموضوعية الكاملة لا يمكن تحقيقها تمامًا في كتابة التاريخ. حتى ولو كانت الواقعة القائمة غير قابلة للجدل، إلا أن المؤرخين ينتقون الوقائع بترتيب معين وفقًا لموقفٍ أو اتجاه تفسيري محدد. وبحسب هذا الانتقاء ذاته والـمُتَمَثِّل في تحديد ما الوقائع المهمة وكيف تترابط بالوقائع الأخرى، يبدو أن المؤرخين على هذا النحو كأنهم قد ضُلِّلوا حتمًا بفعل طبقتهم الاجتماعية وثقافتهم، وحتى جنسهم.

الطبيعة Nature

تحمل كلمة الطبيعة -مثلها مثل كلمة «الحب»- عددًا من المعاني وقدرًا هائلًا من الرصيد الثقافي. يمكن لطبيعة شيءٍ ما أن تعني جوهره أو تفسير سمته (انظر مثلًا إلى الطبيعة الإنسانية ص٢٠). كما تُشير أيضًا كلمة «الطبيعة» إلى كُلية الكون الفيزيقي في مقابل عالم الأفكار (انظر مثلًا إلى الـمُثل أفلاطون ص١٨) أو العالم الروحي.

من جهةٍ أخرى، يمكن أن توحي كلمة «الطبيعة» إلى كل ما هو مقابل «للثقافة». في أغلب الأحيان -وعلى مدى تاريخ الإنسان- كان يُنظر إلى الطبيعة بهذا المعنى بوصفها حالةً مكروهة: فالجبال والغابات مثلًا خطرة وغير نافعة، وبالتالي فهي قبيحة. فقط المناظر الطبيعية التي تم ترويضها بالزراعة والصناعة لها قيمة جمالية وأخلاقية. ولكن مع بداية الحركة الرومانسية في أواخر القرن الثامن عشر (انظر ص ٣١١) تغير هذا النهج،

وبدت البرية مصدرًا لإلهامٍ رفيع. وعلى نحوٍ أكثر معاصرة، شددت الحركة البيئية على قيمة البيئة البرية التي لم يلمسها إنسان (انظر ص ٢١٢).



الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)Metaphysics

الميتافيزيقا: فرعٌ من الفلسفة، يهتم بالوجود وبمعرفة الحقائق النهائية للواقع. إنها تتساءل عن الوجود، أو بعبارة أخرى عن وجود الله والعالم الخارجي، وعن طبيعة الزمان والمكان، وعن علاقة العقل بالجسد، وعن الحقيقة أو بالأحرى العلة، والفروضات الخاصة بالحتمية والإرادة الحرة في شؤون الإنسان. أما الجانب الميتافيزيقي المتعلق بالمعرفة فيعرف بعلم المعرفة Epistmology (انظر ص ٤٩).

سيطرت الأسئلة الميتافيزيقية على الاهتمام الفلسفي من زمن اليونانيين القدماء، مرورًا بالعصور الوسطى وما بعدها. فقد أكد أفلاطون مثلًا أن الحقيقة توجد فقط في عالم الـمُثل الـمُجرد (انظر ص ١٨)، في حين أن في القرن الثالث عشر، استخدم عالم اللاهوت المسيحي القديس توما الإكويني St Thomas Aquinas منطق أرسطو للبرهنة على وجود الله.

في القرن السابع عشر، استخلص الفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت -عن طريق البرهان المنطقي- أن العقل والجسد هما كيانان مستقلان، مما استلزم بالضرورة التفكير في كيف يمكن للشيء المادي وغير المادي أن يتفاعلا (انظر ص ٤٠).

كانت فروضات الميتافيزيقا -حول حقائق ما وراء قدرتنا على الملاحظة أو حتى المنطق- محطَّ سخرية من هؤلاء الحالمين الذين يعيشون في عالم خيالي. ولكن في القرن الثامن عشر، طرح الفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم David Hume سؤالين ينبغي على الميتافيزيقا الإجابة عليهما. أولًا- هل تنطوي الميتافيزيقا على أي تفكير مجرد متعلق بالكم أو الأرقام؟ ثانيًا- هل تحتوي على أي تفكير مرتبط بالتجربة ويتعلق بالحقيقة والوجود؟ إذا كانت الإجابة على السؤالين بالنفي، فينصحنا هيوم بالتخلص من كتب الميتافيزيقا؛ «لأنها لا تحتوي إلا على سفسطة وأوهام».

في القرن العشرين، هاجم مفكرو المنطق الإيجابي Positivist logical thinkers (انظر ص ٧٢) الميتافيزيقا وفق نفس الأسس، في حين رأى آخرون أن النزاع الذي تحتويه الميتافيزيقا نفسها ناتج عن سوء فهم

للطريقة التي تعمل بها اللغة. ولكن -على الرغم من هذه الانتقادات- لا تزال الأسئلة الميتافيزيقية تشغل فكر عددًا من الفلاسفة.

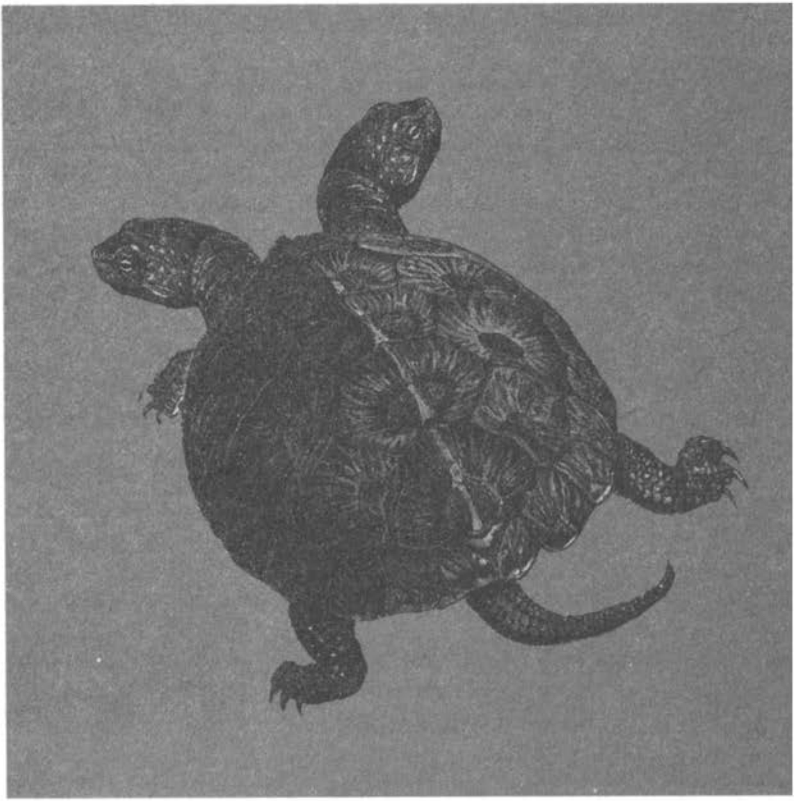
الغاية Purpose

يُطلق على الاعتقاد بأن الحياة والكون وكل شيء مُقَدَّر له غاية أو «هدف نهائي» اسم مذهب الغائية Teleology. نشأت هذه النزعة الفكرية بموجب الطرق التي يسلكها البشر وأفعالهم العاقلة من أجل الوصول إلى أهدافهم الخاصة. إن تعبيرات اللغة التي نستخدمها لوصف أهداف سلوكنا تشجعنا على استخدام هذه التعبيرات -التي تنطوي على نهايات محتومة أو متوقعة- على اعتناق مسارات مجاوزة للإنسان.

الباطن والظاهر في الفكر الغائي مفاهيم تنطوي وراء الظاهرة الطبيعية، خاصةً في الحياة على الأرض. ويُصر بعض المسيحيين على أن هذا المفهوم يستلزم «موجودًا عاقلًا» هو الله. إن عادة التحدث بلغة تمنح الأشياء غاية ما هو فخ يقع فيه حتى الداروينيون Darwinists [٥] أنفسهم، ولكن هذه التعبيرات اللغوية في الحقيقة هي طريقة قصيرة المنال لوصف كيف يمكن لطفرة جينية أن تُولِّد وظيفة مفيدة للكائن الحي، وبالتالي تدوم مع عملية الانتخاب الطبيعي (انظر ص ١٥٥).

---

(٥) الداروينية Darwinism: هي نظرية بيولوجية للعالم شارل داروين (١٨٠٩-١٨٨٢)، وبموجبها تطور الإنسان من سلالة القرد. ويأتي هذا التطور عند طريق الضغوط البيئية التي تولد طفرات: تغيير عشوائي في الشفرة الوراثية للكائن الحي. ومع مرور الزمن تدوم الطفرات التي ينتج عنها وظائف للكائن تجعله يتكيف مع البيئة، وتستقر هذه الطفرة وفقًا لعملية الانتخاب الطبيعي، وهي عملية تُبقي على الكائنات التي تكيفت مع الضغوط البيئية، وتفني الحيوانات التي لم تستطيع التكييف.



العبث The absurd

خلال القرن التاسع عشر، بدأ كثيرون -حول العالم- يفقدون اليقين في وجود الله. في البداية، برهن علماء الجيولوجيا على أن عمر الأرض ينبغي له أن يكون أقدم مما ذُكِرَ في الإنجيل. كما أثبتوا أيضًا -عن طريق الحفريات- أن العديد من الكائنات عاشت من قبل على الأرض وانقرضت.

فيما بعد، بيَّن شارل داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) أن الكائنات الحية تطورت عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي (انظر ص ١٥٥) وأن الله لم يخلق هذه الكائنات منذ البدء على الصورة التي هي عليها الآن. ووجد العديد من المفكرين أن حجج داروين غير قابلة للجدل، وأن الآثار المترتبة عليها مرعبة. غير أن الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه قد عبر عن مخاوف الكثيرين إزاء هذه النظرية عندما صرح في عام ١٨٨٢ بقوله «إن الله قد مات».

إذا كان الله غير مسؤول عن الحياة، إذنْ ليس للحياة غاية إلهية، وربما ليس لها أي هدف على الإطلاق. ومن ثم أُحْبِطَت النزعة الإنسانية العامة التي تبحث عن معنى لوجود الإنسان إزاء هذه الحقيقة الجافة للعلم. ولم يعد الإنسان قادرًا على الإجابة عن السؤال الخالد: «لماذا وُجِدنا؟».

نتج عن هذا التضارب تصورٌ للكون بأنه عبثي Absurd وغير ذي معنى. وبدت الإنسانية في مواجهة أزمة حرجة. وفرض سؤالٌ نفسه: كيف نتصرف في ظل كونٍ عبثي؟ وهذا هو أحد الأسئلة الرئيسة التي يهتم بها المذهب الفلسفي المعروف بالوجودية Existentialism (انظر ص ٣٥).

وعلى الرغم من أن فلسفة الوجودية وفكرة العبث ترجع أُسُسُهما إلى القرن التاسع عشر، إلا أن هذه الفكرة قد تعطلت في الثقافة الغربية خلال الحرب العالمية الثانية؛ إذ أظهر الهلوكوست Holocaust مدى الوحشية التي يمكن أن يصل إليها الإنسان. كما أن إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما ونجازاكي قدم مشهدًا لكيفية إبادة الإنسان لجنسه. ومن ثم ساهم الإحساس الناتج عن اليأس والقلق والارتباك في ظهور

نزعة «العبث» في الأدب، والتي تجسدت في مسرحية صمويل بيكيت Samuel Beckett «في انتظار جودو Waiting for Godot» (١٩٥٣)، وهي المسرحية التي ينتظر فيها اثنان -إلى ما لا نهاية- شخصًا ثالثًا المسمَّى جودو، والذي لا يأتي أبدًا.

الوجود Being

يُطلق على دراسة مفهوم الوجود اسم علم الوجود Ontology، الذي ينصب اهتمامه الأساسي على التمييز بين الأشياء التي تُوجد والتي لا توجد؛ بما فيها الكون والعقل المستقل عن الجسد والإرادة الحرة والجوهر والله.

إذا كانت هذه العناصر موجودة، فالأسئلة المترتبة على ذلك هي: هل توجد بطريقة مستقلة عن العقل أو عن اللغة؟ ويمكن لنا أن نتساءل أيضًا: هل هي غير قابلة للاختزال؟ هل هي مكونة من عناصر أخرى؟ وهل هي موجودة بوصفها عناصر مادية أم معنوية أم بوصفها خاصية تتعلق بعناصر أخرى؟

أحد موضوعات الجدل المستمر في الفلسفة هو حالة الكون، ومعنى كلمات عامة مثل «أزرق» و«قطة». يؤكد الواقعيون أن الكون يُوجد بشكل مستقل عن العقل، في حين يؤكد آخرون في أقصى الاتجاه المقابل وهم أصحاب «النزعة الاسمية» Nominalists أن الأشياء مثل الأسماء العامة لا يجمعها أي شيء مشترك إلا كونها مصطلحات عامة في ذاتها.

To be is to do
— Socrates

To do is to be
— Sartre

Do Be Do Be Do
— Sinatra

الوجودية Existentalism

الوجودية اتجاه فلسفي يتساءل بشكل عام عن كيفية تعامل الفرد مع كون خالد و«عبثي» بلا معنى أو غاية أو منطق (انظر ص ٣٢). في كون كهذا، يصبح وجود الإنسان مُمثلًا في حريته الكاملة في الاختيار.

ويجب على اختيارات الفرد أن تكون غير مقيدة، وذلك نظرًا لعبث الطبيعة الإنسانية والحدود العلمية والتاريخية والعقلانية والموت. ولكن في المقابل ينبغي على اختيارات البشر أن تُقرَّ تمامًا بوجود الآخرين

والأشياء من حولها. تكمن أصالة Authenticity[٦] الإنسان في الاعتراف بهذه الحرية المطلقة، مع تجاوزه للإيمان الخاطئ Bad Faith [٧] في الوقت ذاته. يتعرض الأفراد باستمرار للاختيار، وينبغي للفرد أن يتحمل بشكل تام مسؤولية اختياراته، مما يولد لديه حالةً من الهم والقلق.

كان للوجودية تأثيرٌ كبيرٌ على القارة الأوربية خاصةً. كما كان الفيلسوف الدنماركي سورن كيركيجارد Søren Kierkegaard (١٨١٣-١٨٥٥) من أوائل المفكرين الوجوديين المرموقين، وبصفته مسيحيًّا شدد على أهمية الاختيار الشخصي والالتزام به، وأكد أن الفرد في مواجهة العبث حرٌّ في اختيار عقيدته التى يصنع منها «إيمانه المطلق Leap of faith».

فيما بعد، أثَّر الفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه Friedrich Neitzeche (١٨٤٤-١٩٠٠) على الفلسفة الوجودية؛ فقد رفض نيتشه أسس الدين والعلم والميتافيزيقا ومنطق الحق المطلق أو القيم المطلقة، وشدد على أنه ينبغي على الفرد في عالم بلا بنية أو غاية أن ينفض عن نفسه «أخلاق العبودية» للمسيحية، وأن يتطلع إلى قيم جديدة «فيما وراء الخير والشر». كما يجب على الفرد الاستثنائي أن يعتنق «إرادة القوة»، وأن يعزز الحياة بالابتكار.

في القرن العشرين، اهتم الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر Martin

---

(٦) **الأصالة** Authenticity: مصطلح فلسفي وجودي بمعنى المدى الذي يكون فيه الإنسان صادقًا مع ذاته. (المترجم).

(٧) **الإيمان الخاطئ** Bad Faith: الظاهرة التي بسببها يتبنى الإنسان -تحت ضغوط المجتمع- قيمًا خاطئة ويتنكر لحريته الأصلية ليسلك سلوكًا غير صادق مع ذاته (الأصالة). (المترجم).

Heidegger (١٨٨٩-١٩٧٦) -أحد مؤسسي الوجودية- بتفسير معنى الوجود بشكلٍ عميق، وكان مسؤولًا عن شيوع مفاهيم الأصالة والقلق الوجودي. أما في فرنسا، فنجد الأديب والكاتب المسرحي والفيلسوف جان بول سارتر Jean-Paul Sartre (١٩٠٥-١٩٨٠) رائد الوجودية الذي رسخ المصطلح الوجودي «الإيمان الخاطئ».

الهوية Identity

إن مشكلة تحديدنا ما إذا كان شيء أو شخص لديه نفس الهوية على مرور الزمن، هي إشكالية حَيَّرت الفلاسفة. فإذا تصورنا مثلًا أن فأسًا قديمة تحتاج إلى تغيير مقبضها؛ ثم بعد أعوام عدة احتاجت الفأس إلى رأسٍ جديدة؛ عندها فبأي معنى ستكون هذه الفأس التي تم تغييرها هي نفسها الفأس القديمة؟

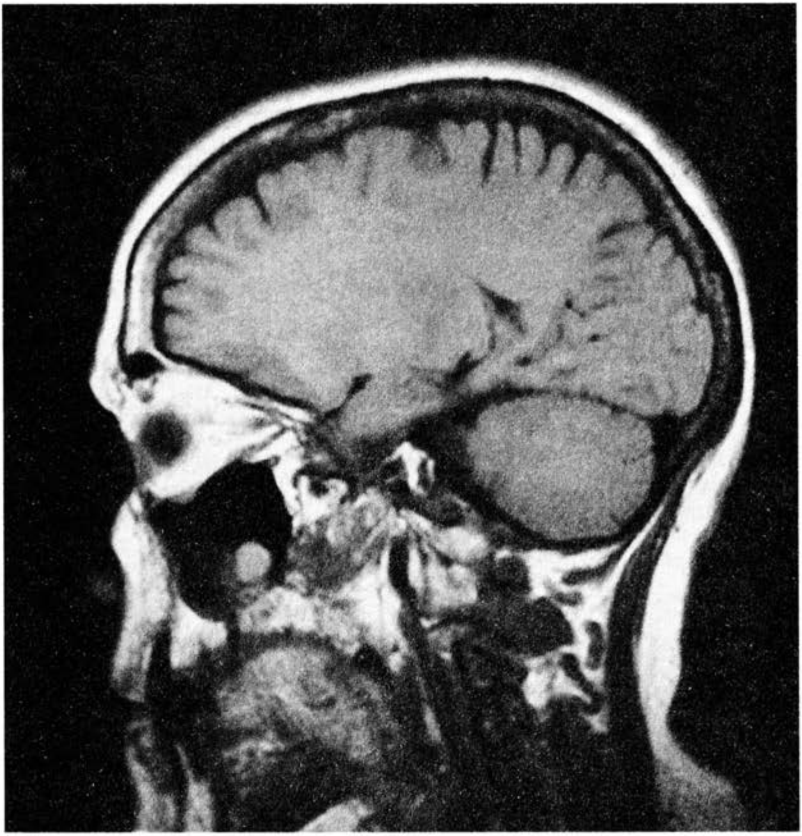
يمكننا أن نطرح أسئلة مماثلة بالنسبة لهوية الإنسان. يمكن أن تظل نفس الدنا موجودة لدى الفرد مثلما كانت قبل ثلاثين عامًا مضت، ومع ذلك فكل خلايا جسده تقريبًا قد تبدلت على مر السنين. وعلى الرغم من أن هناك تشابهًا بين حال الفرد الحالي وحاله قبل ثلاثين عامًا، إلا أن الحالين ليسا متطابقين تمامًا. فلا آراؤنا ولا سلوكنا يماثل ما كنا عليه في شبابنا. ومن ثم بأي معنى أكون أنا نفس الشخص؟ وقد استنتج بعض الفلاسفة أنه من الخطأ أن نتصور «جوهر النفس» كامنًا فيما وراء أفكار الفرد وذكرياته وتجاربه. فمن المحتمل أن يكون جوهر النفس كامنًا في عملية التغيير ذاتها لا المادة.



الوعي Consciousness

الوعي هو إدراكنا، ليس فقط للعالم الخارجي، بل لأنفسنا وما يدور في عقلنا أيضًا. يحتوي العالم الداخلي على المشاعر والذكريات والمعتقدات والتصورات وظواهر عقلية أخرى. يرى بعضهم أن الوعي هو ما يميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى. فالحيوانات تدرك العالم الخارجي بالتأكيد، ولكن لأيٍّ مدى هي مدركة لأنفسها؟ فهذه نقطة مُتنازع عليها. تعالج الحيوانات بالتأكيد المعلومات التي تتلقاها عن طريق الحواس، والتي على أساسها تكييف سلوكها؛ ولكن بالنسبة لسلوك الإنسان، نلاحظ أنه من دون ملكة الاكتشاف والوعي بالذات لا يمكن أن نقول إننا بشر.

تكمن واحدة من التحديات الحالية لعلم الأعصاب في إيجاد الأسس المادية للوعي. وقد تم الكشف عن وظيفة مناطق عديدة في المخ، ويرى بعض الفيزيائيين أنه يمكن للوعي أن يتشكل من أحداث كمية (انظر ص ٢٨٢). إلا أن الوعي عبارة عن تجربة ذاتية، فمن المحتمل ألا يمكن تفسيرها أبدًا بآليات مادية.



العقل Mind

وصفُنا لما يُسمَّى بالعقل أيسر كثيرًا من قدرتنا على تحديد كينونته. فُسر العقل كوحدة تجعلنا ندرك ونعتقد ونعقل ونتذكر ونشعر ونريد. وسواء كان العقل ببساطة هو مجموع العمليات العقلية -إدراكنا، اعتقاداتنا، منطقنا، ذكرياتنا، مشاعرنا وقراراتنا- أو كان شيئًا آخر منفصلًا يكمن فيما وراء الأحداث التي تحدث داخله، فإن العقل هو إحدى القضايا الثقيلة التي يفكر فيها الفلاسفة دائمًا.

يرى بعضهم أن المشكلة خادعة وناتجة عن واقع أن لدينا كلمة تُسمَّى «عقل»، وبالتالي فإننا نفترض -بما أن لدينا كلمة لهذا المفهوم- أنها يجب أن تكون حقيقية ومتميزة، ومن ثم يبدو لنا العقل حالة مميزة، يُحتمل أن تكون قريبة من «الروح». (انظر ص ١٢٠).

هناك قضايا أخرى مُتعلقة بالعقل شغلت الفلاسفة على مر العصور. هل العقل شيءٌ مماثل للجسد، أم مختلف عنه؟ وهذه الإشكالية تُعرف بمشكلة العقل والجسد.

أكد المثاليون Idealists (انظر ص٥٤) أن مملكة الأفكار هي وحدها الحقيقية، وأن الجسد ليس إلا إظهارًا للعقل. في المقابل يرى الماديون materialists (انظر ص ٥٦) أن العالم الفيزيقي وحده هو الحقيقي، وأن العقل ليس إلا وظيفة للجسد. هناك موقفان للنزعة الأحادية monist (من اليوناني monos واحد أو أحادي) يمثلهما الفكر المثالي والمادي، إذ يؤكد كلٌّ منهما أن الحقيقة تتكون من شيء واحد فقط.

في مقابل الأحاديين، شددت فلسفة الثنائية Dualism على أن العقل والجسد شيئان منفصلان. ومن أشهر مؤيدي الموقف الثنائي الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت René Descartes (انظر ص ٥٩) في القرن السابع عشر؛ فقد أكد أن العقل والجسد مادتان منفصلتان، ومع ذلك فهما متفاعلتان. وفي القرن العشرين، سخر الفيلسوف الإنجليزي جيلبرت رايل Gilbert Ryle من هذه الحالة الثنائية قائلًا: «الشبح في آلة».

التغير والحركة Change and Motion

لأول مرة، تردد السؤال عمَّا إذا كان التغير والحركة شيئًا حقيقيًّا أم وهمًا- عند بعض الفلاسفة الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد. أكد بارمينيدس Parmenides أن الحقيقة واحدة وثابتة، وأن الوجود وحده هو الحقيقة؛ وكل شيء في حالة من الوجود الدائم، في المقابل اللا وجود non-being وهم. ولكي يحدث التغير والحركة، يجب على الوجود أن يصبح لا وجودًا، وفي هذا تناقض. إن المعلومات التي نتلقاها عبر حواسنا عن التغير والحركة ما هي إلا تضليل من الحواس لنا. ابتكر زينون الإيلي Zeno of Elea -تلميذ بارمينيدس- مجموعة من الظواهر المتناقضة ليشرح من خلالها فلسفة التغير والحركة عند بارمينيدس.

في مقابل وجهة النظر هذه، شدد هرقليطس Heraclitus على أن الحقيقة تتكون من التدفق (التغير المستمر) والحركة، وأكد ذلك بعبارته المشهورة: «لا يمكن أن تضع قدميك في النهر نفسه مرتين». كل شيء عبارة عن «تناغم ما بين قوى متناقضة»، ووراء هذه العملية يكمن مبدأ منظم اسمه لوجوس Logos، وهو المرادف لمنطق الإنسان.



الحتمية Determination

الحتمية: عقيدة ترى أن كل شيء يحدث له سبب، وبالتالي محتوم، وكل أثر هو بدوره سبب لأثر آخر. ومن ثم تمتد سلسلة الأسباب والآثار في الزمان والمكان. بالنسبة لبعضهم، هذه السلسلة هي عبارة عن تجلي إرادة الله، الذي هو السبب الأولي The first-cause (انظر ص ٤٤). وبالنسبة لآخرين، هذه السلسلة هي نتاج حتمية قوانين الطبيعة.

في العلم، أسس اكتشاف إسحاق نيوتن Isaac Newton لقوانين الحركة والجاذبية (انظر ص ١٤٢) لمنظومة كاملة مُفسرة للكون. أدى هذا إلى تأكيد عالم الفلك الفرنسي بيار- سيمون لابلاس Pierre-Simon Laplace (١٧٤٩-١٨٢٧) على أنه يمكن للعقل استنباط ماضي كل شيء وحاضره، إذا حصل على معلومات عن كل القوى المؤثرة في الكون، ومعلومات عن كتلة وأبعاد وموقع كل الأشياء في الكون.

ولكن في عصر لابلاس نفسه، قد صارت شكوك حول هذه الأطروحة؛ إذ رأى الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم David Hume أن سببية الأشياء يمكن ألا تكون أكثر من عادة للعقل، من دون صحة منطقية. (انظر ص ٦١). وفي القرن العشرين، أظهرت الميكانيكا الكمية أن اللا حتمية هي التي تسود مملكة الجزيئيات المكونة للذرات (انظر ص ١٥٠).

في الواقع، تبدو الحتمية كأنها تنفي وجود الإرادة الحرة (انظر ص ٤٧)، ومن ثم المسؤولية الأخلاقية للأفراد عن أفعالهم تمثل إشكالية مركزية في الأخلاق. في علم اللاهوت المسيحي، تشدد عقيدة الجبر (انظر ص ١٢٥) على أن بعض الأفراد قدرهم هو العبودية، وأن آخرين قدرهم هو التسلط بغض النظر عن تصرفاتهم.

في السياسة، تميل أحزاب اليمين إلى التأكيد على مسؤولية الأفراد عن أحوالهم (المالية والصحية ...إلخ)، في حين تشير أحزاب اليسار إلى أن ظروف الأفراد هي رد فعل حتمي للعوامل الخارجية كالبيئة والتعليم والتربية بشكل كبير.

السَّبَبُ الأوَّلي First cause

تؤكد نظرية السبب الأوَّلي First-cause –وهي مظهر من مظاهر الحتمية (انظر ص ٤٣)– على أن وراء كل حدث سببًا، والذي تسبب بدوره في حدوثه سببٌ آخر، وهلم جرّا تمتد هذه السلسلة على مر الزمان. ولعدم الرغبة في التقبل بأن سلسلة السبب والأثر هي بهذا المنظور لا نهائية، شددت هذه النظرية على أنه لا بد من وجود سبب أوَّلي وأصلي.

أكد أرسطو على أن الكون كان موجودًا دائمًا، وبالتالي فإن «المحرك الأول» أو «المحرك الثابت» هو الذي يُديم الكون. ومثل المحرك الأول بالأفكار المطلقة. وفي العصور الوسطى، طور عالم اللاهوت توما الأكويني Thomas Aquinas - المتأثر بأرسطو - ما سمَّاه بالبرهان الكوني لوجود الله. فلا يمكن للكون أن يُوجد من دون سبب أولي ومن دون سبب سابق عليه، وهو هنا الله كما أكد توما الأكويني. ويرى علم الفلك الحديث أن الكون بدأ بالانفجار العظيم Big Bang (انظر ص ١٤٩) مستغنيًا بذلك عن الحاجة إلى سبب أوَّلي سابق عليه.



أرسطو وأفلاطون كما صورتهما لوحة رافائيل Raphael؛
مدرسة أثينا.

مذهب حرية الإرادة Free will

الإرادة الحرة هي قدرة الإنسان على صناعة اختيارات حرة، وبالتالي صناعة قدره. وهذا على عكس المذهب الحتمي الذي يرى أن كل الأحداث -بما فيها أفعال الإنسان- لديها أسباب، وبالتالي فهي حتمية. وهنا يبدو مذهب حرية الإرادة مناقضًا تمامًا لمذهب الحتمية (انظر ص ٤٣)، ولكن في الواقع هناك جدال عظيم حول ما إذا كانت الإرادة الحرة منافية تمامًا للحتمية أم لا.

في علم اللاهوت، تبدو فكرة الإرادة الحرة مناقضة مع مفهوم الله الكلي الإرادة والقادر على كل شيء المحسن الكريم، ومع ذلك فإن مفهوم الخطايا يعتمد على قدرة الإنسان على الاختيار بين الخير والشر. في الكتاب المقدس، أعطى الله آدم وحواء -وبالتالي نسلهما من بعد- حرية الاختيار السيئ وعصيانه. ومثل ذلك مثل الأهل المحبين لأولادهم، فعندما يشتد عود الأبناء، يمنحهم أهلهم قدرًا أكبر من الحرية في الخطأ والتعلم من الأخطاء.

في علم اللاهوت المسيحي، تتجلى محبة الله في فكرة رحمة الله بالبشر، والتي تتمثل في هبة الرحمة بالمخطئين، حتى وإن كانت هذه الرحمة غير مستحقة. وعلى هذا النحو، يسعى مذهب الجبر إلى التوفيق بين الإرادة الحرة وقدرة الله على كل شيء، إذ ترى أن الله يعلم مسبقًا مَن سينجو من الهلاك ومَن سيؤول إلى جهنم.

تبدو حقيقة الإرادة الحرة محطَّ توافق عالمي بين المجتمعات البشرية. إذ ترى هذه المجتمعات أن الإرادة الحرة تجعلنا مسؤولين أخلاقيًّا عن

أفعالنا، كما أنها تدعم كل نظم القانون، وهذا على الرغم من أن هناك، -في كل الأنظمة القانونية- حدًّا أدنى للسن الذي يكون فيه الأطفال غير مسؤولين عن الجرائم التي يرتكبونها.

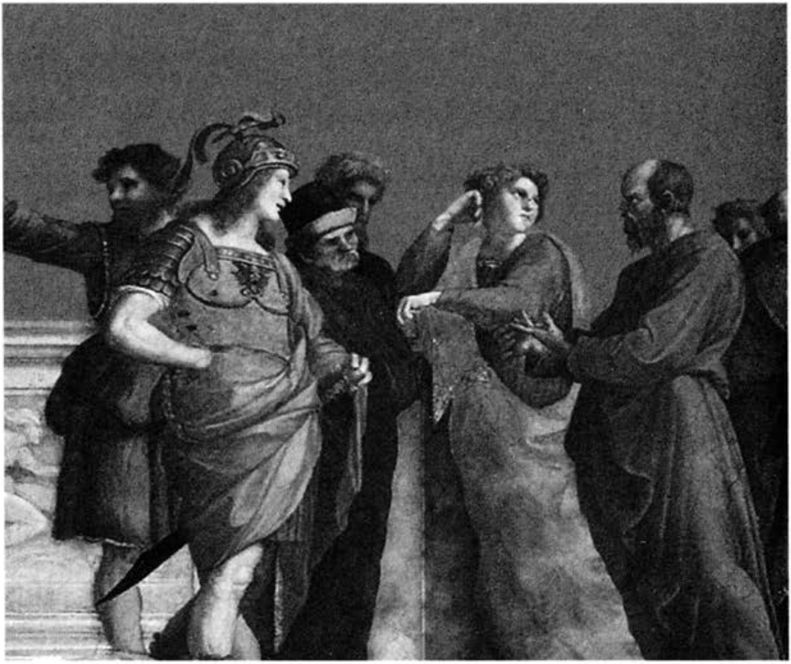
يوافق بعض الفلاسفة على أنه حتى لو كان الإنسان يحيا في كون حتمي، فإنه لا يزال يتصرف على أساس أنه يمتلك حق الإرادة حرة. وفي ذلك قال الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر (انظر ص ٣٥): «حتى وإن كان وضعنا حتميًّا تمامًا بفعل التاريخ والضغوط الاجتماعية، فلا يزال «محكومًا علينا أن نكون أحرارًا».

الجدلية Dialectic

الجدلية هي طريقة للمناقشة المنطقية، تتناظر فيها وجهتا نظر متناقضتان، وفق مبدأ أنه ليس على أيٍّ من وجهتَي النظر أن تعلن صحتها في النهاية، ولكن بهدف حل الاختلافات بينهما، وبالتالي الاقتراب أكثر من الحقيقة. هذه هي أسس طريقة سقراط كما وصفها أفلاطون. (انظر ص ١٨).

في العصر الحديث، أصبح للمصطلح معنى أكثر ميتافيزيقية. وبحسب «المثالية المطلقة» للفيلسوف الألماني هيجل (انظر ص ٥٤)، لا توجد حواجز بين الحقيقة ومعرفتنا بها. تتكشف المفاهيم عبر التاريخ عن طريق سلسلة من التناقضات والحلول: تُولِّد النظرية ما ينفيها وما يقابلها من نظريات، ومن هذه الضغوط على النظرية تنبع الصياغة الجديدة لها. أما كارل ماركس (انظر ص ٢٠٦)، فقد نفى مثالية هيجل، وأرسى بديلًا لها في «الجدلية المادية»، وشدد على أن التاريخ يتطور صراع الطبقات

المختلفة، هذا الصراع نفسه محتوم بفعل قوى اقتصادية عمياء.



سقراط (على اليمين) في مناقشة جدلية في مدرسة أثينا.

علم المعرفة Epistemology

علم المعرفة: هو أحد الفروع الرئيسة للفلسفة الحديثة، وهو عبارة عن دراسة طبيعة المعرفة. تساءل الفلاسفة الإغريق عن طبيعة الاختلافات بين المعرفة والحقيقة والمعتقدات. بحسب أفلاطون، المعرفة مرتبطة بعالم المثل (انظر ص ١٨)، وبأننا نعرف الحقيقة المطلقة الثابتة فقط من خلال التفكير والمنطق. وفي المقابل -بحسب أفلاطون- فالعالم المتغير الذي ندركه بحواسنا خاضع لمعتقداتنا وليس معرفتنا.

في بداية القرن السادس عشر، أدت الثورة العلمية التي فجرها عالم الفلك البولندي نيكولوس كوبرنيكيس Nicolaus Copernicus إلى قطيعة مع تعاليم الإنجيل والكنيسة، والتي اعتبرت -حتى حينه- مستودع الحقيقة. وهذا ما أحدث مقاربات جديدة لإشكالية المعرفة -مثل الشك العقلاني the rational scepticism لدى ديكارت (انظر ص ٦٣) والذي قال: لا يوجد أسس لتقبل برهان الحواس، واستنتج من ذلك أن هذا النفي هو الشيء الوحيد المؤكد؛ لأنه عرف أنه طالما يفكر فهو موجود.

في مقابل ديكارت، وجدت المدرسة التجريبية عند جون لوك John Locke (انظر ص ٦١) أن الأفكار تتولد بشكل تام وفقًا لانطباع حواسنا. وقد ذهب الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم (انظر ص ٦١) أبعد من ذلك، حين نفى أي معرفة لا تصدر عن تجربة. وهنا نلمح شكًّا جذريًّا في أن أغلب ما نعتبره حقيقة هو عادة نفسية، وأن فعليًّا ما من شيء نعلمه عن الوجود يمكننا أن نبرهن عليه منطقيًّا في هذه الحالة.

ويرى الفيلسوف الألماني إيمانول كانط Immanuel Kant أنه على الرغم من أن المعرفة تنبثق جزيئًّا من انطباع حواسنا، إلا أنها معتمدة على بعض «الأشكال» أو «التصنيفات» الأساسية (مثل الزمن والمكان والسببية) الملازمة للفهم الإنساني.

ويرى زميل كانط الفيلسوف الألماني هيجل أنه لا يوجد تمييز بين الحقيقة وبين معرفتنا لها، ونهج هيجل هنا عُرِفَ بـ«المثالية المطلقة» (انظر ص ٥٤). هذه المناهج وعدد من المقاربات الأُخرى سيتم مناقشتها بتفاصيل أكبر في الصفحات التالية.

الحق Truth

لو ارتبط مفهوم الحق بالوقائع، فعبارة «ثوبك مصنوع من حرير» حقيقية. ويمكن أن تكون عبارة «يعجبني ثوبك» أيضًا حقيقية إذا كان المتكلم لا يكذب. تنطوي العبارة الأولى على حقيقة موضوعية؛ لأنها ترتبط بظاهر خارجي (شيء ما)، ويمكن أن نبرهن على أنه حقيقي أو مزيف. أما العبارة الثانية التي تحمل حقيقة ذاتية تصف مشاعر أو رأيًا أو رؤية (موضوع ما)، فلا يمكن أن نبرهن على أنها حقيقية أو مزيفة.

يرى بعض الفلاسفة أن هناك حقيقة مطلقة (انظر مثلًا عالم الـمُثل عند أفلاطون ص ٢٠)، في حين يتمسك آخرون بأن الحقيقة دائمًا ما تكون نسبية (البراجماتية pragmatism والأداتية instrumentalism؛ انظر ص ٧٨). يجادل بعض آخر في أن الحقيقة يمكن الوصول إليها عن طريق المنطق انطلاقًا من المبادئ الأولية (العقلانية؛ انظر ص ٥٩)، في حين يؤكِّدُ آخرون أن الحقيقة الوحيدة تلك المكتسبة من الخبرة (التجريبية empiricism؛ انظر ص ٦٠).

One of Crete's own prophets has said it:

'Cretans are always liars.'

Epistle to Titus, 1: 12–13

الخيال Imagination

الخيال هو القدرة الإنسانية التي تسمح لنا بتصور أشياء ليست أمام أعيننا، بل حتى تخيل أشياء لا وجود لها في العالم الخارجي. في الحالة الأولى يتشابك الخيال مع الذاكرة (انظر ص ٢٨٤)؛ أما في الحالة الثانية فغالبًا يرتبط الخيال بالابتكار.

يمكن أن نتساءل بأي شكلٍ من الأشكال تبدو لنا الأشياء التي نتخيلها واقعية أو حقيقية؟ يمكن أن أتخيل بجعة لونها أحمر، ولكن لم يُرَ طائرٌ كهذا

من قبل. تصدر كل أشكال الفنون (الرسم، الموسيقى، الشِّعر... إلخ) عن الخيال. في الإطار الفني، يمكن أن يوصف الخيال بالقدرة على ابتكار أشياء جديدة من تجاربنا للعالم الخارجي، وسرعان ما ندمجها بمعرفتنا للمواثيق الفنية وتقاليدها. يتشكل الفن من تصورات الفنانين لمواضيع أو عمليات فعلية يتفاعل معها الجمهور بدرجات متفاوتة. غير أن ابتكار الأعمال الخيالية وتلقيها هي أحداث واقعية.

أعلنت المدرسة الرومانسية (انظر ص ٣١١) أن الخيال هو القدرة الإنسانية العليا، وشددت على الدور المتميز والمحوري للفنان في الشؤون الإنسانية. كما أكد الشاعر صامويل تيلور كولريدج Samuel Taylor Coleridge على أن الخيال الأوَّلي هو «تكرار في العقل المحدود للعمل اللانهائي للابتكار في الأنا اللانهائية». فسر صديقه وليام وردزورث Wiliam Wordsworth الخيال ب:

«... القدرة المطلقة

والبصيرة النافذة، ذروة العقل،

والمنطق، في حالته الأكثر جلالًا»

شدد شاعر رومانسي آخر، هو برسي بيشي شللي Percy Bysshe Shelley على أن الخيال هو «أعظم الأدوات أخلاقية جودة»، وإليه ينسب ربما تعريف الخيال بالتعاطف.

على الرغم من أن وردزورث يرى أن المنطق يلعب دورًا في الخيال، فإن ميراث الرومانسيين قد وضع الخيال بشكل كبير ضدًّا للمنطق أو العلم. ولكن عندما نفكر مثلًا في التناظر بين نظر نيوتن إلى التفاحة التي

تسقط على الأرض ودوران الأرض حول الشمس، فإنه من الواضح أن واحدة من أهم الاكتشافات العلمية أتت من خلال التخيل.

الأفكار Ideas

لكلمة الأفكار معانٍ متنوعة، يمكن أن تعود على أي محتوى للعقل أو ما نفكر فيه أو التمثيل العقلي لشيء محدد أو خطة أو رغبة في فعل شيء ما بصفة عامة؛ كما تمثل الأفكار مفهومًا أو تصنيفًا ما.

وبحسب أفلاطون، تتكون الحقيقة من عوالم غير مادية تُسمَّى عالم الـمُثل أو الأفكار (انظر ص ١٩)، وهو عالم موجود خارج العقل. في حين يرى الفلاسفة المثاليون (انظر ص ٥٤) أنه لا توجد حقيقة خارجية منفصلة عن الأفكار الموجودة داخل العقل. أما الفلاسفة العقلانيون (انظر ص ٦٨) فيؤكدون أننا نولد ببعض الأفكار الفطرية التي تُبنى عليها كل معرفتنا، بينما يرفض الفلاسفة التجريبيون (انظر ص ٦٠) مقولة الأفكار الفطرية، مشددين على أن العقل يكتسب الأفكار من خلال تجربة العالم الخارجي فقط. أما الفلاسفة الأداتيون Instrumentalists فيرون أن الأفكار ليست إلا أدوات للتعامل مع مشاكل عملية.

المدرسة الفلسفية المثالية Idealism

في السياق الفلسفي، ينطبق مصطلح المثالية على أي نظرية ترى أن الحقيقة لا توجد بشكلٍ مُنفصل عن العقل، أو بالأحرى تشدد على أن الحقيقة يمكن معرفتها من خلال تصنيفاتنا وأبنيتنا العقلية فحسب. وهذه

رؤية أحادية، ترى أن الحقيقة مُصاغة من مُكوِّن واحد فقط هو العقل، وهي رؤية مُناقضة للموقف الثنائي الذي ينص على أن العقل والمادة مُختلفان ومُتفاعلان (انظر ص ٤٠).

الفلسفة المثالية متناقضة مع الفلسفة المادية. والأخيرة هي أيضًا رؤية أحادية تنص على أن المادة هي الحقيقة الوحيدة وأن العقل والمشاعر ليسا إلا وظيفة للمادة فحسب. كما أن الفلسفة المثالية مناقضة أيضًا للفلسفة الواقعية التي ترى أن الأشياء منفصلة عن العقل.

يُعتبر جورج باركلي George Berkeley (١٦٨٥-١٧٥٣) أول فيلسوف مثالي. وتشدد فلسفته المثالية الذاتية Subjective Idealism على أن الأشياء المادية تُوجد وفق الحد الذي يدركه العقل.

وقد لخص باركلي فلسفته هذه في عبارته الحاسمة «أن توجد هو أن تدرك». وحدها الأشياء التي ندركها هي الحقيقية، وهذه الأشياء الـمُدركة وحدَها التي تشكل الأفكار الموجودة في العقل.

تميز الفلسفة «المثالية المتعالية» Transcendental Idealism للفيلسوف الألماني كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) بين المظهر والحقيقة. يقول كانط إن المظهر هو عبارة عن تمثيلات فقط وليس «الأشياء في ذاتها». وراح يؤكد أن الزمان والمكان هما أبنية العقل الإنساني، و«ليسا حتمية موجودة بذاتها، وليسا شرطًا لأشياء تُرى كأشياء في ذاتها».

وهناك فرع ثالث للفلسفة المثالية هو المثالية المطلقة Absolute Idealism التي طورها الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠- ١٨٣١). تُطيح هذه الفلسفة بالتمييز الفاصل بين الإدراك والأشياء الـمُدركة،

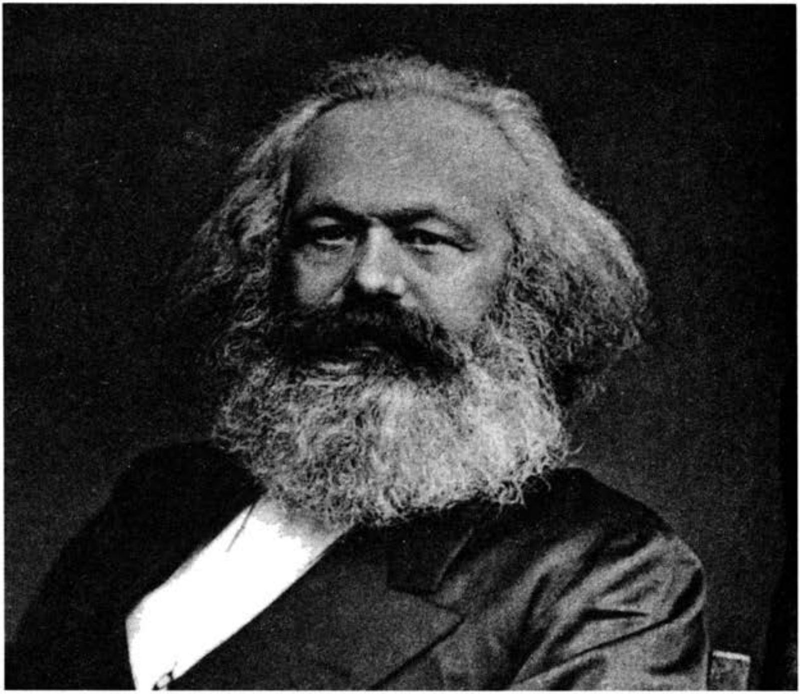
وتُرسخ مفهوم المطلق، بوصفهِ نوعًا من العقل الكوني، الذي تصبح الحقيقة فيه مثالية وكاملة. وهذه فلسفة ميتافيزيقية جريئة أثارت كثيرًا من الشكوك. ومع ذلك، فقد امتدت هذه النظرة المثالية إلى النهج الفلسفي المعروف بـ«علم الظواهر» Phenomenology (انظر ص ٦٩).

الفلسفة المادية Materialism

في الفلسفة المادية ما من شيء يوجد بعيدًا عن المادة؛ إذ يمكن شرح العقل نفسه -ومثله التاريخ- بمصطلحات مادية خالصة، فمثلًا قدَّم كارل ماركس نظرية المادية الجدلية dialectical materialism التي ترى التطورات التاريخية نتاجًا لقوى اقتصادية عمياء (انظر ص ٢٠٦). ومن ثم الفلسفة المادية مُناقضة للفلسفة المثالية (انظر ص ٥٤).

قدم الفيلسوف الإغريقي ديموقريطوس Democritus (٤٦٠-٣٧٠ ق.م.) أول رؤية مادية للحقيقة. فهو يرى أن العالم مصنوع من جزيئات متناهية الصغر غير مرئية سمَّاها ذرات، وهذه إحدى أولى النظريات العلمية. ومع تطور العلم، تم اكتشاف أن العالم الفيزيقي مصنوع من قوى ومجالات أخرى بالإضافة إلى المادة. وهكذا انبغى على الفلاسفة الماديين تعديل تصورهم للحقيقة بما يمكنهم من دراستها وفقًا لهذا المنهج العلمي (انظر ص ١٣٩).والفلسفة المادية قريبة من الفلسفة الوضعية Positivism [٨] (انظر ص ٥٧).

(٨) الفلسفة الوضعية: إحدى فلسفات العلوم. (المترجم).



الفلسفة الوضعية Positivism

حركة بدأها الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت Auguste Comte (١٧٣٨-١٨٥٧) الذي صاغ المصطلح نفسه. يعتقد كونت أن المجتمع الإنساني يتطور من خلال ثلاث مراحل من النمو الفكري: الدين، والميتافيزيقا، والعلم. والأخير يمثل المرحلة «الإيجابية» لهذا التطور. كما وضع كونت تراتبية للعلوم مبنية على أساس الرياضيات التي تُبنَى عليها الفيزياء ثم الكيمياء ثم الأحياء ثم علم الاجتماع، وهو الذى أطلق هذا المصطلح (علم الاجتماع) وكرسه كمجال علمي.

ترفض الفلسفة الوضعية علم اللاهوت والميتافيزيقا على أساس أنهما تتضمنان تصورات خارج إطار التجربة. وبالتالي ترفض الفلسفة الوضعية ما يُطلق عليه الأسباب الأولى (انظر ص ٤٤) أو الغايات (انظر ص ٣١)؛ لأنها أشياء غير مثمرة. تنص الفلسفة الوضعية على أن المعرفة الحقيقية محصورة فيما ينبثق من معلومات الحواس، ولا سيما التجارب العلمية والملاحظة. ومن ثم ترتبط الفلسفة الوضعية بكل من الفلسفة المادية (انظر ص ٥٦) والفلسفة التجريبية (انظر ص ٦٠).

خلال القرن التاسع عشر، عندما بدأ العلم يتخذ دورًا محوريًّا في فكر الغربي، تحولت الفلسفة الوضعية إلى التحليل الجذري للافتراضات والمناهج العلمية؛ إذ ارتاب الفلاسفة الوضعيون في النظريات العلمية ومفاهيمها مقارنةً بالتجارب والملاحظات. كما ارتابوا في ادعاء النظريات العلمية للحقيقة المطلقة، ورأوا أن هذه النظريات مفيدة إلى حدٍّ بعيدٍ عندما تقدم افتراضات فقط (وهو موقف فلسفي مماثل للفلسفة البراجماتية؛ انظر ص ٦٦). واعتبرت الفلسفة الوضعية أن التفسيرات العلمية ذاتها ليست أكثر من طريقة لتنظيم الملاحظات العلمية والمعلومات الناتجة عن التجارب.

ونتيجة لإصرار الفلاسفة الوضعيين على إخضاع النظرية العلمية للملاحظة والاختبار، وقعوا في فخ الرفض لمفهوم الذرة باعتبارها خيالًا رحبًا. وبالمثل شك الفلاسفة الوضعيون في مفهوم السببية (انظر ص ٦٢) مفضلين التفكير في وجود نظام لسلسلة الأحداث الخاضعة للملاحظة.

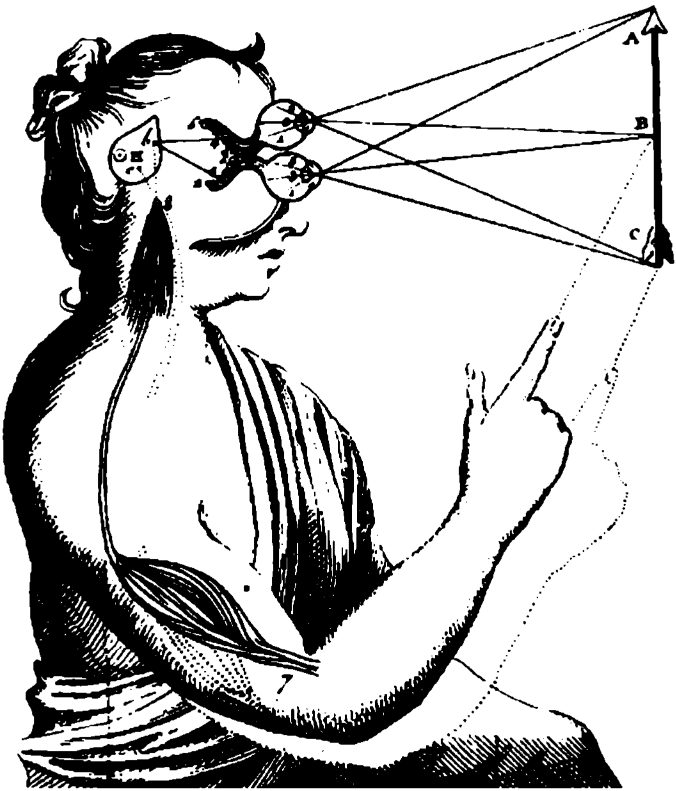
في القرن العشرين، بدأ الفلاسفة الوضعيون في التركيز أكثر فأكثر على المنطق واللغة، فأنشأوا الوضعية المنطقية logical positivism (انظر ص ٦٨) واقتربوا من الفلسفة التحليلية اللغوية.

المدرسة العقلانية Rationalism

في السياق الفلسفي، يشير مصطلح العقلانية Rationalism إلى النهج والطرق التي ابتكرها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠). بدأ ديكارت فلسفته العقلانية بسؤال «ما الذي أعرفه؟ وكيف؟». وكان نهجه هو الشك في كل شيء، بما في ذلك وجود عالم خارجي يستمده عن طريق حواسه. فبحسب ديكارت، لا يوجد شيء لا يقبل الرد أو الشك فيه، وما من سبب عقلاني يجعله يقبل هذا اليقين بوصفه حقيقة. الشيء الوحيد الأكيد الذي تبقى له في فلسفته هو أنه يعرف أنه يفكر: «أنا أفكر، إذنْ أنا موجود».

ومن هذا التأكيد، فقد بيَّن ديكارت -مستدلًّا بالتفكير من المبادئ الأولى- وجود كل شيء، بما فيه وجود الله. وعلى نحو عقلاني، ابتكر ثنائية عالمين مختلفين تمامًا: العقل والمادة، اللذين يتفاعلان بشكل ما (انظر ص ٤١). تحدى التجريبيون (انظر ص ٦٠) طريقة ديكارت الجدلية الصادرة عن مبادئ عامة تستنبط نتائج خاصة بغض النظر عن ملاحظاته للعالم الفيزيقي.

اعتقد ديكارت أن عمل الجسد الإنساني يمكن أن يُفسّر بمبادئ الرياضيات والهندسة.



الفلسفة التجريبية Empiricism

التجريبية empiricism: فلسفة تؤكد أن كل المعارف تنبثق بشكل مطلق عن التجربة (من اللغة اليونانية empeiria)، أو بطريقة أخرى: كل المعارف تأتي من واقع العالم الخارجي الذي يُغذِّي حواسنا. لا يوجد شيء كالأفكار الفطرية أو المفاهيم السابقة priori، وهي مفاهيم مستقلة عن التجربة، ولكنها منبثقة من طبيعة العقل وبنيته. وحدها المفاهيم

اللاحقة postori –هذه التي تنبثق من التجربة– هي التي تتمتع بمصداقية. ومن ثم فإن الفلسفة التجريبية مضادة للفلسفة العقلانية (انظر ص ٥٩).

كان الفيلسوف الإنجليزي ورجل الدولة فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) أول المناصرين للطرق التجريبية في العلم. فقد دافع عن الاستقراء؛ أي انبثاق النظريات العامة من ملاحظتنا لما يحدث في العالم الفيزيائي. وقد دافع السير إسحاق نيوتن عن هذا النهج، واستخدم الرياضيات لاستنباط قوانين الحركة والجاذبية بناءً على ملاحظاته (انظر ص ١٤٢).

ووفقًا لتقاليد بيكون، يعتبر جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) -الإنجليزي الجنسية أيضًا- أول فيلسوف تجريبي. ففي مقالته (مقالة متعلقة بفهم الإنسان- ١٦٩٠) رفض جون لوك عقلانية ديكارت، مُجادلًا إياه بأنه لا يوجد شيءٌ اسمه الأفكار الفطرية. وشدد على أن عند الولادة يكون العقل صفحةً بيضاء، وعلى أن المعرفة الوحيدة التي نتلقاها هي تلك التي تأتينا من الخبرة من خلال حواسنا.

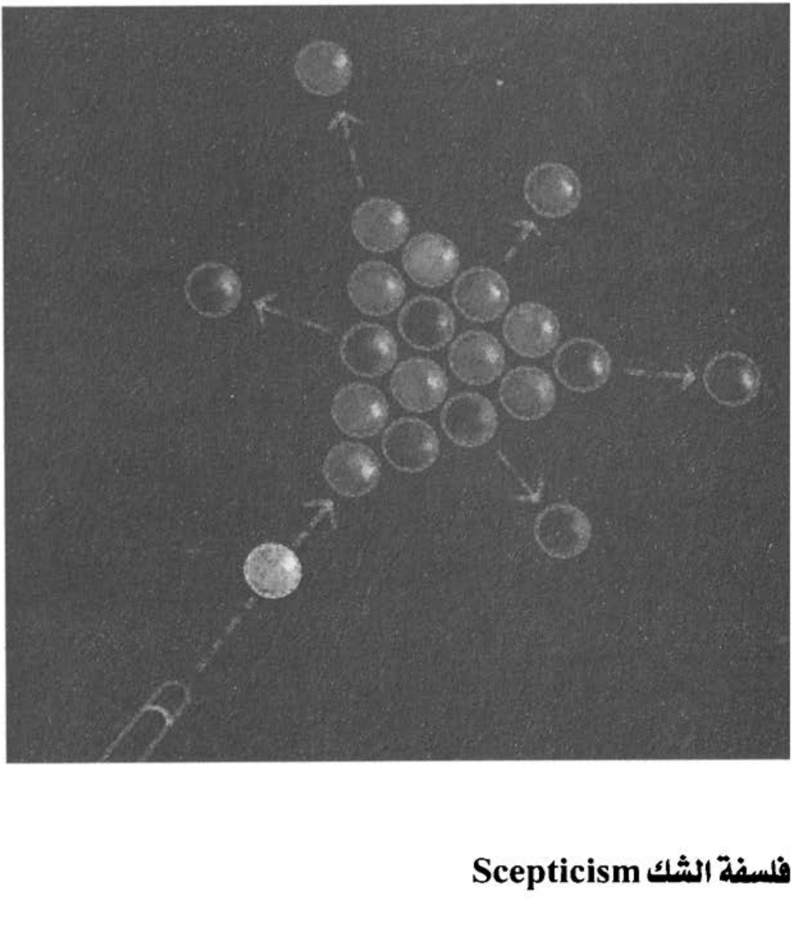
في القرن التالي، أعاد الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦) تحليل الطريقة التي يتصرف بها الناس ويفكرون، رافضًا العقلانية لصالح منهج الشك النفسي sceptical psychology. واستخلص هيوم من تحليله هذا أن الإنسان محكوم بالرغبة أكثر من العقل، وأن الأفكار تأتيه من الانطباعات، عبر عمليات ذهنية مثل الذاكرة والتخيل. وتتحدد الطريقة التي نفكر بها بالعادات: كما تتأسس أحكامنا الأخلاقية على مشاعرنا بدلًا من تأسيسها على مبادئ

أخلاقية مجردة ومفاهيم مثل السببية (انظر ص ٦٢)، وراح هيوم يؤكد أن أحكامنا هي عادات عقلية فحسب.

السببية Causality

تُبنى الكثير من رؤانا للعالم على السببية، بمعنى أن السبب ينتج أثرًا لا محالة في ذلك. كل شيء موجود يكون -أو سيكون- مرتبطًا بهذه الطريقة السببية حتمًا. وهنا يمكن أن نميز بين السبب cause والعلة reason. إذا أعطيت علة للفعل، فأنا أشرح الدافع. إذا أعطيت علة لما أؤمن به، فأنا أقدم تبريرًا.

تُبنى العلوم بشكل كبير على الصلة بين السبب والأثر، على الرغم من تأكيد فيلسوف الشك الإسكتلندي دافيد هيوم، على أنه منطقيًّا لا يوجد يقين تام في مبدأ عام منبثق عن تكرار الملاحظة لشيء واحد (يؤدي إلى شيء آخر، مثل وخز أصابع شخص آخر مما يؤدي إلى شعوره بالألم). كل ما نستطيع التكلم عنه هنا هو وجود «صلة ثابتة». مع تقدم الفيزياء الكمية ومبدأ اللا حتمية (انظر ص ١٣٢)، أصبح على العلم ذاته أن يحيط بحدود السببية.



فلسفة الشك Scepticism

فلسفة الشك Scepticism (من اليونانية skeptikos، «الـمُستعلم عنه») هي نهج فلسفي يثير الشكوك حول الافتراضات والـمُسلمات. يتساءل فلاسفة الشك المعتدلون عن الاستحقاقات المعرفية الخاصة للوصول إلى الحقيقة وتعزيزها. أما فلاسفة الشك المتطرفون فيؤكدون أن المعرفة القصوى لأي شيء لا يمكن الوصول إليها.

فلسفة الشك هي في قلب تقاليد الفلسفة الغربية. في القرن الخامس قبل الميلاد، أثار بارميندس Parmenides وآخرون الشك في حقيقة التغير والحركة (انظر ص ٤٢). بينما تحدى سقراط بصفة مستمرة ادعاءات الآخرين فى المعرفة. لكن بيرو Pyrrho (٣٦٠-٢٧٠ق.م.) ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أنه لا يمكن تحقيق الطمأنينة إلا برفض كل ادعاءات الـمُسلمات. تساءل بعض فلاسفة الشك القدماء عمَّا إذا كان يمكن تطبيق أي معيار للتمييز بين ما هو حقيقي وما ليس كذلك، وهذا على الرغم من أن بعضهم استخلص أن الأحكام يمكن أن تُؤسس على توازن بين الاحتمالات.

لعب الشك دورًا ضئيلًا في الفكر المسيحي في العصور الوسطي، ولكن مع حركة الإصلاح الديني والثورة العلمية، بدأ الشك في المسلمات التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. في القرن السابع عشر، استخدم رينيه ديكارت منهج الشك لإعادة بناء ما هو مؤكد (انظر ص ٦٣)، ولكن شكوكه المتصلة بدقة ما تُزودنا بِهِ حواسنا، تحداها التجريبيون مثل جان لوك ووصفوها بغير المنطقية، بل والمناقضة للمنطق السليم (الحس المشترك) common sense(انظر ص ٦١).

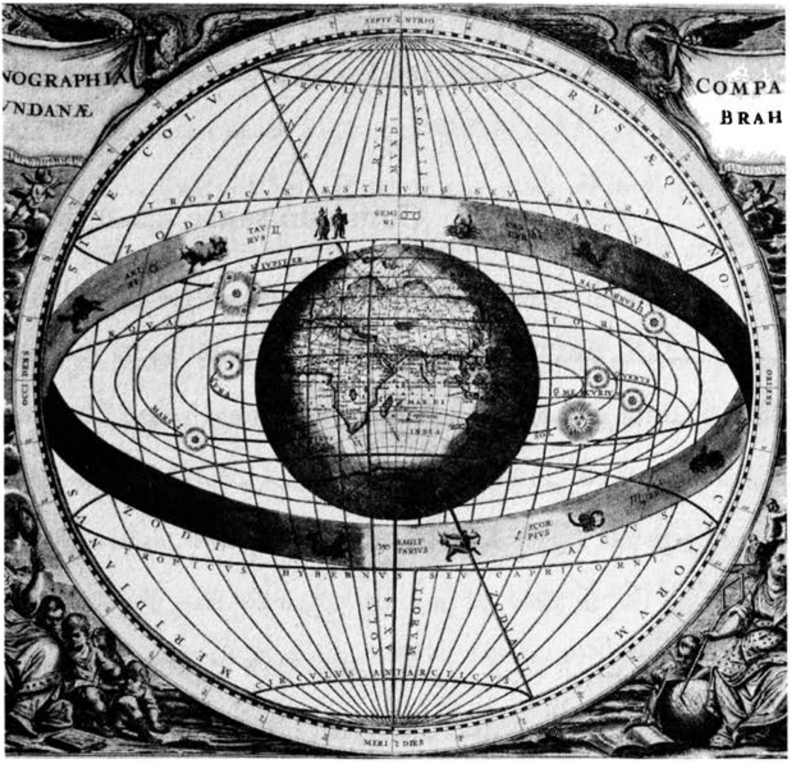
في القرن الثامن عشر، اتخذ دافيد هيوم -وهو فيلسوف تجريبي كما يُظن- منهج الشك المتطرف فيما يتعلق بعددٍ من المفاهيم مثل السببية (انظر ص ٦٥) ومثل مفهوم المنطق الذي لم ينجُ من الشك؛ إذ أكد هيوم أن لا الاستقراء ولا الاستدلال (انظر ص ٧٢) يستطيعان توطيد حقيقة أي شيء. شدد هيوم على أن تصورنا للعالم لا ينبثق من المنطق أو البرهان، ولكنه ناتج عن العُرف والعادات. على الرغم من أنه من الطبيعي أن نؤمن

بالنفس وبالعالم الخارجي وبالله، إلا أن هيوم رفض وجود براهين كافية لتبرير مثل هذه المعتقدات. إن مناشدات «المنطق السليم» تتجاوز ببساطة هذه الفلسفة.

المنطق السليم Common sense

إن كثيرًا من المواقف الفلسفية شديدة التحدي والصعوبة التي تبناها الفلاسفة قد تم نقدها على أساس مخالفتها «للمنطق السليم (الحس المشترك) common sense». يقول لنا المنطق السليم إننا ندرك العالم الخارجي بطريقة مباشرة، وإن ما نراه هو الحالة التي تبدو عليها الأشياء. وبالتالي نستخدم المنطق السليم مثلًا لرفض رؤية أفلاطون للحقيقة المطلقة التي لا يمكن الوصول إليها بالحواس (انظر ص ١٨).

استنكر سكوت Scot -تلميذ هيوم- اتجاه الشك المتطرف لدى أستاذه (انظر ص ٦٤) والذي طال العالم الخارجي والنفس الإنسانية. كما أسس توماس ريد Thomas Reid (١٧١٠-١٧٩٦) مدرسة «المنطق السليم» على أساس أن وجود المنطق السليم بديهي، وهذا ما «تبرهن عليه العصور والدول سواء كانت متعلمة أو غير متعلمة». ولكن هذا لا يشكل دليلًا، وإنما يمنح سلطة للتقاليد وللأحكام المسبقة العفوية فحسب. يمكن للظواهر أن تكون خادعة. ولكن في النهاية، سيقول لنا المنطق السليم إن العالم مسطح وإن الشمس تدور حول الأرض وليس العكس.



البراجماتية والأداتية Pragmatism and instrumentalism

البراجماتية هي حركة فلسفية نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر. وبحسب عبارة عالم النفس والفيلسوف الأمريكي وليام جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠)، البراجماتية هي «الابتعاد عن التجريد والقصور والحلول الشفوية والأحكام المسبقة priori السيئة والمبادئ الثابتة والنظم المغلقة والأفكار المطلقة. فالأجدى هو الاتجاه إلى الملموس والملائم وإلى الوقائع والفعل».

أسس الفلسفة البراجماتية صديق وليام جيمس، الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرز بيرس Charles Sanders Pierce (١٨٣٩-١٩١٤)، الذي كان أول مَن نصَّ في عام ١٨٧٨ على ما عُرِفَ بـ«البراجماتية القصوى Pragmatism maxim» التي «علينا أن نأخذ في الاعتبار البعد العملي للنتائج، وأن ندرك الأشياء بما لها من آثار عملية. بعبارة أخرى، يُحكم على حقيقة فرضية ما بنتائجها العملية فقط. وبالتالي علينا رفض وإهمال الادعاءات الميتافيزيقية المتأصلة في التقاليد الفكرية للقارة الأوربية، وهذا لأن صحة هذه الفرضيات أو خَطَأَها، ليس له أي تأثير عملي على شؤون الإنسان.

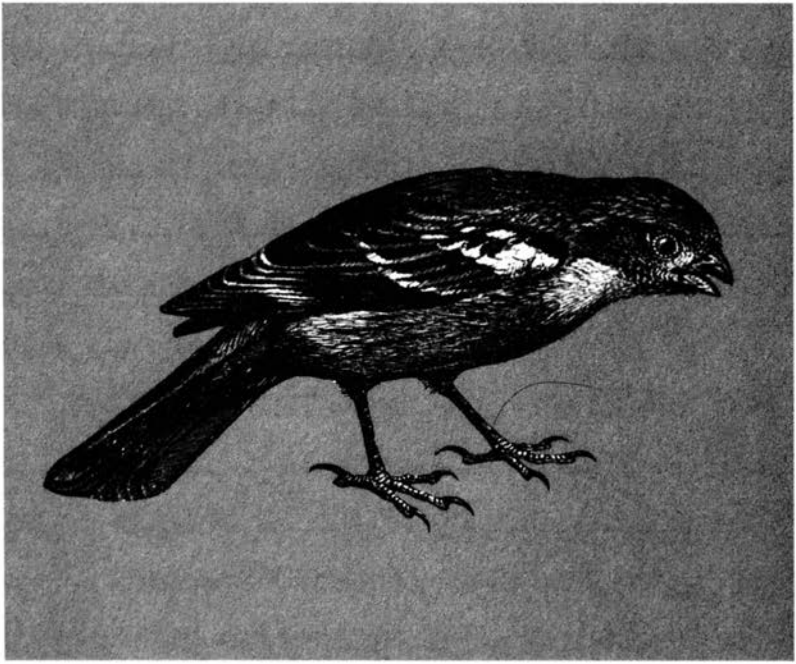
طَوَّرَ الفيلسوف والـمُعلم جون ديوي John Dewey (١٨٥٩-١٩٥٢) شكلًا من البراجماتية معروفًا باسم الأداتية instrumentalism. تشدد الأداتية على أن قيمة أي نظرية علمية لا تقبع في صدقها بل في نفعها، مثل اقتراحها لما يُتَوَقَّع منها. وأكد ديوي أنه لا توجد حقيقة غير ما نتعرض له كل يوم من خبرة واحتياج للعلم. أيَّد ديوي التعليم في إطار توجهه لحل المشاكل.

وَسَّعَ وليام جيمس النهجَ البراجماتيَّ ليشمل مبادئ الأخلاق والمعتقدات الدينية، مشددًا على أن مبادئ أو معتقدات كهذه «حقيقية» طالما ثُبُتَ أنها نافعة، مثل نفعها في تعزيز سعادة الفرد. وعلى الرغم من ذلك، انتقد العديدُ من الفلاسفة تعريف جيمس الذي يصل بين الاعتقاد الحقيقي والنفعي، مؤكدين أن بعض المعتقدات يمكنها أن تكون نافعة وخاطئة معًا. ورفض فلاسفة آخرون البراجماتيةَ في إطار أنها نهج أمريكي أصيل للنجاح يتجاهل الكثير من الأسئلة الفلسفية المعقدة.

الوضعية المنطقية Logical positivism

ظهرت الوضعية المنطقية Logical Positivism كحركة فلسفية في فيينا Vienn عام ١٩٢٠. وتؤكد هذه الفلسفة على أن المعرفة العلمية وحدها هي الواقعية، وأن دور الفلسفة هو توضيح هذه المبادئ الأساسية وتأكيدها. وبالتالي كل الأسئلة الميتافيزيقية والأخلاقية والجمالية -مثل «ما الوجود؟» أو «ما الخير؟»- هي أسئلة مرفوضة وغير ذات معنى. وكل إجابة لهذه الأسئلة لا يمكن البرهنة على صحتها أو خطئها.

توضح الوضعية المنطقية أنه ينبغي لافتراضٍ ما أن يكون قابلًا للبرهان عليه، وأن يكون ذا دلالة ومعنى. وهناك طريقتان يمكن أن نتأكد بهما من صحة الافتراض. أولًا- يجب أن نستطيع اختباره معرفيًّا؛ فعبارة «وزن الحجر ١٠ كيلو غرامات» يمكن اختبار صحتها عن طريق وزن الحجر. ثانيًا- افتراض مثل «العصفور هو نوع من الطيور» يمكن اختباره بتفسير الكلمات المستخدمة وبنيتها النحوية. وقد وجد الفلاسفة اللاحقون أن الوضعية المنطقية مُفِيدة للغاية، ومن ثم طوروا نظريات للغة والمعنى أكثر إتقانًا.



تختبر الوضعية المنطقية عبارة مثل «العصفور هو نوع من الطيور» عن طريق تحليل النحو والدلالة، مثل «ما العصفور؟»، «ما الطيور؟» و«ما النوع؟».

علم الظواهر Phenomenology

علم الظواهر هو نهج فلسفي يُحلل ظاهرة الشيء بحسب إدراك المرء لها، لا بحسب وجودها المستقل للوقائع أو الأحداث. يتجنب هذا النهج الفلسفي نظريات الوجود والسببية لصالح تحليل الطريقة التي يفكر بها الإنسان ويحلل العالم.

أُسِّسَت فلسفة علم الظواهر في بداية القرن العشرين على يد الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩-

١٩٣٩). فكر هوسرل في تحليل بنيات الوعي، والظواهر التي تحدث في الوعي، وهو يعتقد أن نهجه الفلسفي يمكن أن يكون أساسًا راسخًا لكل المعرفة الإنسانية، بما فيها المعرفة العلمية.

وقد أصبحت فلسفة علم الظواهر ضلعًا مهمًّا في فلسفة القرن العشرين، لا سيما في ألمانيا وفرنسا. وقد تطورت أفكار هوسرل وانتُقِدَت من قِبل العديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع منهم الوجوديون أمثال هايدجر وسارتر (انظر ص ٣٥).

يمكن النظر إلى فلسفة علم الظواهر بوصفها شكلًا من أشكال الفلسفة المثالية (انظر ص ٥٤)؛ إذ تشدد فلسفة علم الظواهر على أن هناك نوعين من المعرفة؛ معرفة مباشرة وأخرى غير مباشرة. فنحن نستطيع أن نعرف جوهر essences [٩] الأشياء، مثل معرفتنا لخواص الكون: «اللون الأزرق» أو «الشكل الكروي» بشكلٍ مباشر. جوهرٌ كهذا يمكن أن ندركه في كُليته من خلال عملية عقلية مُفرَدَة. ولكننا نعرف الأشياء التي ندركها بشكل غير مباشر من خلال«مظاهرها aspects» (مثلًا كرة زرقاء). يمكننا هنا أن نرى فقط نصف الكرة، وإذا ما سُلِّطَ عليها ضوء جانبي يمكن أن نرى ظلالًا مختلفة من اللون الأزرق. هذا النوع من الفهم هو فهم غير مباشر[١٠].

---

(٩) الجوهر essences: في الفلسفة الجوهر هو الأساس الذي يشكل ما عليه الجسم أو المادة فعلًا، وبهذا يملك الجوهر **ضرورة وجود** حتمية، وذلك بخلاف **الأعراض** أو الخواص التي تطرأ على الجسم أو المادة. (المترجم).

(١٠) إذا رأينا فقط نصف الكرة يمكننا أن ندرك نصفها الثاني، وأنها شكل كروي كامل بطريقة غير مباشرة، وبسبب معرفتنا بالشكل الكروي مسبقًا، وبالتالي يمكننا استنتاج الشكل الكامل من نصف الشكل. (المترجم).

في المقابل، العمليات العقلية، مثل رؤية الكرة الزرقاء أو تذكر وجبة شهية هي عمليات معروفة لنا في كُليتها، من دون مظاهرها aspects. ومن ثم فالوعي وأشياء العالم الـمُدركة هي -الجوهر بعيدًا عن الأشياء الإدراك- تُعرف بطريقة مباشرة. فعلم الظواهر بالتالي يشدد على أهمية دراسة جوهر عمليتنا العقلية، متجنبًا معرفية العلوم(١١).

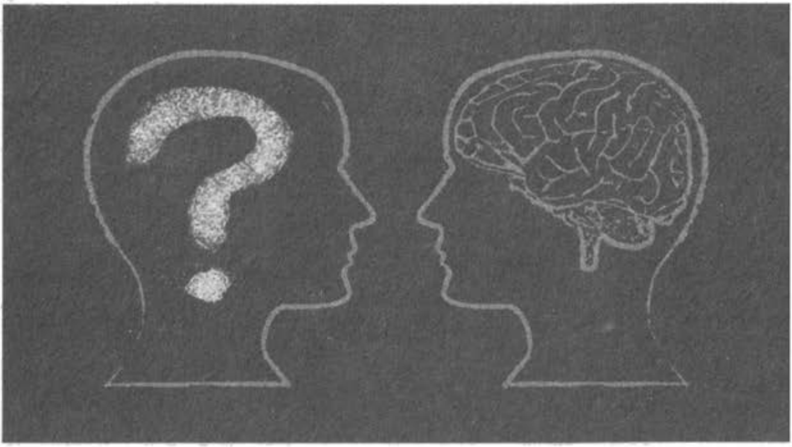
إشكالية العقول الأخرى The other minds problem

إحدى الأسئلة التي لا تزال تشغل بال الفلاسفة (كما تشغل الأطفال في سن معين بسبب الفضول) هي: كيف أعرف أن شخصًا آخر لديه عقل؟ إنني أعرف أنني واعٍ، لديَّ أفكار ومشاعر، أدرك أن اللون الأحمر هو أحمر، أشعر بألم الحرق... إلخ. ولكن كيف أستطيع أن أعرف أن الآخر يدرك ويشعر بكل هذا؟ كل ما أستطيع أن أعرفه هو السلوك الخارجي للآخرين. فكيف أعرف أنهم مثلًا ليسوا أموات-أحياء Zombies؟

بالطبع، المنطق السليم يقول لنا إن هذا السؤال هراء ولا يدل على شيء، ولكنه رغم ذلك سؤال حقيقي، ولا توجد طريقة مؤكدة للدلالة على وجود العقول الأخرى. أفضل شيء نستطيع فعله هو الاستدلال عن طريق التناظر الوظيفي. إذ نُلاحظ في العديد من الحالات أن أُناسًا آخرين يستجيبون مثلنا للمحفزات Stimuli. وهذا يبدو كافيًا للإيمان بأنهم مثلنا،

(١١) الإنسان في علم الظواهر ليس معنيًا بالأحداث الطبيعية، وإنما يقتصر الاهتمام على التحليل الوصفي للتركيبات والعلاقات الجوهرية، وهو ما يحدث في كل نماذج الخبرة مثل الإدراك الحسي والتذكر.. إلخ (زكي نجيب محمود، الموسوعة الفلسفية، ص ٢٠٤). (المترجم).

حيث بنيتهم الفسيولوجية والسلوكية تماثلنا، وبالتالي يجب أن تكون لديهم عقول مماثلة لنا.



المنطق والحُجَّة Logic and argument

المنطق هو فرع من الفلسفة يُركز على ما إذا كانت الحجج صحيحة أم خاطئة منطقيًا. لا يهتم بمحتوى الحُجَّة بقدر اهتمامه بخواصها الصورية وبنيتها.

وحتى تكون حُجَّةٌ ما صحيحةً يجب أن تبين أو تدلل على فكرة (نتيجة) قائمة على أسس مقبولة (مقدمات منطقية)، فقبول المقدمات المنطقية ونفي النتيجة المترتبة عليها سيكون خطأ وغير منطقي. يمكن للمقدمات المنطقية نفسها أن تُبنى على ملاحظات معرفية هي نتائج لحجج سابقة أو لتعريف ما. ولكن لا يجب أن تكون المقدمات المنطقية

مبنية على نتيجة، ففي هذه الحالة ستصبح الحُجَّة دائرية.

وعندما نقرأ هذه الحُجَّة «بما أن كل الحيوانات ذوات الأجنحة تستطيع أن تطير، والخنازير لها أجنحة، بالتالي الخنازير تستطيع أن تطير»، فسنرى أنها حُجَّة بعيدة عن المنطق. ولكنها شكليًّا حُجَّة صحيحة، رغم أننا نعرف أن المقدمتين ليستا منطقيتين والنتيجة ليست صحيحة. النقطة هنا أنه إذا اتفقنا على المقدمتين المنطقيتين، فسوف نناقض أنفسنا إذا نفينا صحة النتيجة. نوع المنطق المستخدم في هذه الحُجَّة يُسمى الاستنتاج أو «الاستدلال الاستنباطي»، الذي تُبنى صحته على المبادئ العامة.

ثمة نوع آخر من منطق الحُجَّة ألا وهو الاستقراء أو «الاستدلال الاستقرائي»، وهو الذي يستخلص مبادئ عامة من ملاحظة وقائع خاصة. ولدينا هنا مثل على هذا النوع من الحجج: «لم يرَ أحدٌ أبدًا بجعة غير بيضاء اللون، وبالتالي كل البجع أبيض اللون». قبل عقود يمكن أن تُعتبر هذه الحُجَّة منطقية، ولكن بالطبع عندما اكتشف المستعمرون الأوربيون أستراليا، رأوا في الحقيقة بجعة سوداء اللون.

لا يمكن البرهنة على صحة الحجة الاستقرائية أبدًا مثلما نبرهن على صحة الحُجَّة الاستدلالية. فالنتيجة لا تكون أبدًا مُتضمنة في المقدمات المنطقية؛ إذ لا يمكن للمقدمات المنطقية في هذه الحالة إلا أن تضيف براهين تدعم احتمالية أن تكون النتيجة صحيحة. ورغم ذلك -وحتى الآن- معظم القرارات والمبادرات التي تُتخذ في العالم الحقيقي مبنية على الاستقراء، مثلما هو الحال في معظم العلوم (انظر ص ١٣١).

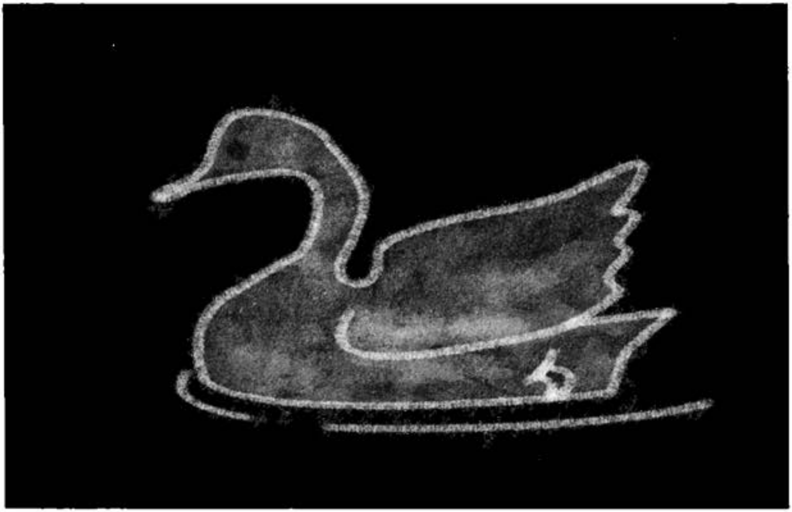
يُعرف المنطق التقليدي الذي ذكرناه أعلى بالمنطق الصوري formal logic. ومنذ بداية القرن العشرين، معظم التطوير الذي تم في علم المنطق انصب على المنطق الرمزي Symbolic Logic، الذي هو أقرب لعلم الرياضيات.

البرهان والقياس المنطقي Syllogisms

إن المنطق التقليدي -المعروف بالمنطق الصوري- مبنيٌّ على ثلاثة أجزاء من الحُجة المعروفة بالقياس المنطقي Syllogism، والتي تشمل ثلاث قضايا propositions: مقدمتان منطقيتان، والنتيجة المؤسسة على هاتين المقدمتين المنطقيتين. مثال على ذلك: «كل اليونانيين بشر، كل البشر فانون، وبالتالي اليونانيون فانون».

يمكن أن تتخذ الافتراضات الأشكال التالية: «كل X هو X»، «Y ليس Y»، «بعض X هو Y» و«بعض X ليسوا Y». لدى القياس المنطقي ثلاثة حدود terms: «الحد الأوسط» (البجعة) الذي يظهر في المقدمتين المنطقيتين؛ الحد الثاني هو (أبيض) الذي يظهر في النتيجة وإحدى المقدمتين المنطقيتين؛ والحد الثالث (طير) يظهر في النتيجة والمقدمة المنطقية الأخرى.

الحد الأول هو (موضوع the Subject) الاستنتاج وهو معروف بـ«الحد الأصغر Minor Term»، والمقدمة المنطقية التي يظهر فيها «الموضوع» هي «المقدمة المنطقية الأصغر Minor Premise». أما الحد الثاني (الحد المحمول the Predicate) فيظهر في النتيجة وهو «الحد الأكبر Major Term»، والمقدمة المنطقية» التي يظهر فيها الحد الثاني هي «المقدمة المنطقية الأكبر Major Premise».



بعض البجع لونه أبيض. بعض الطيور بجع. وبالتالي بعض الطيور بيضاء اللون.

فئات الخطأ (المقولات الخاطئة) Category errors

حاول عددٌ من الفلاسفة كتابة قوائم للفئات الأساسية التي يمكن للأشياء أو المفاهيم أن تنتمي إليها. يريد الفلاسفة أن تكون هذه القوائم غير قابلة للاختزال لأي شيء أبسط منها.

فمثلًا قدَّم أرسطو قائمة من عشرة مُكوِّنات تتضمن المادة والكمية والكيفية والصلة. كما قدم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (انظر ص٥٥) قائمة بها اثنا عشر مُكوِّنًا تتضمن الزمان والمكان والأشياء والخواص، الواحد والمتعدد one and many، وهذه القائمة تشبه البنية الأساسية التي يفهم بها العقلُ الواقعَ.

وعلى الرغم من أنه لا توجد فئات أساسية مُتفق عليها بين جميع الفلاسفة، إلا أنهم اتفقوا بشكلٍ عام على أنه من الخطأ نقل شيءٍ ما موجود في فئة معينة إلى فئةٍ أخرى، أو إضفاء صفة على شيءٍ ما في قائمة معينة من قائمة أخرى. فمثلًا لا يعقل أن نَشُم الموسيقى، أو أن تكون للأحجار مشاعر.. إلا إذا كنا نتكلم عنها بشكل مجازي بالطبع. بعد كل شيء، الشِّعر مليء بالصور الخيالية التي لا معنى حرفي لها، ولكن على الرغم من ذلك لها معنى. نحن نعلم جميعًا معنى ما يقوله ويليام وردزورث William Wordsworth: «يقفز قلبي فرحًا عندما أمسك بقوس قزح سماوي» «My heart leaps up when i behold a rainbow in the sky»، حتى لو كنا نعلم أن القلب لا يبرح موقعه في القفص الصدري.

بجانب الشِّعر، يمكن أن نعزو إلى العديد من المشاكل والصعاب في النقاش الفكري إلى الخطأ في تقسيم الفئات (المقولات الخاطئة) Category errors (Category mistake). تم طرح مصطلح فئات الخطأ في كتابه مفهوم العقل Concept of mind (١٩٤٩) للفيلسوف الإنجليزي جيلبرت رايل Gilbert Ryle. يضرب رايل هنا مثلًا لأحد زوار جامعة أوكسفورد Oxford، الذي قدَّم الزملاء له عرض المكتبات... إلخ عليه، ثم سأل: «ولكن أين الجامعة؟»(١٢).

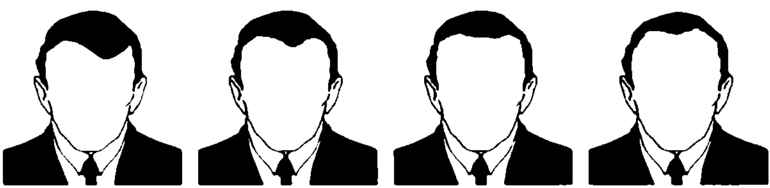
(١٢) يعتقد رايل أن المشاكل في الفلسفة ليست مشاكل بقدر ما هي إشكاليات، سببها هذا الخلط في التصورات، وأن النهج السليم لرفع هذا الخلط لا يكون إلا بتحليل العبارات اللغوية لتوضيح التصورات المستخدمة في النقاش، وللتخلص من أخطاء التصور وبيان الصواب من الخطأ. ويُسمى الخطأ في التصور «خطأ المقولة» category mistake (موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبد المنعم الحنفي، الجزء الأول ص١٤٦). (المترجم).

ينتقد رايل ثنائية ديكارت (انظر ص ٤١) التي يرى فيها أن الجسد والعقل شيئان مختلفان، الأولى مادة والثاني لا مادة؛ لأنها مقولة خاطئة أو أن بها خطأ في فئة التقسيم. ويستطرد رايل فيقول إنه من الخطأ وضع علامة «الجوهر» على العقل الذي يرى رايل أنه ليس إلا ذكاء سلوك الجسد.

التناقضات Paradoxes

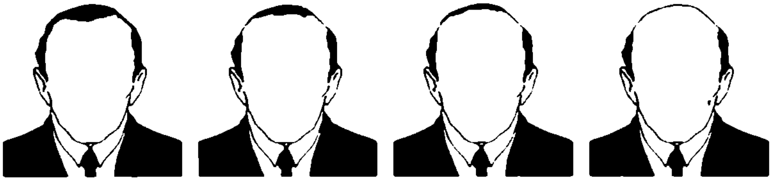
التناقضات التي يقدمها الفلاسفة هي بجلاء عبارات مناقضة لذاتها تُظهِر القصور في استخدمنا للغة أو في طريقة تفكيرنا. من الأمثلة على ذلك ما تم مناقشته في هذا الكتاب الذى بين أيدينا فيما يتعلق بـ«مفارقة آخيل Achilles Paradox» و«مفارقة الكذاب Liar Paradox».

إحدى أكثر المفارقات تحديًا هي مفارقة «كوم الرمل The heap paradox» التي تعود إلى العصر اليوناني القديم (مثل تلك المفارقات المنصوصة أعلى). فهي تنص على أن حبة رمل لا تقيم كومًا من الرمل، وبالتالي إذا كانت حبة رمل غير كافية، فمن ثم حبتان أو ثلاث أو أربع أيضًا غير كافية. ومن هنا، كم حبة رمل يجب إضافتها لصنع كوم من الرمل؟



لمفارقة كوم الرمل عددٌ من التطبيقات، فمثلًا في الجدل الدائر حول الإجهاض، في أي مرحلة يصبح الجنين -الذي هو عبارة عن بضع خلايا-

كائنًا حيًّا؟ هذا النوع من التناقض يُعلمنا أن الطبيعة مستمرة، ولا يوجد نقطة يمكن الفصل فيها بين تحول شيءٍ ما لآخر.



الصورة: صورة متغيرة لمفارقة كوم الرمل: إلى أي درجة يجعلك فقدان القليل من الشَّعر أصلعَ؟

اللغة والمعنى Language and meaning

فلسفة اللغة هي من أهم فروع الفلسفة الحديثة. بُذل جهد عظيم لمعرفة طبيعة اللغة وتوضيح كيفية استخدامها. ومن ثم، تم الكشف عن أن عددًا من النظريات المبتكرة في الماضي تنبع من سوء فهم لطبيعة عمل اللغة.

بشكلٍ تقليدي، افترض الفلاسفة أن معنى الكلمة هو ببساطة «ما تُحيل إليه»، أي الشيء الذي تمثله. يعمل هذا المفهوم بشكل جيد في الكثير من الحالات، ولكنه يصبح إشكالية عندما نتعامل مع أشياء غير موجودة. فمثلًا لدينا كلمة (شبح)، وهي لا تمثل بشكل ضروري كيانًا واقعيًّا. وهذا هو الفخ الذي جعل أفلاطون يؤمن بأن المصطلحات العامة مثل (حصان) و(دائرة) و(الخير) توجد في الحقيقة بشكل مجرد، أي أنها أشكال غير مادية (انظر ص ٢٠).

في نهاية القرن التاسع عشر، اقترح الفيلسوف الألماني جوتلوب فريج Gottlob Frege (١٨٤٨-١٩٢٥) أن الكلمة لها معنى بالإضافة إلى ما تحيل إليه. إذ يمكن لكلمات مختلفة أن تشير إلى نفس الشيء، ولكن لها معانٍ مختلفة: فمثلًا الأسماء التالية: إلتون جون Elton John وريجنلد دوايت Reginald Dwight تحيل إلى الشخص نفسه، بينما الاسم الأول هو اسم الشهرة، أما الأخير فهو الاسم الشخصي.

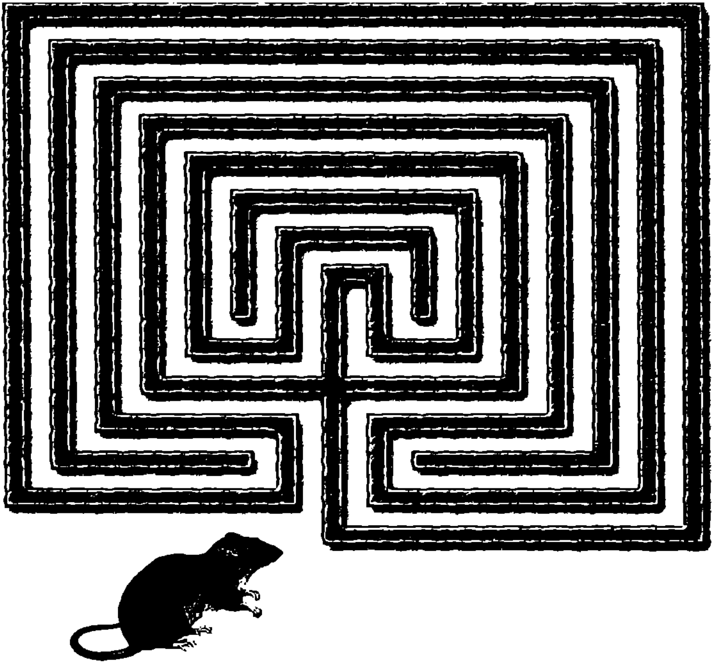
ومن ثم شدد أصحاب الفلسفة الوضعية المنطقية على أن وحدها العبارات التي يمكن التأكد من أنها -عن طريق الاختبار المعرفي أو تفسير الكلمات المستخدمة أو تحليل بنيتها النحوية- تنطوي على معنى (انظر ص ٥٧).

طَوَّر الفيلسوف النمساوي -ذو الأثر الكبير في الفلسفة المعاصرة- لودفيج فتجنشتين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) نهجًا مختلفًا تمامًا، فهو يرى أن معنى الكلمة أو الجملة يعتمد على السياق الذي ترد فيه، أي تعتمد في فهمها على التقاليد الاجتماعية. يلعب البشر «لعبة لغة» بطرق مختلفة، وفي سياقات متعددة: فمثلًا العبارة التي لها معنى في الشِّعر يمكن ألا يكون لها معنى في سياق ورقة علمية. وقد ترك نهج فتجنشتين في فهمه للغة والمعنى والسياق تأثيرًا عظيمًا في المجال الفلسفي.

اللغة والفكر Language and thought

إلى أي مدى يعتمد الفكر على اللغة؟ هل من الممكن أن نفكر من دون لغة؟ تعتمد هذه الأسئلة على ما نعني بكلٍّ من «التفكير» و«اللغة». يمكن أن نصف «التفكير» بأنه التخطيط للمستقبل، فمثلًا عندما أخطط لما سوف أطبخه للعشاء الليلة، فأنا أفكر في ذلك من خلال مجموعة من الصور المرئية بشكلٍ كامل -خصوصًا أنني لم أستطع تذكر أسماء بعض العناصر الغريبة المكونة لهذه الوجبة، كما أنني ليس لديَّ وصف واضح لها.

يبدو أن المنطق الاستنباطي يحتاج إلى لغة، وذلك على افتراض أن الرياضيات والرموز المنطقية تعتبر «لغة». وإذا كان ذلك كذلك، فهل الموسيقى لغة؟ يضيف المؤلفون الموسيقيون إلى «لغة» اللحن تناغمًا وإيقاعًا لابتكار قطع موسيقية. وإذا ما تذكر عقلُنا لحنًا موسيقيًّا ما، فإننا نستخدم هذه اللغة. في المقابل، التعلم هو نوع من الفكر القائم على استخلاص مبادئ عامة من تجارب خاصة (الاستدلال الاستقرائي)، ويبدو أن الأطفال الرُّضَّع وفئران التجارب قادرون على أن يتعلموا هذا النوع من المنطق دون استخدام اللغة.



علم الأخلاق Ethics

يسعى علم الأخلاق -أو فلسفة الأخلاق- إلى تحليل معنى المصطلحات الأخلاقية والمعايير التي نحكم بها حكمًا أخلاقيًّا. لا يجب الخلط بين ذلك وبين تعليم الأخلاق- بيان الصواب والخطأ (انظر ص٨٣). في الواقع -وعلى الرغم من ذلك- لم يستطع الفلاسفة أن يميزوا بشكل حاسم بين الأمرين، وفي العديد من المجالات -مثل حقوق الإنسان والعقاب والطب... إلخ- يستخدم الجدل حول الأخلاق كهادٍ لضرورة اتخاذ قرارات أخلاقية عملية.

من بين الفلاسفة اليونانيين القدماء، أراد كل من أفلاطون وسقراط تفسير مكونات «الحياة الخَيِّرة». ربط كلٌّ منهما هذه الحياة الخيرة بالسعادة، التي بدورها تنبع من الحياة في توفيقها بين عدة فضائل مثل الزهد والشجاعة والعطف والعدالة. وبحسبهما يبدو المنطق أفضلَ مُرشد للسلوك. يعتقد أفلاطون بأن «الخير» هو شكل مجرد (انظر ص ٢٠) للعالم اليومي، بينما يرى أرسطو أن الفضيلة شيء طبيعي يتعلق بالبشر.

في العصور الوسطى الأوربية، حاول القديس توما الأكويني دمج فكرة الأخلاق الأفلاطونية باللاهوت المسيحي (انظر ص ١١٠). إذ يرى أن الله خلق البشر ليتبعوا «القانون الطبيعي» لطبيعتهم، وهذا القانون الطبيعي يتطابق مع القانون الإلهي.

هذا يُثير سؤالًا قد تطرق إليه أفلاطون: هل الخير هو خير لأن الله يأمر بذلك فحسب؟ أم أن الله يأمر بالخير لأنه خير في حد ذاته؟[١٣] إذا كان الخير خيرًا لأن الله يأمر به، فما مدى أخلاقية اتباع ذلك؟ وإن كان الله يأمر به لأنه خير في ذاته، وأن الله يأمر به لأنه خير في حد ذاته، فما دور الله في اتباعنا للخير؟

في العصر الحديث، أصبحت قضية نهاية الإنسان ومعناه من أكثر الموضوعات إثارة للجدل وأكثرها دلالة. يشدد علم الأخلاق على أن الحكم على صواب الفعل ينبغي له أن يرتبط إلى حدٍّ بعيد بشعور الفرد بالمسؤولية بغض النظر عن توابعها. وفي القرن الثامن عشر، وصف كانط الأمر الاحترازي مثل «لا تكذب» أو «لا تقتل» بوصفه «ضرورة حتمية»؛

---

(١٣) هل نحن نؤثر الخير لمجرد أن الله أمر به، أم أننا نؤثر الخير لأننا ندرك أنه خير في حد ذاته؟ (المترجم).

أي مبادئ يجب طاعتها بشكل كامل وغير مشروط في كل الحالات (انظر ص٩٥). في المقابل، النظريات العواقبية Consequentialist theories، مثل النظرية النفعية Utilitarianism (انظر ص ٩٣)، تحكم على الأفعال كلًّا على حدة أو بشكلٍ كبير على آثارها.

الأخلاق القويمة Morality

يشير مصطلح «الأخلاق القويمة» «morality» إلى مجموع معتقداتنا فيما هو خير وفيما هو شر. كما يُشير أيضًا بشكل مماثل إلى الأسس التقليدية للسلوك الأخلاقي. أما الاستهزاء المتعمد بهذه الأسس فهو ما يُعرف بالسلوك «اللا أخلاقي» «immorality»، أما الذين لا يتبعون هذه الأسس بسبب الجهل بها أو بسبب عدم افتقداهم لحس الصواب والخطأ فهم «فاقدو الحس الأخلاقي» «amoral».

تفترض الأخلاق القويمة وجود مجموعة من البشر يشعرون بالمسؤولية تجاه أفعالهم ويشتركون معًا في مجموعة من القيم. في العديد من الثقافات، تعتبر المبادئ الأخلاقية أمرًا إلهيًّا، وبالتالي فهي تنطوي على شكل من الامتثال للسلطة. كما يعتبر القانون بشكل عام تحقيقًا للأخلاق القويمة في المجتمع، وهذا على الرغم من أنه لا يوجد إجماع على صحة القوانين. منظور ما هو الأخلاقي أو غير أخلاقي يختلف بشكل كبير بين المجتمعات (انظر النسبية ص٢٦٦)، وذلك على الرغم من أن بعضهم يؤكد أن هناك -مثلًا- حقوقًا إنسانية عالمية عابرة لمختلف الثقافات (انظر ص٢٢٩).

الخير Good

أحيانًا تقودنا الطريقة التي نستخدم بها اللغة إلى سوء الفهم. ونجد مثالًا دقيقًا على هذا في كلمة «الخير»، التي نستخدمها بطرقٍ مختلفة. وغالبًا ما نستخدمها كنعت[١٤]. فنقول «شخصٌ خَيّر» «good person» أو «عملٌ جيّد» «good deed» أو «فيلمٌ جميل» «good film» أو «سيارة جيدة» «good car»... إلخ. ظاهريًا، يبدو أن كل الأشياء الموصوفة بنعت «الخير» تمتلك صفة «خيرة».

ولكن من الواضح أن هذه الأشياء ليس لديها أي صفة جوهرية intrinsic مشتركة. ففي قولنا إنسان خيّر أو فعل جيد، نصدر حكمًا أخلاقيًا؛ وفي قولنا فيلم جيد، يكون الحكم جماليًا؛ وعندما نقول سيارة جيدة، نحن نتكلم عن آليتها وراحتها وقيمتها الاقتصادية.

يمكن لكل هذه الأشياء أن تكون لها صفات خارجية extrinsic مشتركة، فهي كلها تشبع اهتمام الإنسان بطريقة ما. وينفي بعض الفلاسفة احتواء كلمة «خير أو جيد Good» على أي خاصية، اللهم إلا تعبيرنا عن رضانا.

في السياق الفلسفي، يستخدم الفلاسفة «خير» كاسم مصدر ويميزون بين «الخير الداخلي» أو «الخير في حد ذاته» و«الخير الخارجي». يضرب أرسطو مثالًا على الخير الداخلي بالصحة الجيدة، فنحن نسعى إليها في ذاتها، كما ضرب مثالًا على الخير الخارجي بالمال الذي نسعى لاكتسابه بسبب ما يُدِرُّهُ علينا من فوائد.

(١٤) إعراب نحوي للوصف. (المترجم).

تكلم بعض الفلاسفة وعلماء اللاهوت عن «الخير الأعظم». تخيل أفلاطون الخير بوصفه أعلى قيمة مجردة وهو ما يتمثل الـمُثل غير المادية (انظر ص ٢٠)، بينما يرى أرسطو أن أعلى قيمة للخير بالنسبة للبشر هي التحلي بالفضائل التي يستطيعون بها أن يحققوا السعادة أو حياةً جيدة.

يرى مفكرون آخرون أن الخير الأعظم يتمثل في تحقيق ما يريده الله لنا من خير مثل الحب أو السعادة أو المتعة أو الحياة المتناغمة مع الآخرين والطبيعة.

الشر Evil

الشر كمبدأ أخلاقي Moral Evil يتضمن الألم والمعاناة التي تنتج عن تصرفات البشر غير الأخلاقية. في المقابل يتمثل «الشر الطبيعي Natural Evil» في أشياء مثل المرض أو الكوارث الطبيعية. في علم اللاهوت، يُعتبر الشر فكرة مجردة ولكنه أيضًا واقعٌ يتجسد في الشيطان؛ الذي هو أصل الأمور الشريرة وإغواء البشر بفعل الشر. منذ الأزل، والإنسان بطبيعته خَطَّاء (انظر ص ٢٤ و١١٧). والسؤال هنا: لماذا يسمح الله القادر على كل شيء الرحمن الرحيم بوجود الشر؟ هذا السؤال حار فيه علماء اللاهوت منذ أمد بعيد (انظر ص١١٧).

يهتم فلاسفة الأخلاق أكثر بأسئلة تتعلق بما نراه شرًّا. مثلًا، هل بعض الأفعال (مثل القتل) دائمًا خطأ؟ بغض النظر عن الخير الذي ينتج عن هذا القتل (مثل محاربة النازية). بعبارةٍ أخرى، هل من الممكن لعواقب الفعل أن تجيزه؟ بالمثل، إذا كان لدى شخصٍ ما نيةٌ في أن يكون شخصًا صالحًا، وارتكب دون قصد عملًا شريرًا، فهل هو شرير؟

The Golden mean الاعتدال

تُشير كلمة «الاعتدال the golden mean» إلى الـمُنتصف بين حدين، أي إلى التوازن والتناغم. ومثل هذا المفهوم نجده في العديد من مذاهب الفلسفة لوصف الحياة السعيدة. في البوذية مثلًا، الاعتدال هو «طريق الوسط العدل» بين الرفاهية الحسية والزهد، بينما نجد في التقاليد الكونفوشية أن: «فضيلة الوسط العدل هي أعلى الفضائل مرتبةً. ولكنها نادرة بين الناس».

في العهد اليوناني القديم، طبَّق سقراط هذه الفكرة في التعليم، إذ رأى أن الإخلاص التام للرياضة يمنح الإنسان قوةً وضراوةً، في حين أن مَن يمنحون ذواتهم تمامًا للموسيقى يصبحون ناعمين ومخنثين. في حين يؤدِّي المزج بين الاثنين إلى تناغم على صورة الجمال والخير. وفي محاورة فيدون Philebus عند أفلاطون، يقول سقراط: «القياس والنسبة يتجليان في كل مجالات الجمال والفضيلة».

وفي أخلاقيات أرسطو -بشكلٍ مماثل- يصبح الاعتدال هو الـمُرشد إلى الفضيلة والعمل الصالح. ومن ثم فهو يقول: «إن الفضيلة صفة شخصية مُتصلة بالاختيار، تكمن في الوسط العدل الذي يهدينا إلى الرشد. إنها الوسط بين رذيلتين: الإفراط والعجز؛ وبالتالي أكرر، أنه وسط عدل؛ لأن الرذيلة على تواليها تُقلل أو تُزيد ما هو صحيح في كلٍّ من المشاعر والأفعال، في حين أن الفضيلة تهدي إلى الوسط العدل وتختاره في آن واحد».

وبحسب أرسطو، تقبع الفضيلة بين حدين، ويجب أن يهدينا إليها المنطق والرشد. فمثلًا فضيلة الشجاعة تقبع بين حدَّي التهور (إفراط الشجاعة) والجُبن (فقدان الشجاعة). تتطلب مثالية الاعتدال أن يستجيب الشخص للفعل على نحوٍ منضبط، أى في الأوقات المناسبة، وللأسباب الصحيحة، وبالنسبة للأشخاص المناسبين.

السعادة Happiness

قال بعض الفلاسفة: إن السعادة هي أفضل الخيرات. ولكن ماذا نعني بالسعادة؟ فالفلسفة المعروفة بمذهب المتعة hedonism، والتي تم تبنيها في العصر اليوناني القديم، تربط بشكل كبير بين السعادة والمتعة (انظر ص٨٨). في المقابل، ربط أرسطو وآخرون بين السعادة والحياة الجيدة، والتي تقوم على استخدام المنطق والرشد الذي يهدينا إلى الفضائل.

نجد هذين المنظورين في مذهب النفعية الذي يرمي إلى مناهزة «أعظم سعادة لأكبر عدد من البشر» (انظر ص٩٣). وهذا هو أيضًا الهدف الذي سعى إليه العديد من السياسيين. في إعلان الاستقلال الأمريكي، تم النص على أن «السعي لتحقيق السعادة» حق من الحقوق الإنسان الأساسية. ولكن البعض يرى أن السعي للسعادة هو في حد ذاته نوعٌ من التعاسة. يربط آخرون السعادة بالرضى وحتى بالآلام: ممكن للخنزير أن يكون سعيدًا في موطن تربيته، حتى ولو لم يكن حرًّا في حظيرته.



مذهب المتعة Hedonism

مذهب المتعة هو نظرية أخلاقية ظهرت في العصر اليوناني القديم، وهذا المذهب يعتبر أن السعادة هي الخير الأعظم، وبالتالي يجب أن تكون هدفًا أساسيًّا للحياة. في هذا المذهب ترتبط السعادة بالمتعة ارتباطًا وثيقًا (باللاتيني hedone)، وهذا على الرغم من أن هناك عددًا من التفسيرات لطبيعة المتعة نفسها. لا يعني مذهب المتعة دائمًا الاستغراق في المتعة الحسية. فبحسب ملاحظة الفيلسوف وعَالِم النفس الأمريكي وليام جيمس William James: «إذا كان الإحساس بالسعادة هو الفيصل، فالسكر سيكون أجمل تجربة إنسانية».

أما فلاسفة مدرسة برقا Cyrenaic School [١٥] التي أسسها في عام ٤٠٠ قبل الميلاد إريستبوس القورينائي Aristippus of Cyrene فيرون أن الخير الأعظم هو متعة اللحظة المرتبطة «بالحركة الناعمة للجسد». أشار إريستبوس إلى أن كل الحيوانات تسعى إلى المتعة وتتجنب الألم، كما أنه يشكك في قدرتنا على معرفة أي شيء دون التواصل الفيزيائي للحواس به. وعلى الرغم من ذلك، فالمتعة بالنسبة لإريستبوس لم تكن مجرد مسألة تخلٍّ عن الأهواء الشخصية: فقد شدد على أن الرشد والتحكم في الذات هو شيء أساسي لاختيار أفضل متعة. وعند توجيه اللوم إليه لمرافقته غانية، قال: «إني أملكها، ولكنني لستُ مملوكًا لها؛ أن تتحكم فيَّ المتعة دون أن تتحكم هي فيك أفضل من ألا تتحكم فيها بالمرة».

مدرسة إغريقية أخرى هي المدرسة الإبيقورية، التي أسسها إبيقور (٣٤١-٢٧٠ قبل الميلاد) ترى -هي أيضًا- المتعة أعظم الخيرات. أكد إبيقور أننا نصل إلى المتعة بتجنبنا الألم الروحي والجسدي، وأفضل وسيلة لبلوغ هذه المتعة هو تقليل الرغبة والتركيز على المتعة الروحية أكثر من المتعة الجسدية. ومن ثم فالمتعة الأعظم توجد في النزاهة الهادئة: «فمن المستحيل أن تحيا حياةً ممتعة دون أن تحيا بحكمة وخير وعدالة».

وحديثًا، تم إعادة إحياء مذهب المتعة في الفلسفة النفعية، من خلال

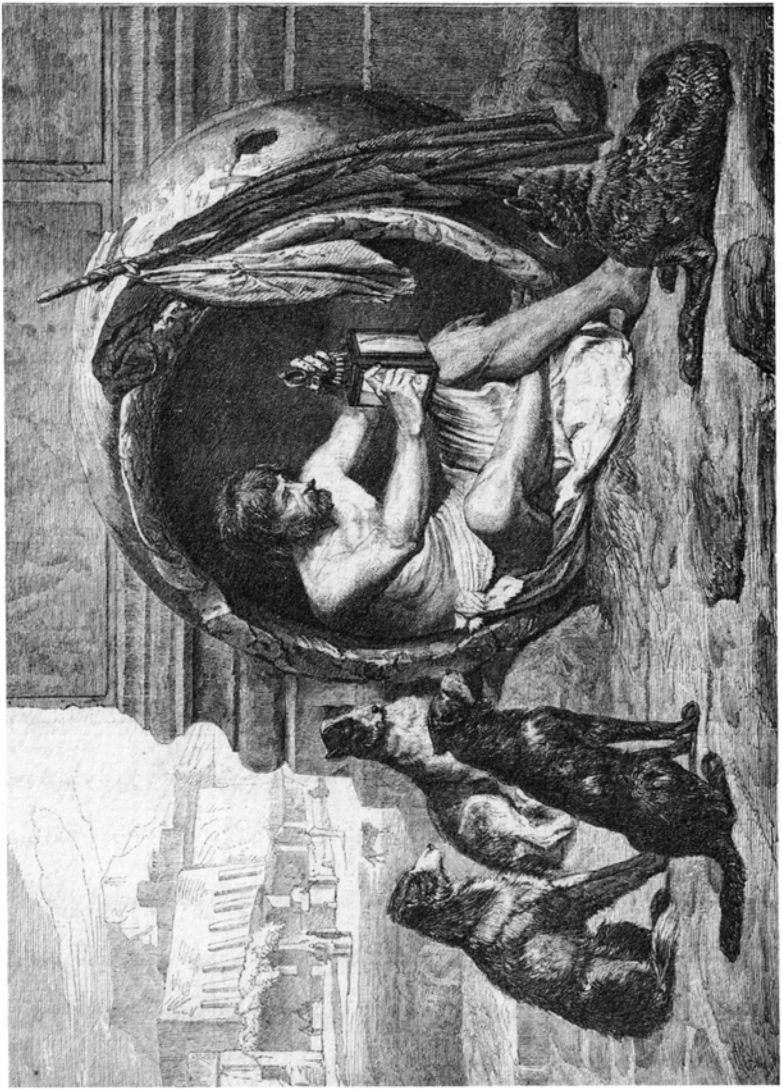
(١٥) برقة: هي الجزء الشرقي من ليبيا الحالية، وقد أُطلق عليها هذا الاسم للمرة الأولى عام ٦٤٤ ميلادية نسبة لعاصمة الإقليم آنذاك باركا باللاتينية: (Barca) وقد كان الإقليم يسمى باسم («كيرينايكي» باليونانية: Κυρηναϊκή لدى البيزنطيين). وقد اعتُمد اسم برقة من قبل عدد من الحكام العرب والمسلمين لاحقًا باعتبارها ولاية أو محافظة، وظلت تلك التسمية شائعة حتى سبعينيات القرن العشرين.

توجيه الفعل الشخصي والسياسة الاجتماعية نحو «أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس». (انظر ص٩٣).

الفلسفة التشاؤم أو (الفلسفة الكلبية) Cynicism

اليوم، الشخص الذي يوصف بـ«المتشائم أو الكلبي وفق الفلسفة التشاؤمية Cynic» هو الشخص الذي يفكر في أسوأ ما في البشر؛ فهو مقتنع أن كل شيء سيتحول إلى شر. تنطبق هذه الكلمة أيضًا على الأشخاص الذين يتجاهلون المبادئ الأخلاقية سعيًا وراء مصالحهم. والكلمة منشقة من اليوناني Kunikos (أو شبيه الكلب)، وفي العصر اليوناني القديم، كان المصطلح السيئ «الوقحون Cynics» ينطبق على الفلسفة التي تبناها الفيلسوف أنتيستنيس Antisthenes (٤٤٤-٣٦٦ قبل الميلاد)، أحد أتباع سقراط.

أصحاب الفلسفة الكلبية شبَّههم معاصروهم بالكلاب؛ بسبب رفضهم الواضح للقيم الأخلاقية للمجتمع. لقد دعا أصحاب هذه الفلسفة إلى الإلحاد التام إذ يعتقدون أن الفضيلة هي الحياة المنسجمة مع الطبيعة لا الثقافة، كما أنهم يرفضون المتعة والراحة والثروة. ديوجين Diogenes (٤١٢-٣٢٣ قبل الميلاد)، واحد من أشهر أتباع الفلسفة الكلبية، اتخذ اسمه «كلب» على محمل الجد، فراح يتجول عاريًا في الشوارع، يقضي حاجته علنًا، ينام في حوض أو برميل في السوق المحلي، ويعوي في وجه الناس مُجانِبًا الفضيلة.



دیوجین

الفلسفة الرواقية Stoicism

الرواقية هي تقليد فلسفي تم تأسيسه في اليونان القديمة في عام ٣٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، من قبل الفيلسوف زينون الرواقي Zeno of Citium. وقد اتخذت هذه الفلسفة اسمها من رسم الشرفة (الرواق) Stoa Polikile (''Painted Porch')، وهذا الرواق هو جزء من ساحة الأغورا Agora التي يتجمع فيها الناس في أثينا، وكانت مكانًا تعلم فيها زينون. يمتد تأثير الرواقية إلى يومنا هذا، ولا نزال نستخدم كلمة رزين Stoical إلى الآن لوصف السلوك الذي فيه يحتمل المرء المصيبة دون شكوى.

متأثرة بالفلسفة الكلبية (انظر ص٩٠)، ظهرت المدرسة الرواقية بوصفها مدرسة أخلاقية من نوعٍ آخر، تحتل فيها الحكمة والفضيلة مكانةً عليا، وفيها ترتبط الحكمة بالفضيلة ارتباطًا قويًّا. انبثقت أخلاقية هذه المدرسة من الميتافيزيقا. كان الرواقيون يؤمنون بمبادئ الفلسفة الواحدية Pantheism والمادية Materialism: وبحسبهم، يُعرف الله بالمنطق، وهو كالمبدأ الكامن في الكون، والإنسان ذاته يتعرض للنار الإلهية. أما الإنسان الحكيم والرزين فيعيش بتناغم مع الطبيعة، ويتقبل الخير والمصيبة على السواء.

في العصر اليوناني القديم، كان يُنظر إلى الرواقية بوصفها فلسفة متحجرة القلب، صارمة بشكل لا إنساني، بعيدة عن المشاعر العصرية. فمثلًا، الإنسان الحكيم والرزين الرواقي سيحاول أن ينقذ ابنه إذا كان يغرق، ولكن إذا فشل في إنقاذه، وغرق طفله ومات، فلا يجب أن يشعر باللوم والأسى، عالـمًا أنه فعل أفضل ما يمكنه فعله، ومدركًا أن موت ابنه

يجب أن يكون جزءًا من خطة إلهية، وهي بالتالي الأفضل.

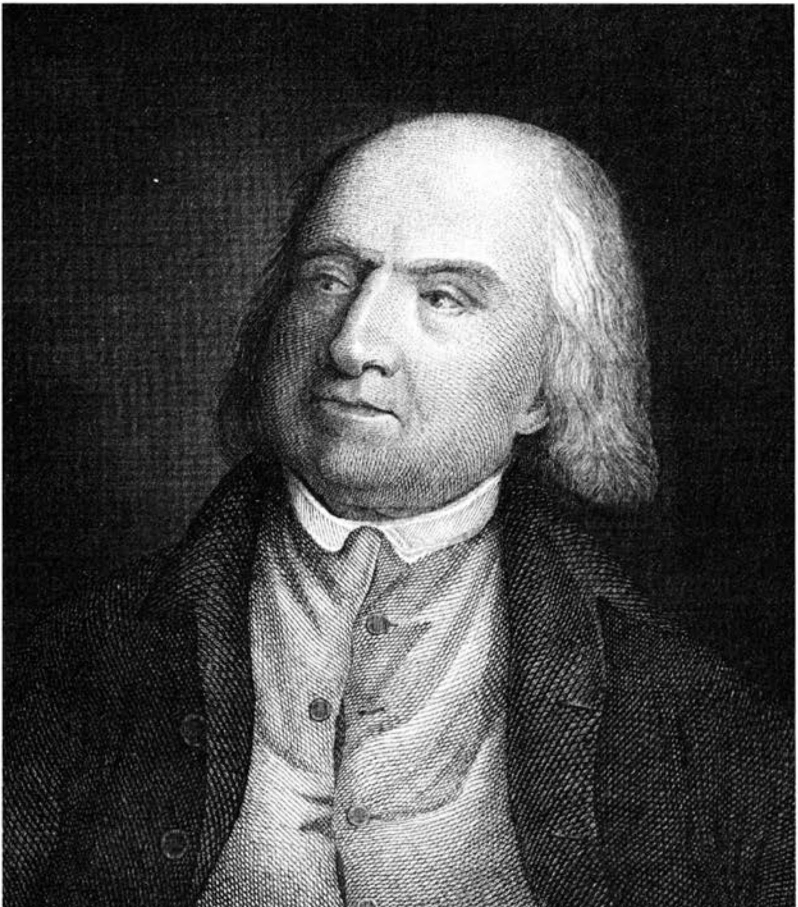
اعتقد أوائل الرواقيين أن كل الناس إخوة، كما حاربوا العبودية. على مدار القرن الأول الميلادي، تم تبني المذهب الرواقي من قبل عِليَة القوم في المجتمع الروماني، وكان هناك جدل كبير حول أهمية الشعور بالمسؤولية. من الرواقيين المشهورين الكاتب المسرحي سينيك أو سينيكا Seneca (٤ قبل الميلاد - ٦٥ بعد الميلاد) والإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٢١ - ١٨٠ بعد الميلاد) اللذان تضمنت تأملاتهما أقوالًا مأثورة مثل: «يوجد الإنسان من أجل الآخرين، ليعلمهم أو ليتحملهم»، «اجعلْ كل فعل أو كلمة أو فكر كأنك تستعد لأن تترك الحياة في أي لحظة».

النفعية Utilitarianism

النفعية Utilitarianism هي نظام من الأخلاقيات العملية التي ابتكرها الفيلسوف والإصلاحي الإنجليزي جيريمي بنتام Jeremy Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢)، صاحب العبارة المشهورة: «أعظم سعادة لأكبر عدد من البشر هي ترسيخ الأخلاق والقانون». ومن ثم النفعية هي جزء من فلسفة المتعة (انظر ص ٨٨). طَوَّرَ بنتام (في المقابل) «حساب أخلاقي» بسيط، مؤكدًا أن المتعة والألم الناتجان عن الفعل يمكن قياسهما، وبالتالي يمكن الحكم على الفعل بأنه خير أو شر.

بحسب الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣)، رؤية بنتام للنفعية فجة جدًّا؛ إذ أكد ستيوارت مل على أهمية نوعية المتعة، ووصف القيمة الأعلى بأنها «المتعة الناتجة عن الفكر

والمشاعر والخيال والأحاسيس الأخلاقية». عَدّلَ مل أيضًا الحساب الصلب لبنتام عن طريق وضعه لحق الفرد ضد الأغلبية. وعلى الرغم من أنه انتُقِدَ من بعض أصحاب مذهب المغالطة الطبيعية Naturalistic Fallacy (انظر ص ١٠٣)، إلا أن التأثير العظيم للفلسفة النفعية قد امتد للسياسات الاجتماعية.



The Golden Rule القاعدة الذهبية

هُناك قاعدة ذهبية في المثل السائر «افعل مثلما تريد أن يفعل الناس معك». هذه القاعدة الذهبية مُستلهَمة من قول المسيح الشهير في إنجيل لوقا (٦:٣١): « قالَ الربُّ: كما تريدون أن يفعلَ الناس بكم، كذلك افعلوا أنتم أيضًا بهم». «القاعدة الذهبية» هي أيضًا قاعدة أساسية للسلوك الأخلاقي في العديد من الديانات الأخرى والتقاليد الأخلاقية. مثلًا -لعدة قرون قبل المسيح- قدم كونفوشيوسConfucius النسخة السلبية لها كمبدأ إرشادي أساسي للسلوك خلال الحياة: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه معك».

إن قدرتنا على أن نضع أنفسنا مكان الآخرين -الصفة الإنسانية المعروفة بالتعاطف- وأن نتعامل بحسبها، هي أساس العلاقات الاجتماعية. ومن دون هذه القاعدة الذهبية، لا يمكن أن يوجد شيء اسمه المجتمع؛ تكمن القاعدة الذهبية -بما تنطوي عليه من عدالة للجميع- في جذور كل الأنظمة القانونية.

فكر البعض في السخرية من القاعدة الذهبية باقتراح أمثال مضادة طريفة. هل نتمنَّى من المنحرف جنسيًّا مثلًا أن يعامل الآخرين كما يحب لنفسه؟ ولكن هذا المثل لا يعي النظرية؛ إذ لا تؤكد القاعدة الذهبية مبادئ أخلاقية خاصة، ولا ترسخ أسس الاختيار الأخلاقي بمعزل عن مبادئ السلوك. إنها تتطلب ببساطة الاتساق مع النفس.

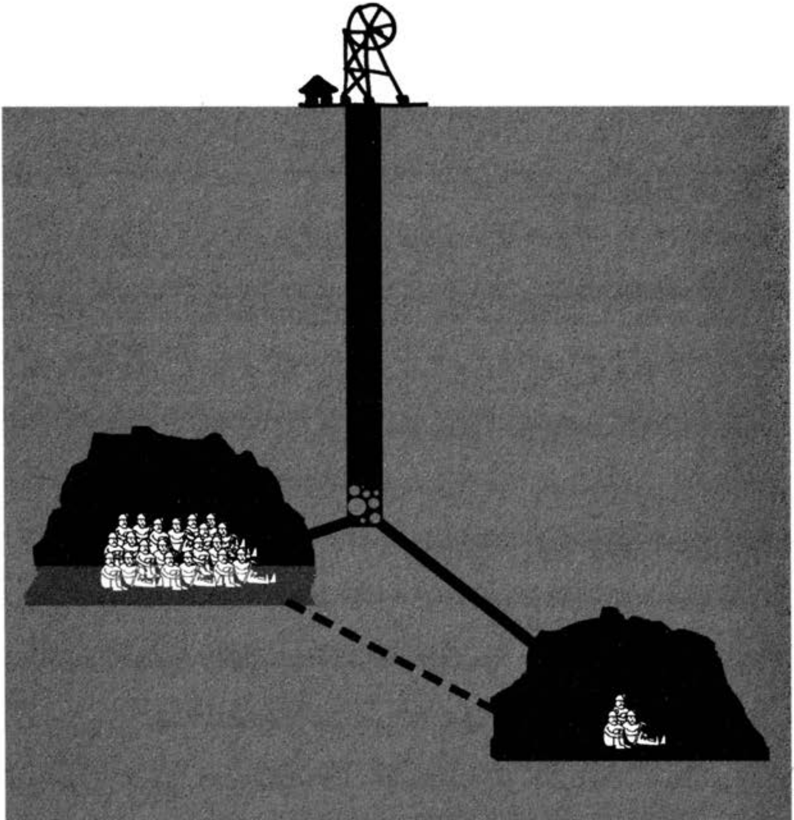
في القرن الثامن عشر، أكد الفيلسوف الألماني إيمانول كانط أن القاعدة الذهبية ليست صارمة إلى الحد الذي يسمح لها أن تكون قانونًا عالميًّا.

بدلًا منها ابتكر كانط «الضرورات الحتمية Category Imperative» التي قال عنها: «تعامل فقط بحسب أقصى ما يمكن أن تفعله، وفي نفس الوقت بحسب ما ترغب في أن يكون قانونًا عالميًّا». ومن ثم، إذا كذبتُ من أجل زيادة فرصي، أو راوغتُ في دفع أجرة الحافلة، فيجب أن أسأل نفسي: ما العواقب التي ستنتج عن ذلك إذا فعل الجميع مثلي؟ حينها فقط سأتجاوز اهتماماتي الضيقة الشخصية وقصر نظري الأخلاقي.

الفعل والإغفال Acts and omissions

فكر فلاسفة الأخلاق وعلماء اللاهوت طويلًا في الحالة الأخلاقية النسبية للإغفال أو السلبية، التي يكون فيها للفعل الخاطئ والإغفال السلبي النتيجة نفسها. فمثلًا، هل هناك اختلاف أخلاقي بين الكذب والسكوت؟ هل السكوت هو إغفال قول الحقيقة؟ أو هل ثمة فرق بين قتل شخصٍ ما والسماح بموته؟

يشير السؤال إلى الخطأ الجسيم القابع في الفكر الأخلاقي بين عاقبة الفعل والأخلاق الواجبة، بين مَن يعتقدون أن العاقبة تبرر الفعل وبين مَن يعتقدون أن العاقبة لا تبرر الفعل. الفلسفة العواقبية Consequentialist تحكم على الفعل والإغفال فقط بحسب عواقبهما. في المقابل فلسفة الأخلاق الواجبة Deontologist تهتم بمسؤولية الفرد: ولكن هنا يُطرح سؤال، فمثلًا، هل مسؤولية عدم القتل هي أعلى قيمة في الأخلاق الواجبة من إنقاذ الحياة؟ وبشكلٍ عام يؤكد القانون أن القتل جريمة، في حين أن مَن يؤدي بإهماله إلى القتل يأخذ حكمًا جزائيًّا أقل من جريمة القتل المتعمد.



مشكلة الواجب والإلزام The is/ought problem

كتب الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم في كتابه (بحث في الطبيعة الإنسانية Treatise on the Human Nature ١٧٣٦): «في كل نظام أخلاقي قابلته حتى اليوم، لاحظت دائمًا أن الكاتب يقدم في الكتاب بعض

الوقت الطريقة الطبيعية للمنطق، ويؤسس وجود الإله أو يقوم بملاحظات مُتعلقة بشؤون الإنسان؛ وإذ فجأة أجد بدلًا من التوصل بشكل اعتيادي لاقتراحات، أجد أنه لا يوجد اقتراح متصل بالواجب والإلزام أو عدمه. هذه الملاحظة دقيقة إلى حدٍّ بعيد؛ ولكنها في النهاية من التوابع البديهية».

ما يشير إليه هيوم هو نزعة الإنسان إلى مزج العبارات الأخلاقية بأشياء واقعية، مُقترِحًا أن عبارة «القتل خطيئة» لها نفس قوة الحقيقة، هذا مثله مثل حقيقة أن «الأرض تدور حول الشمس». رفض هيوم أن نختزل قيمة الأحكام من مقدمات منطقية واقعية، مؤكدًا أننا نؤسس أحكامنا الأخلاقية لا على المنطق بل على المشاعر.

في بداية القرن العشرين، فيلسوف الأخلاق الإنجليزي جورج إدوارد مور G. E. Moore (١٨٧٣-١٩٥٨) سَمَّى انبثاق نتيجة أخلاقية من مقدمات أخلاقية واقعية بـ«المغالطة الطبيعية Naturalistic fallacy». أكد مور في نقده للنفعية (انظر ص٩٣) أنه لا يمكن أن نفسر «الخير» عن طريق تعبيرات وصفية مثل «السعادة» أو «المتعة». وبالأحرى لا يمكن تفسير الصَّلَاح Goodness بملاحظات معرفية، ولكن فقط من خلال جزء من كُلِّية الأخلاق الذاتية - موقف فلسفي معروف بالحدسية Intuitionism.

الوعي بخطر المغالطة الطبيعية -انبثاق واجب وإلزام أخلاقي من مقدمات منطقية واقعية- هو مهم في الفحص الدقيق لنطاق واسع من المواضيع. فمثلًا، تقترح نظرية داروين Darwin للتطور بالانتقاء الطبيعي أن أجناسًا أفضل وأكثر تكيفًا قد تتطور من خلال «البقاء للأفضل» (انظر

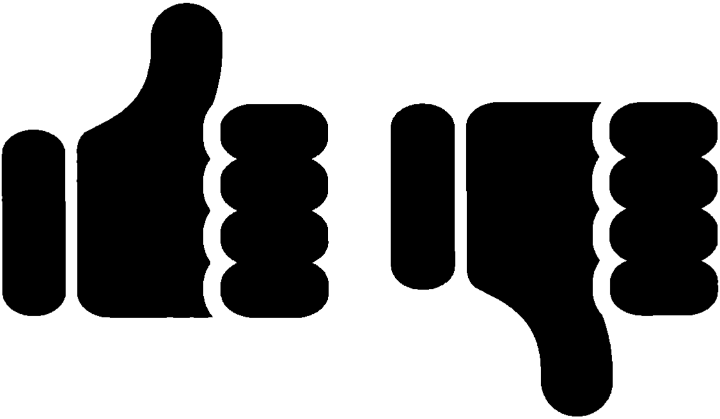
ص١٥٥). ولكن فقط لأنها حالة في الطبيعة، فهل علينا أن نلتزم بها ونطبقها كمبدأ -مثلما يفعل الداروينيون الاجتماعيون (انظر ص٢٦٦)- لسلوك البشر في المجتمع المتحضر؟

النزعة الانفعالية والنزعة المستقبلية

Emotivism and prescriptivism

أدت المغالطة الطبيعية Naturalistic fallacy -المنبثقة عن الواجب والإلزام الاخلاقي- في القرن العشرين إلى نظرية تعرف بالنزعة الانفعالية Emotivism، المعروفة أيضًا باسم «بالبأس والتهليل» «boo-hurrah theory». مُبتكرة على يد الفيلسوف الإنجليزي ألفرد آير A. J. Ayer (١٩١٠-١٩٨٩) في الثلاثينيات، تُؤكد النزعة الانفعالية على أن العبارات الأخلاقية، رغم أنها نحويًّا تشبه العبارات الواقعية، إلا أنها لا تحمل إلا مشاعر المتكلم، سواء كنت موافقًا له أو معارضًا له. فإذا قلنا «القتل هو شيء خاطئ أخلاقيًّا»، فنحن نقول «بئس القتل!» «Boo to murder!». وإذا قلنا «عدم الكذب هو خير»، فنحن نقول في الواقع «تهليلًا لقول الحق!» «Hurrah for telling the truth!».

لقد تطورت النزعة الانفعالية في النزعة المستقبلية Prescriptivism التي دعا إليها الفيلسوف الإنجليزي ريتشارد مارفين هاري R. M. Hare (١٩١٩-٢٠٠٢). وتشدد النزعة المستقبلية على أن الأحكام الأخلاقية Moral Statments هي مثل الأحكام الواجبة والحتمية؛ لأنها لا تعبر فقط عن موقف المتكلم، ولكنها أيضًا تُلزم المتكلم وتُرشد الآخرين إلى نوعٍ من الفعل. في المقابل، قبول عبارة حقيقية لا يلزم في النهاية إلا المتكلم الذي يؤمن بها.



علم الجمال Aesthetics

علم الجمال هو فرع من الفلسفة يبحث عن ماهية الجمال، والأسس التي عليها نبني أحكامنا الأخلاقية على الأعمال الفنية. ومن الممكن أن نطرح تساؤلات مثل «ما الفن؟» و«وما أهميته؟» «What, if anything, is art for?».

واحدٌ من أكثر مفاهيم الفن ثباتًا هو أنه يُمَثِّل النفس، يماهي العالم الذي نلاحظه، فالفن -مثلما تؤكد كلمات هاملت- «مرآة الطبيعة» (انظر المحاكاة (الفن)، ص ٣٠٢). في العصر اليوناني القديم، أكد أفلاطون أن الجمال المثالي -مثل الخير الأمثل- يوجد فقط في المثل اللا مادية (انظر ص ٢٠). وبالتالي، الأعمال الفنية الحالية ليست إلا أدنى محاكاة لهذا الجمال المثالي، ولا يمكن الوثوق فيها كمُرشد للحقيقة أو الخير. ولهذا السبب نفى أفلاطون الشعراء والفنانين من جمهوريته المثالية.

في المقابل، يعتقد أرسطو أن الأعمال الفنية هي تحسين لصورة الطبيعة، وأنها تمنح رؤية للجوهر الكوني للأشياء. كما أكد أن للفن تأثيرًا اجتماعيًّا إيجابيًّا: فمثلًا للدراما دور إيجابي في تطهير مشاعرنا حين تثير مشاعر «الشفقة والخوف» لدى المتفرجين.

أما بالنسبة للحكم على جودة العمل الفني، فيقدم لنا أرسطو بعض المعايير. ينبغي للدراما على سبيل المثال أن تقوم على «وحدة الفعل Unity of action» (التي سيضيف إليها النقاد لاحقًا وحدة الزمان والمكان). ويرى أفلاطون أننا نستطيع أن نحكم على تميز مقطوعة موسيقية مثلًا من خلال مدى ما تُثيره من بهجة لدى «أصحاب الفضيلة والمتعلمين».

لا تزال الفكرة التي ترى أن صفوة المجتمع المتعلمين هم وحدهم فقط الذين يستطيعون الحكم على جودة العمل الفني، مستمرة إلى يومنا هذا. ولكن المعايير التي يتم من خلالها نقد الأعمال الفنية قد تغيرت على مر العصور. ففي الفنون البصرية مثلًا، كانت قيمة التصوير تكمن في مدى محاكاة العمل للطبيعة بشكل مُطلق وعبقري. ثم أصبحت قيمة جودة «التعبير» لها الأهمية الكبرى (انظر ص ٣١٩)، كما صارت الجودة «التقليدية» مثل الخط والألوان والتكوين تنحو صوب التجريد (انظر ص ٣٢١).

الجمال Beauty

«رغم أن الجمال مرئي ويقر به الجميع، إلا أن المحاولات العديدة التي ترمي إلى معرفة سبب وجوده بوصفه كذلك، هي محاولاتٌ معظمُ أصحابِها استسلموا ولم يجدوا جوابًا لها...». وهذه هي مقولة الرسام

الإنجليزي وليام هوجرت William Hogreth ١٩٧٣. وفيها يعلق هوجرت على مدى صعوبة تفسير طبيعة ما نشعر به أمام الأعمال الفنية.

لعقودٍ طويلة، ساد الاعتقاد بأن الجمال هو قيمة مجردة، ولكنها في نفس الوقت قيمة حقيقية تمتلكها بعض الأعمال الفنية. على عكس هذا الموقف، كتب الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم في عام ١٧٥٧ يقول إن «الجمال ليس قيمة في الأشياء نفسها؛ لأنه ببساطة يوجد في العقل الذي يتأمل هذه الأشياء». اليوم، هذه النظرة هي المهيمنة، على الرغم من أن آراء الجميع في الجمال ليس لها نفس القيمة. نحن نميل إلى احترام نقد الخبراء في المجال، الذين يستطيعون تبرير آرائهم لا عن طريق بيان بعض القيم المتفرقة لما يُسمَّى بالجمال، ولا عن طريق التعبير عن مشاعرهم التي يولدها العمل الفني، ولكن عن طريق وصفهم للعمل الفني ذاته ومقارنته بالأعمال الأخرى.



المُغالطة المُتعمدة The intentional fallacy

إلى أي مدى يجب علينا -عند الحكم على العمل الفني- أن نضع في الاعتبار السياق الذي ابتُكر فيه هذا العمل؟ هل نحن بحاجة إلى معرفة علم لاهوت القرون الوسطى لفهم الكوميديا الإلهية لدانتي Dante's Divin Comedy مثلًا؟ أو إلى أن نشاركه إيمانه المسيحي لكي نُقدر بشكلٍ كامل شِعره؟ هل يقلل من قيمة الأعمال الموسيقية لريتشارد فاجنر Richard Wagner أنه كان فى الواقع شديد الغرور وعدوانيًا ومعاديًا للسامية؟

هناك مَن يرون أن العمل الفني يجب أن يتم نقده على أساس مزاياه الخاصة بشكلٍ مطلق، وبالتالي فإن أي معرفة خاصة بمعتقدات مبدع العمل أو شخصيته أو نواياه هي غير ذات صلة بالنقد الفني لعمله. هذا المذهب أيّده الناقد الأدبي الإنجليزي إيفور أرمسترونج ريتشاردز I.A. Richards (١٨٩٣-١٩٧٩)، والذي طبق مذهبه «النقد التطبيقي» «Practical Criticism» في تدريسه للنقد، مُقدِّمًا للطلبة نصوصًا شِعرية من دون أي معلومات عن الكاتب أو زمانه أو مكانه.

تمسك مذهب «النقد الجديد» الأمريكي في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته بفكرة استقلالية النص. وفي عام ١٩٤٦ نشر وليام كورتز ويسمات W. K. Wimsatt ومونرو بردسلي Monroe C. Beardsley مقالًا بعنوان «الـمُغالطة المُتعمدة Intentional fallacy». في هذه المقالة، أكد الناقدان أن قصيدة الشِّعر «ليست حيازة خاصة للناقد أو الكاتب (لأنها تنفصل عن الكاتب بعد ولادتها وتصبح ملكًا للعالم.. مما يتجاوز الكاتب وسلطته)، فالقصيدة مِلك للجمهور...». كما شددا على أنه يمكن أن يكون للقصيدة معنى «مقصود» «Intended»، ولكن هذا المعنى لا يطابق المعنى المستقل «الحالي» «actual».

الـمُشكل في هذا النهج هو أنه يعزل العمل الفني عن السياق الـمُكوِّن له، وبالتالي ينفي سياقه التاريخي. يمكن للبعض أن يعتبر أن تجريد العمل الفني من سياقه الزمني هو بمثابة استهانة لتعقيد العمل الفني وتفاعلنا معه، وبالتالي هو تشويه لإحساسنا العميق به.

The affective fallacy المُغالطة العاطفية

«اجلب معك مجموعة من المناديل؛ لأنك ستبكي كثيرًا!»، هذه كانت نصيحة الملحن الفرنسي جابريل فوريه Gabriel Fauré لصديقه الذي سيحضر أوبريت فاجنر Wagner في بيروت في ١٨٨٤. «وأنصحك أيضًا أن تأخذ مُهدئًا؛ لأنك ستنفعل مع الموسيقى لدرجة الهذيان!». وعلى الرغم من ذلك، فهناك بعض الحاضرين قد شعروا أن الأوبريت يثير أقصى درجات الملل: «نفضل على هذا الأوبريت حالة من الغيبوبة الدائمة». لقد وردت جميع هذه الآراء في مجلة عالم الموسيقى اللندني London Musical World في عام ١٨٥٥.

لقد أدى تنوع كهذا في المشاعر الشخصية تجاه الأعمال الفنية إلى قيام الناقد الأدبي الأمريكي وليام كورتز ويسمات W. K. Wimsatt ومونرو بردسلي Monroe C. Beardsley في عام ١٩٥٤ بالتحذير من «الخلط بين القصيدة (أو أي عمل فني آخر) ونتائجها (ما هو وما تأثيره)». هذا «الارتباك والخلط» أطلق عليها الناقدان مصطلح «الـمُغالطة العاطفية». وبالتالي وجد النقاد أن المسألة ببساطة هي أن جزءًا من جودة العمل الفني تكمن في قدرته على إثارة ردود أفعال انفعالية قوية.



الفصل الثَّاني

الدِّين

الدين Religion

لعب الدين دورًا كبيرًا في المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ. ولكن ما الدين؟ نفكر فيه عامةً بوصفه عقيدة في إله أو آلهة. ولكن ليس هذا حال الدين دائمًا؛ ففي البوذية -مثلًا- لا يوجد آلهة. ورغم ذلك فالبوذية -مثلها مثل أي دين- تشدد بشكل كبير على وجود عالم روحي بعيدًا عن العالم المادي اليومي.

وبالتالي هل نعتبر مَن يؤمن بوجود عالم روحي متدينًا؟ ليس بالضرورة؛ لأن الأديان -بشكل جزئي- مؤسسات تشمل مجموعة من الأفراد يعتنقون عقائد متشابهة أو متطابقة.

يمثل المجتمع جانبًا واحدًا فقط من الدين. وتتمثل الجوانب الأخرى من الدين في الإيمان (الإيمان الشخصي والشعور بالخشوع والإجلال)؛ العبادة (الطقوس، الأماكن الدينية الـمُقدسة، العبادة الجماعية... إلخ)؛ العقيدة (التعاليم والكتب الـمُقدسة)؛ والتقاليد (الأخلاقيات والمحرمات والأفكار التي يؤسسها الدين حولها كالخطيئة والقداسة).

كيف يختلف الدين عن الأيديولوجيا؟ يمكن للمذاهب الأيديولوجية مثل النازية والاشتراكية أن تحتاج -مثلها مثل الدين- إلى التزام تام من التابعين، وارتباط تام بالعقيدة، ولكن هذه المذاهب الأيديولوجية تختلف عن الدين بوصفها لا تتضمن إلهًا أو أي بعد روحي.

كيف يختلف الدين عن السحر؟ يتمسك الذين يؤمنون بالسحر ببعض الطقوس التي تُحدِث بعض التغييرات المرغوبة في العالم المادي، وهذا من دون تدخل إلهي في ذلك. في المقابل -في الدين- يدعو الناس

الإله أو الآلهة لتحقيق بعض التغييرات، ولكنهم يؤمنون أن هذه التغييرات ستحدث فقط بفضل الإله.

يمكن النظر إلى الدين أيضًا باعتباره ظاهرة ثقافية، تتضمن قيمًا وتقاليد وأسس أساطير المجتمعات المختلفة حول العالم. إن بعض الديانات -مثل المسيحية والإسلام- ديانات عالمية تؤكد على تفردها وتميزها الاستثنائي. ومع ذلك، يمكن النظر إلى هذه الأديان بوصفها نتاج ظروف تاريخية خاصة.

علم اللاهوت Theology

تعني كلمة علم اللاهوت -بالمعنى الحرفي- دراسة الله. وقد عُرفت هذه الدراسة بأنها محاولة للكلام بعقلانية عما هو إلهي. وتشمل موضوعات اللاهوت مسائل مثل ماهية الله، وعلاقته بالكون، ومقاصده بالنسبة للإنسانية، ودراسة الكتب الـمُقدسة، وحيثيات العقيدة. أنتجت كل الديانات نوعًا من اللاهوت، ولكن أكثر الديانات دراسة للاهوت هي الديانة المسيحية.

هناك فرعان رئيسان في علم اللاهوت المسيحي: اللاهوت الطبيعي واللاهوت الـمُوحى به Natural and Revealed Theology. يتضمن علم اللاهوت الطبيعي الاستدلال على معرفة الله من خلال العالم الطبيعي. وأول المؤيدين المتحمسين لهذا النهج هو القديس توما الأكويني St Thomas Aquinas(١٢٢٥-١٢٧٤) والذي أدخل في القرن الثالث عشر منطق أرسطو في الفكر المسيحي، وقدَّم براهين عديدة على وجود الله (انظر ص ١١٣). واليوم، يُعتبر علم اللاهوت الطبيعي جزءًا من العقيدة الكاثوليكية الرومانية، وهو مثار نقد من قبل الذين يؤكدون أن

المنطق الإنساني قد أفسدته الخطيئة لدرجة أنه لا يستطيع معرفة أي شيء عن الله، الله الذي لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي الإلهي.



الله God

بالنسبة للمؤمنين، الله هو الموجود الأول الأعلى الخالق ملك الملك. إن أغلب الديانات تؤمن بالله الواحد (التوحيد) أو بعدة آلهة (الشرك)، ولكن بالنسبة لبعض الديانات مثل البوذية Buddhism والطاوية Daoism؛ فليس لديها إله.

من الأديان المؤمنة بآلهة عديدة: الهندوسية Hinduism وأديان اليونانيين والرومان القدماء، وإن كان لديهم تراتبية للآلهة. في الهندوسية مثلًا، الحقيقة المطلقة والروح العليا هو البراهمان Brahman الذي يحكم من خلال الثالوث الآتي: البراهما (الخالق) Brahma، فيشنوVishnu (الحافظ)، وشيفا Shiva (المدمر)؛ وعلاوة على ذلك، لديها آلهة عديدة، بعضها تجسيد لآلهة أعلى.

أول دين توحيدي هو اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام؛ وهي أديان التوحيد الثلاثة التي نشأت في الشرق الأوسط. في المسيحية، الله يتمثل في الثالوث الأب والابن والروح القدس. في الأديان التوحيدية الثلاثة، الله قادر على كل شيء وعليم ورحيم. وهو يتجلى في الكتب الـمُقدسة مثل التوراة والإنجيل والقرآن.

في أديان عديدة الله ليس خالق الكون فحسب، وإنما الله يتجلى في الكون أيضًا. هذه النظرة معروفة بالإيمان بالله الواحد الأحد؛ فالتوحيد يشدد على الله تعالى (الغني عن المخلوقات والزمان والمكان) والخالد (حاضر ومتجلٍّ في كل جوانب خلقه).

في المقابل، الربوبية Deism، وهي نهج اتبعه الكثير من مفكري المدرسة العقلانية في القرن الثامن عشر في عصر التنوير، هؤلاء يؤكدون أن الله حتمًا هو السبب الأول للكون (انظر ص ٤٤)، ولكنه منذ هذه اللحظة لم يعد يتدخل في الكون.

اتجاه آخر يتمثل في فلسفة الواحدية Pantheism، والتي تشدد على أنه لا يوجد إله متعالٍ، وإنما إله موجود في كل شيء في الكون، بما في

ذلك كل إنسان. وعلى الرغم من تبني عدد من الفلاسفة -مثل باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧) والشعراء الرومانسيين مثل ويليام ووردزوورث William Wordsworth - لهذه الفلسفة، إلا أنها لم تلقَ قبولًا قط في الديانات الغربية.

البراهين على وجود الله

Arguments for the existence of God

على مر العصور، طُرحت العديد من البراهين على وجود الله. نشير هنا إلى أكثر البراهين شُهرةً:

١ - **البرهان الكوني:** كل شيء له سبب، والله يتجلى كالسبب الأول (انظر ص ٤٤). ويمكن نقد هذا البرهان على أساس أن السببية تصل بين الظواهر التي يمكن ملاحظتها فقط.

٢ - **برهان الخلق:** إن الكون مُعقد لدرجة أنه لا بد أن يكون مخلوقًا من قبل إله عليم وقادر على كل شيء. هذا البرهان قائم على افتراض أن لكل شيء غاية (انظر ص ٣١).

٣ - **البرهان الوجودي:** إذا كان لا يوجد مَن هو أعظم من الله، فلا بد من وجود الله. وهذا البرهان حلقة مغلقة.

٤ - **البرهان الأخلاقي:** إن الأخلاق موجودة. ولكن لا يمكن تواجدها من دون الله الذي يكافئ الفضائل.

الإيمان Faith

يختلط مفهوم الإيمان Faith بمفهوم العقيدة Belief، ولكنهما ليسا متطابقين. في الفلسفة، تتناقض العقيدة مع المعرفة؛ عندما نقول إننا نعتقد أن شيئًا ما هو الحال، فليس لدينا ما يكفي من الأدلة لبرهان معرفتنا هذا الشيء. الاعتقاد في الله يدخل في هذا التصنيف، وهذا غالبًا ما نعنيه بالإيمان؛ وهو عبارة عن اعتقاد قوي لا شك فيه، ولا يحتاج إلى دليل أو برهان عليه.

في اللاهوت المسيحي، يشير الإيمان إلى الثقة في الله، في أفعاله ووعده. ففي إنجيل القديس بولس نقرأ (العبرانيين؛ ١١ : ١): «فالإِيمانُ قِوامُ الأُمورِ الّتي تُرْجى وبُرْهانُ الحَقائِقِ الَّتي لا تُرى». فالإيمان ينظر إليه بوصفه تجلي رحمة الله. توجد في الإسلام فكرة مماثلة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

[سورة يونس: ١٠٠].

يشدد علماء اللاهوت الطبيعيون على أن وجود الله يمكن أن نستدل عليه بالعقل بشكل كامل أو جزئي (انظر ص ١١٣).

في المقابل، أتباع المدرسة «الإيمانية» Fideism يؤكدون أن الاعتقاد الديني مبني بشكلٍ كاملٍ على الإيمان. إن الصورة الأكثر تطرفًا للمدرسة الإيمانية تتمثل في دفاع ترتليان Tertullian عن التجسيد الإلهي في المسيحية في القرن الثالث عشر: «إنه مؤكد؛ لأنه مستحيل». فالإيمان بالنسبة لأتباع المدرسة الإيمانية يُستدل عليه عن طريق تجارب صوفية أو

وعن طريق الوحي أومن حاجة الإنسان لغير المنطقي.

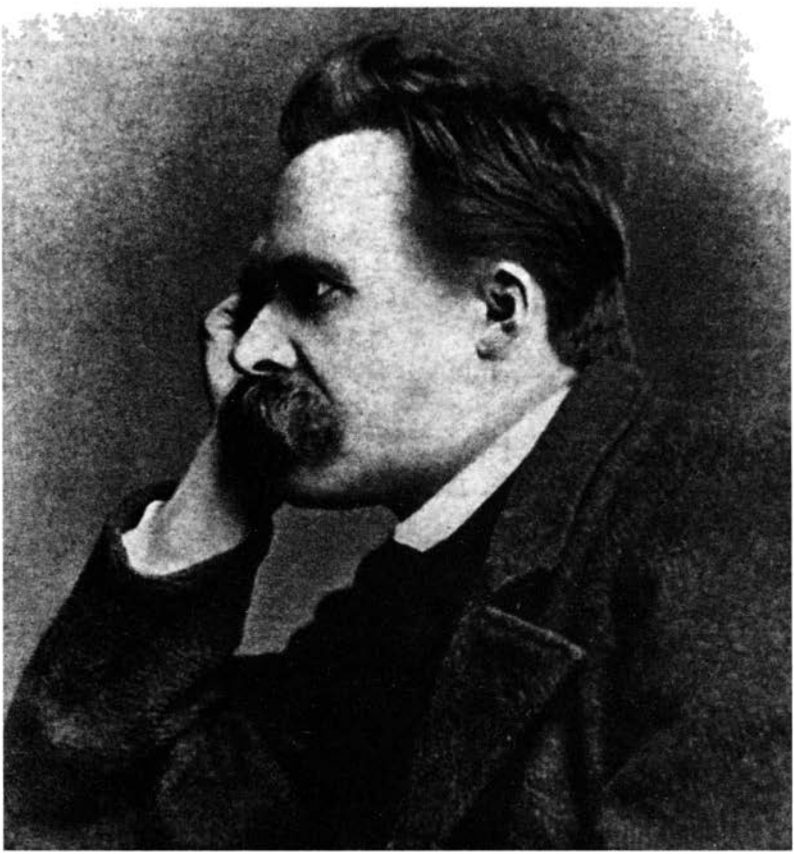
لقد أثارت الأهمية النسبية للإيمان كمقابل للأفعال (الأعمال الحسنة) في تحديد نجاة الفرد الكثير من الجدل على مر العصور. ونقرأ في رسالة يعقوب (إصحاح ٢: ٢٠) ما يلي: «وَلَكِنْ هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الْبَاطِلُ أَنَّ الإِيمَانَ بِدُونِ أَعْمَالٍ مَيِّتٌ؟».

ومع ذلك، فإن اللاهوت المسيحي يُديم التوبة عن الآثم بشرط الإيمان، مما يضمن نجاة المؤمن برحمةٍ من الله. وهذا كان أساسًا شديد الأهمية بالنسبة للإصلاح البروتستانتي، وقد عبر عنه مارتن لوثر Martin Luther بقوله: «كن آثمًا وأخطئْ بقوة، ولكن كن مؤمنًا بقوة أشد وابتهج مع المسيح».

الإلحاد Atheism

الإلحاد هو نفي وجود الله أو وجود كائنات روحية. إن أكثر البراهين إجماعًا على الإلحاد هو أنه لا يوجد دليل على وجود الله أو موجودات روحية. هذا النهج متبعٌ بقوة في الفلسفة المادية Materialism (انظر ص ٥٦)، وقد زاد التأكيد عليه مع العلم الذي دلل على أنه ليس من الضروري وجود خالق أو إله للكون لتفسير الكون الخاضع للملاحظة. وقد أكد العديد من الفلاسفة المعاصرين (مثل فلاسفة المنطق الإيجابي؛ انظر ص ٧٢) أن مفهوم الله تزعزع وأصبح عديم المعنى. وعلى نحوٍ ذائع الصيت، أطلق الفيلسوف الألماني فردريش نيتشه Friedrich Nietzsche عبارته الشهيرة: «إن الله قد مات».

إن الإلحاد ليس مثل اللا أدرية Agnosticism والتي تُشدِّد على أنه لا يوجد أدلة كافية لمعرفة وجود الله من عدمه. إن سؤال وجود الله بالنسبة لأتباع فلسفة اللا أدرية هو ببساطة سؤال لا إجابة له. يقول أصحاب الفلسفة الإيمانية الصارمة Strict Fideists (انظر ص ١١٤، ١١٥): لا يوجد علاقة بين المنطق والإيمان، وإن تفسير وجود الله غير معقول.



الخطيئة Sin

على مر التاريخ، وفي العديد من المجتمعات، لم يتم التعامل مع التخلي عن الأخلاقيات وعدم احترام قوانين المجتمع وانتهاك المحرمات على أنها آثام فحسب، وإنما على أنها أيضًا تجسيد لشر الروح.

في اليهودية والمسيحية والإسلام، يوصف الإثم الأخلاقي (انظر ص ٨٥) بالخطيئة، وينظر إليه بوصفه تجاوزًا متعمدًا لإرادة الله. بالنسبة لبداية الخلق، فإن آدم وحواء قد عصيا الله وفقدا براءتهما الأولى. منذ ذلك الحين، ولد الإنسان من هذه الخطيئة الأولى؛ بعبارةٍ أخرى، طبيعة الإنسان هي الشر. وما يُطلق عليه الخطايا السبع المميتة؛ الرغبة والشراهة والجشع والكسل والغضب والحسد والغرور، وهي أمثلة لهذا الشر الروحي الموروث، الذي يُنظر إليه كأصل للخطايا الحالية.

تتضمن الخطيئة الحالية أفعالًا شريرة يمكن ارتكابها عبر الكلام أو الأفعال. وتعتمد النجاة (على الأقل في جزءٍ منها) على تجنب الأفعال الشريرة عن طريق الطاعة لأحكام الله الـمُوحى بها (مثل وصايا الله العشر لموسى). كما أن هناك خطايا السهو أو النسيان غير المتعمدة (انظر الأفعال والإغفال ص ٩٦).

في العقيدة المسيحية، هناك تمييز بين الخطايا الأخلاقية والخطايا التي يمكن غفرانها. تتمثل الخطايا الأخلاقية في الابتعاد الـمُتعمد عن الله وهي خطايا كبرى يمكن أن تؤدي إلى الفقدان التام لرحمة الله، ويحكم على المخطئ بالجحيم إن لم يُغفر له.

في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تتمثل الخطايا الأخلاقية في الإلحاد والقتل والزنا والإجهاض ومنع الحمل وشهادة الزور. أما الخطايا التي يمكن غفرانها فهي أقل جرمًا؛ إذ تُرتكب عن غير عمد وتؤدي إلى فقدان جزئي لرحمة الله، ولكنها أقرب للغفران.

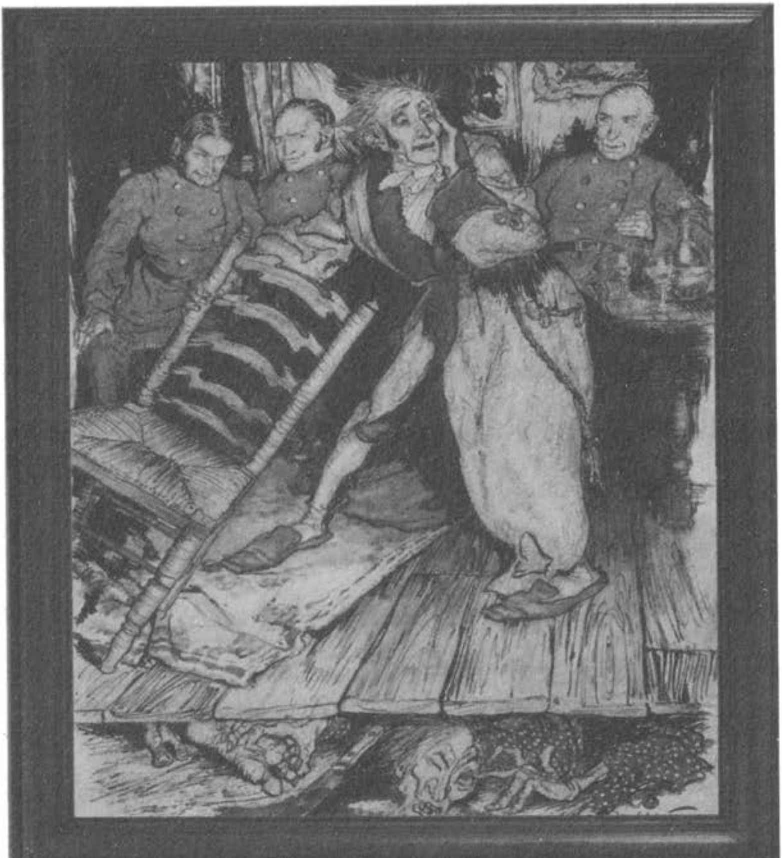
وهناك أيضًا الكبائر، والتي تتمثل في ارتكاب المرء الخطيئة وهو يعلم أنها إثم وجرم؛ وهناك الخطايا المادية والتي يرتكب فيها المرء الخطيئة وهو لا يعلم أنها إثم، وبالتالي فهو ليس مسؤولًا تمامًا عن هذه الخطية.

الضمير Conscience

الضمير هو الصوت الداخلي الذي يقول لنا ما الصحيح وما الخطأ. يتصل هذا الصوت إلى حدٍّ كبير بالله أو المنطق أو بعض القدرات العقلية الإنسانية الخاصة «حس أخلاقي». وفي القرن الثامن عشر، وصف عالم اللاهوت الإنجليزي جوزيف بوتلر Joseph Butler (١٦٩٢-١٧٥٢) هذا الصوت بأنه «عاطفة القلب التي تفهم وتدرك». في الهندوسية، يتم تعريف الضمير بأنه «الله غير المرئي الذي يسكن جوانحنا»، أما بالنسبة للكواكرز Quakers فالضمير هو بالأحرى «النور الداخلي لله».

من منظور غير ديني، يمكن النظر إلى الضمير الشخصي كنتاج للتأثيرات الاجتماعية والثقافية. ومعظم المجتمعات لديها نظم أخلاقية تُطبَع في عقل الأفراد منذ أعوامهم الأولى. يصف أصحاب مدرسة فرويد Freudians الضمير «بالأنا العليا» Superego، وهي عبارة عن مجموعة من الأوامر والنواهي التى تُشكَّل منذ الطفولة عن

طريق الاستحسان والاستهجان من قبل الأبوين (انظر ص ٢٨٩). ولدى أصحاب المدرسة السلوكية Behaviourists مفهوم مشابه، فهم يصفون الضمير في نطاق ردود الفعل التي يتعلمها الفرد ويحفزها المجتمع بالمكافأة والعقاب.



قصة قصيرة لإدجار آلان بو بعنوان «القلب المليء بالقصص» عن قاتل يصيبه الجنون من وجع ضميره إذ تطارده نبضات قلب الضحية.

الروح The soul

إن الفكرة التي تقول إن كل إنسان له روح -أي ماهية غير مادية روحية- هي فكرة مشتركة بين العديد من الثقافات والأديان، ويمكن الرجوع بها إلى البدايات الأولى من التاريخ.

ففي مصر والصين القديمة، للروح جانبان؛ جانب يموت مع الجسد وجانب آخر خالد. أما في اليونان القديمة، فقد تصور أرسطو الروح بوصفها غير منفصلة عن الجسد (سواء كانت في الإنسان أو الحيوان أو النبات). فالروح في الواقع هي الطريقة التي يسلكها الجسد أو الجانب الحيوي فيه. أما في الثقافات الإحيائية Animistic Cultures (Animism)؛ فإن كل ما هو حي له روح مثله في ذلك مثل الجماد كالصخور والأنهار.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت لفكرة الروح لدى الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون التأثير الأكبر. فهو يرى أن الروح غير مادية، وأنها تتحد مع الجسد فقط خلال حياته.

وقد تبنت المسيحية الفكرة التي تفصل بين الجسد والروح، فالله خلق الروح ونفثها في الجسد في بداية الخلق. وهي تحيا بعد موت الجسد، وستحاسب يوم القيامة، وبحسب الحسنات والسيئات سيُحكَم عليها بالخلود في الجنة أو النار (انظر ص ١٢٣). ومثل هذه المعتقدات نجدها أيضًا في الإسلام.

في الهندوسية والبوذية، تدخل الروح في حلقة لا نهائية من تناسخ الأرواح (انظر ص ١٢٢). وطبيعة كل تناسخ جديد تعتمد على الكرما Karma، أي بحسب أعمال الروح السابقة.

نجد تقسيم الجسد والروح في المسيحية في القلب من ثنائية العقل والجسد لدى رينيه ديكارت René Descartes. ففي القرن السابع عشر، أكد ديكارت أن العقل والجسد هما مادتان مختلفتان، وعلى الرغم من ذلك يتفاعلان بشكلٍ ما (انظر ص ٤١).

في الفلسفة المعاصرة، اختلط الجدل حول طبيعة الروح بالجدل حول طبيعة العقل والهوية والإدراك (انظر ص ٣٧: ٤١).

علم اللاهوت الفلسفي Theodicy

إذا كان الله عليمًا ورحيمًا وقادرًا على كل شيء، فكيف يسمح بوجود الشر في العالم؟ ما الغاية الإلهية وراء وجود الشر الطبيعي كالأمراض والزلازل والفيضان، أو حتى الشر الأخلاقي مثل القتل والحرب والفقر؟

هذه الأسئلة المتصلة بعلم اللاهوت المسيحي Christian Theology يدرسها أيضًا علم اللاهوت الفلسفي Theodicy، وهو ما يتضح في كلمات الشاعر الإنجليزي جون ميلتون John Milton في بداية ملحمته الشِّعرية الفردوس المفقود Paradise Lost (١٦٦٧): «إنه يبين للإنسان سبل الوصول إلى الله». تتضمن معظم التفسيرات فكرة الإرادة الحرة: منح الله الإنسان حرية الاختيار، فإذا ما اختار الشر الأخلاقي فعليه تحمل مسؤوليته. هذا ما حدث لآدم وحواء في الخطيئة الأصلية التي هي أصل كل شر -طبيعيًّا كان أو أخلاقيًّا- وهذا الشر الطبيعي هو عقاب للخطيئة. وهناك تفسير آخر يرى أن وجود الخير والشر يساعد على نضج الإنسان ومناهزة الكمال، فقد شكل الله الإنسان على هذا النحو لمقاربة هذه الغاية.

تناسخ الأرواح Reincarnation

تناسخ الأرواح هو عبارة عن العملية التي بموجبها تنتقل الروح بعد موت الجسد إلى جسد آخر، أحيانًا تنتقل إلى جسد إنسان آخر، وأحيانًا إلى جسد حيوان أو حتى نبات. وهذه العملية معروفة أيضًا باسم التقمص Metempsychosis أو ارتحال Transmigration الأرواح. ومثل هذه الفكرة تتناقض مع تصور أديان التوحيد للروح ومصيرها بعد الموت.

نجد مفهوم تناسخ الأرواح في الفلسفة اليونانية القديمة، وفي العديد من الديانات القديمة في الشرق الأوسط، وفي بعض الحركات الإحيائية الحديثة مثل التصوف. ولكن هذا المفهوم هو أقرب إلى الديانات التي نبعت من شبه القارة الهندية -الهندوسية Hinduism واليانية Jainism والسيخية Sikhism والبوذية Buddhism- التي يُشير فيها المصطلح سامسارا samsara إلى تواصل دائرة الولادة والموت والولادة من جديد.

في هذه الديانات، الجسد الذي تتناسخ فيه روح الفرد يعتمد على الكرما karma - وهي كلمة معناها الحرفي هو «عمل»، وتشير الفكرة هنا إلى أن الفرد يعاني من تبعيات أعماله. وأنه إذا غضبت دارما dharma - وهي «القانون، الطريقة، الواجب أو الطبيعة»- من أعمال الفرد فسوف يُعاقب بكرما karma سيئة.

في الهندوسية، لا يمكن للدائرة اللا نهائية للسامسارا samsara أن تُكسر، إلَّا إذا وصل الفرد إلى معرفة الذات الكاملة، بما فيها إدراكه أن

الروح الخالدة أو جوهر الفرد أو الحقيقة المطلقة هي كلها وحدة واحدة مُتطابقة. وهذا ما يؤدي به إلى موكشا moksha، أي إلى التحرر من الدائرة.

في البوذية، لا يوجد شيءٌ مثل «الروح» الخالدة في الواقع، لا يوجد شيءٌ خالد. وإنما فقط من خلال التأمل والابتهال Meditation، يستطيع الفرد أن ينقذ ذاته من الزوال وأن يدرك أن الرغبة هي سبب كل الآلام، ومن ثم يحقق الفرد بذلك النرفانا (السعادة القصوى) nirvana أو النور، وبالتالي يستطيع الهروب من دائرة الولادة الجديدة.

تساءل الفلاسفة البوذيون عن المفهوم الهندوسي لتناسخ الأرواح، فبأي معنى يكون الشخص الميت والشخص المستقبل للروح المتناسخة شيئًا واحدًا، إذا كان الشخص المستقبل للروح المتناسخة ليس لديه أي ذاكرة عن الحياة الأولى للروح؟

الجنة والجحيم Heaven and Hell

نجد مفاهيم الجنة والجحيم -بوصفها أماكن للنعيم أو العقاب الخالد-في العديد من الأديان. يمكن أن تكون الجنة مكانًا يستمتع فيه الفاضل أو البطل بالعديد من الملذات، أو يبتهج بالأحرى بمحبة الله. وبالمثل، يكون الجحيم مكانًا للعذاب الأليم، أو بالأحرى مكانًا للشعور بالرعب واليأس من غياب الله وحب الله للإنسان.

تعكس فكرة الجنة والجحيم حاجة الإنسان الشديدة للاعتقاد في نظام إلهي للعدالة، لا سيما أن هذه العدالة تبدو شحيحة على وجه الأرض. يمكن للأشرار أن يزدهروا في حياتهم الدنيا، ولكنهم سيعاقبون في الآخرة. وبالمثل، يمكن للأخيار الذين يتسمون بالرضى والحلم أن يعانوا

في الأرض، ولكنهم «سيُثابون في السماء بعد الموت». يذهب البعض إلى أن كل ذلك ليس إلا ستارًا يهدف إلى الحفاظ على النظام المجتمعي ويمنع الناس من السعي إلى العدالة في الحياة الدنيا.

الصلاة والتأمل والابتهال Prayer and Meditation

الصلاة هي محاولة التواصل مع الله أو الآلهة أو أي قوة فوق طبيعية أخرى. وعلى هذا النحو، نجد الصلاة بصورة أو أخرى في معظم الأديان، ويمكن إقامتها بشكل فردي أو جماعي. بعض الصلوات موصوفة بالتفصيل، وبالتالي فهي شعائرية بدرجة كبيرة، في حين أن صلوات أخرى تكون شخصية بشكل أكبر. ويحاول البعض إقامة صلة بين الإنسان والإلهي، كما يحاول آخرون مناجاة الله بداخلهم.

يمكن استخدام عددٍ من التقنيات والوسائل في الصلاة. فمثلًا، تُستخدم المسابح في العديد من الأديان، وهي تساعد على الذكر في سلسلة من الصلوات المفروضة. وأحيانًا تُستخدم الصور كمُكثِّف للتقديس الديني أو كمساعد على التركيز في الصلاة. في الكنائس الرومانية الكاثوليكية أو الشرقية الأرثوذكسية، هناك صور للمسيح والعديد من القديسين تساعد على الابتهال. في حين نجد في بعض المعابد البوذية تصميمات هندسية معروفة باسم المندالا Mandalas لها نفس الوظيفة. بينما استخدام الصور في العبادة يُعتبر أمرًا وثنيًّا بالنسبة للدين الإسلامي والكنائس البروتستانتية.

للصلاة وظائف عديدة، منها تقديس الله وتمجيد قوته وصفاته

الأخرى. ومنها الدعاء طلبًا لأشياء معينة، مثل طلب الخير روحيًّا كان أو ماديًّا، للنفس أو للآخرين. كما أن الصلاة تعبير مؤكد عن الشكر والرضى والعرفان لبركة الله في حياة الفرد، والتي تتمثل في القوت والصحة الجيدة. كما أنها تُشكل نوعًا من الحصانة التي تحمي الفرد من انحراف عن مسار الصلاح.

يسعى نوع خاص جدًّا من الصلاة إلى الاتحاد مع الإلهي. يتضمن هذا النوع من الصلاة المعروف باسم التأمل والابتهال Meditation آليات معنوية مثل التركيز والتأمل والتجرد. في التقاليد الصوفية المسيحية، يوصف الاتحاد الصوفي بالله بأنه انجذاب ونشوة عظيمة. هناك تقليد مماثل لذلك في الإسلام معروفٌ في باب التصوف.

في الهندوسية والبوذية، تصبح رياضة اليوجا آلية من آليات التأمل. وهي تهدف إلى تحرير النفس من الالتصاق الدنيوي بالفاني، وبالتالي المعاناة والوصول إلى النور والتحرر من سلسلة الحياة والموت والولادة الجديدة.

الجبر Predestination

الجبر هو الاعتقاد أن الله لكونه قادرًا على كل شيء وعليمًا، فإنه قد قَدَّرَ كل شيء يحدث للكون وللإنسان بشكلٍ مسبق. وهذه العقيدة مهمة في اللاهوت المسيحي، فهي تبيِّن أن كل شخص قد قُدِّرَ له أن ينجو من الجحيم أو أن يكون ملعونًا. وقد ظهرت هذه الفكرة في

الإنجيل في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (٨: ٢٩-٣٠): «لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ. وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا».

وتتضح عقيدة الجبر هذه بشكل خاص لدى الطائفة البروتستانتية، والتي أسس تعاليمها عالم اللاهوت والـمُصلح الفرنسي جون كالفين John Calvin (١٥٠٩-١٥٦٤)؛ إذ يرى كالفين أنه منذ البدايات الأولى، حدد الله مَن سيُكتب له النجاة بسبب إيمانه أو حبه أو مسلكه في الحياة. وهذه الفكرة لا تنسجم بسهولة مع فكرة الإرادة الحرة (انظر ص ٤٧).



الفصل الثّالث

العلم

العلم Science

العلم هو مجال من النشاط الفكري الإنساني يسعى إلى تقديم إجابات منهجية لما يحدث في العالم الفيزيقي. يجب على النظرية العلمية أن تكون شاملة، وألَّا يكون لها استثناءات. فمثلًا، لا يمكن أن نقبل قانون الجاذبية لنيوتن إذ لم -حاليًا ودائمًا- تنحدر الصخور من أعلى الجبال لمئات الأمتار. القدرة النظرية العلمية على التوقع مهمة أيضًا؛ فينبغي أن تكون النظرية قابلة للاختبار. فمثلًا، تصميم جناح الطائرة يشدد على أنه عند وصول الطائرة إلى سرعة محددة ستقلع الطائرة من على سطح الأرض، وهو ما يحدث في كل حالة نلاحظها في هذا الصدد.

إن أكثر النظريات منطقيةً هي النظريات التي تستخدم الرياضيات. فيمكننا من خلال الحسابات الرياضية لقوانين الحركة والجاذبية -بحسب نيوتن- تكوين استدلالات استنباطية (مثل الاستدلال من العام إلى الخاص) حول عددٍ كبير من الظواهر، من حركة البندول إلى توقيت كسوف الشمس. في المقابل، نادرًا ما يصمد الاستدلال الاستنباطي غير القائم على الرياضيات. لا تُستخدم جميع النظريات العلمية المفاهيم الرياضية، فمثلًا نظرية التطور وفق الانتقاء الطبيعي لداروين لديها قدرة تفسيرية عظيمة دون استخدامها للرياضيات.

تُبنى الكثير من العلوم الفيزيقية على الاستقراء، وهي العملية المعاكسة للاستدلال. الاستقراء هو العملية التي بموجبها تنبثق النظريات العامة من خلال دلائل علمية خاصة على شكل ملاحظات وتجارب وقياسات. في

الواقع، تنبثق النظريات العلمية بشكل كبير من قدرتها الابتكارية الخيالية، ثم يُستخدم الاستقراء بتتبع الدلائل العلمية لتأكيد النظرية أو نقدها.

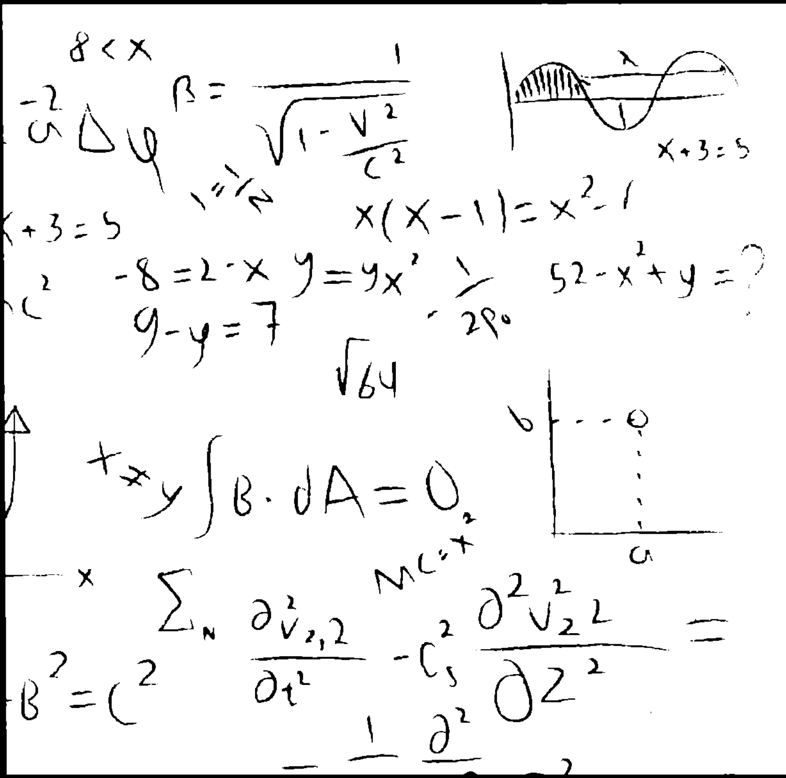
في القرن الثامن عشر، أشار الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم -عن حق- إلى أنه لا توجد أرضية منطقية لقبول الاستدلالات الاستنباطية؛ إذ لا يهم عدد المرات التي نلاحظ فيها أن الطائرة تقلع؛ لأنه لا يوجد سبب منطقي يجعل الطائرات تقلع مرة أخرى. ولكن سرعان ما اعترف هيوم أن رأيه هذا ليس عمليًّا؛ لأننا نقبل بشكل عملي النظريات إذا ما كانت مُدعمة بدلائل معرفية كافية.

الرياضيات Mathematics

الرياضيات هي دراسة الأرقام والكميات والأشكال والمساحات وعلاقاتها المتداخلة. تستخدم الرياضة التطبيقية تقنياتٍ تُساعد على فهم الفيزياء والعمليات التكنولوجية (انظر ص ١٣١). أما الرياضيات البحتة فهي مجردة بشكل كامل؛ إذ لا تعتمد على ما يحدث في العالم الفيزيائي أو على أي شيء يتعداها. تعتمد حقيقة النظرية الرياضية على المنطق وعلى دلائل رياضية منهجية صارمة لا على التجربة.

تُقدم النظريات الرياضية -في شكل سلسلة من المسلمات- صيغًا رياضية صحيحة بموجبها يمكن استخلاص كل النظرية الرياضية منها. في بداية القرن العشرين، اعتقد الرياضيون أنه يمكن لعلم الرياضيات أن يكون نظامًا كاملًا ومتسقًا في حد ذاته. ولكن في عام ١٩٣١، حطم عالم المنطق النمساوي كورت جودل Kurt Gödel هذا الأمل حين دلل على أن النظام الرياضي المبني على عددٍ محدود من الصيغ الرياضية سينطوي

دائمًا على بعض الافتراضات الصحيحة، ولكن لا يمكن إثباتها من خلال النظرية الرياضية.



النماذج الإرشادية المُتغيرة Paradigm Shifts

في عام ١٩٦٢، اقترح الفيلسوف والمؤرخ توماس صامويل كون Thomas S. Kuhn في كتابه (بنية الثورات العلمية The Structure of Scientific Revolutions) أن العلم لا يتطور بشكل مستمر في خط طولي، ولكنه يتطور من خلال سلسلة من النماذج الإرشادية الـمُتغيرة.

في فلسفة العلوم، النموذج الإرشادي هو منظور عام للعالم، أو بالأحرى مفهوم لإطار يعمل العلماء في حدوه، والذي يتضمن أي بحث علمي. في إطار نموذج ما، في «العلم الطبيعي» يحل العلماء الألغاز المتواجدة من خلال هذا المنظور للعالم ولا يحاولون اختراقه.

أما تغير هذا النموذج الإرشادي فيكون بمثابة ثورة علمية، يتم فيها استبدال نموذج بآخر. وهذا يؤدي إلى حقبة علمية جديدة، تُفتح فيها آفاق بكر، وتفرض متطلبات جديدة نفسها، كما تُطرح أسئلة علمية جديدة حول المعلومات والافتراضات القديمة. يتم هذا التغير للنموذج الإرشادي القديم عندما تتكاثر الألغاز التي لا يمكن تفسيرها في إطاره، وتتزاحم الدلائل على تناقض معطيات النموذج القديم إلى الدرجة التي تؤدي إلى تحطيمه.

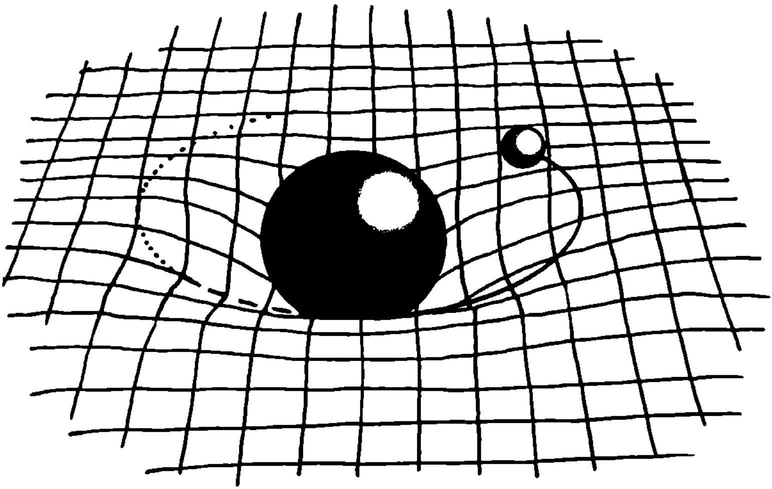
لدينا مثل تقليدي على تغير النموذج الإرشادي، ألا وهو إدراك نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (١٤٧٣-١٥٤٣) أن نموذج مركزية الأرض البطلمي لا يمكن أن يفسر ملاحظات عديدة متراكمة حول الكواكب. فمع فرضية أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، وجد كوبرنيكوس أن فرضيته الجديدة تفسر معلوماته بشكلٍ أفضل. نفت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بشدة نموذج كوبرنيكوس لمركزية الشمس؛ لأنه أزال الأرض -وبالتالي الإنسان- من مركزية الكون. نجد أمثلة أخرى على تغيير النموذج الإرشادي مع الفيزياء الميكانيكية والكمية لنيوتن ومع نظرية النسبية لأينشتاين في بداية القرن العشرين (انظر ص ١٤٦).

وبالنظر إلى تغير النماذج الإرشادية من حقبة إلى أخرى، ومع واقع أن مختلف النماذج الإرشادية غالبًا غير متجانسة، دلل كون Kuhn على أن العلم -بدلًا من كونه مسيرة موضوعية تامة كما كنا نظنه- هو بالأحرى نشاط إنساني في الحقيقة. ومن ثم يتمتع العلم بدرجة ما من الذاتية التي يشكلها المجتمع والثقافة والعوامل التاريخية.

الفضاء Space

يتم تعريف الفضاء بوصفه المساحة الممتدة بين الحدود والتي تنطوي على كل الأشياء. في إطار هذا الفضاء، تصبح مواقع الأشياء نسبية بالنسبة لبعضها بموجب المسافات والاتجاهات. يُقاس الفضاء -وهو أحد الأركان الكمية الأساسية للعلم- بالمتر. وبحسب ميكانيكية نيوتن (انظر ص ١٤٢)، فللفضاء ثلاثة أبعاد، وهو مطلق كما أنه يوجد بشكلٍ مستقل عن المادة التي توجد بداخله. بالنسبة للنظرية النسبية (انظر ص ١٤٦)، يُعتبر الفضاء جزءًا من امتداد المكان- الزمان فحسب، وبذلك يكون الزمان هو البعد الرابع له. وعلاوة على ذلك تحدثنا النظرية النسبية بأن الفضاء- الزمان ليسا مطلقين؛ فلديهما جوانب يمكن أن تنحرف بهما من خلال مجال الجاذبية حول الكتل الضخمة.

وبحسب نظرية الانفجار العظيم Big Bang المتوافق عليها بشكل كبير، فإن الفضاء- الزمان قد تواجد منذ ١٣,٧ مليار سنة ماضية، منذئذٍ، تمدد الفضاء في المكان ولا يزال يتمدد بشكلٍ مستمر. على المستوى المجرد، ندرك أن الفضاء لا نهائي، ولكن ماذا إذا كان الكون نفسه لا نهائيًّا؟ هذا سؤال لا يزال يشغل فكر علماء الفضاء.



الزمان Time

الزمان هو أحد الأركان الكمية الأساسية في علم الفيزياء. يقيس الزمانُ المدةَ بالنسبة للعمليات الزمنية المنظمة مثل دوران الأرض أو انبثاق الأشعة من ذرات السيزيوم Caesium atoms (الذي يُستخدم كأساس للتفسير الحديث للثانية، الوحدة الأساسية للزمن).

نعتقد –وفق تجربتنا الذاتية للزمن– أنه ليس مطلقًا؛ فحين يمر الوقت بطيئًا عندما نشعر بالملل، وسريعًا عندما نكون سعداء. من وجهة نظرنا، الماضي والحاضر والمستقبل تتشابك، نحن ندرك الزمن دائمًا بطريقة تفوق اللحظة «الحالية» متناهية الصغر، فنفكر فيما مضى ونترقب ما سيحدث.

وعلى عكس تجاربنا مع الزمن وتفكيرنا فيه، تشدد الميكانيكا الكلاسيكية لينوتن على أن الزمن يمر بمعدل متنظم. ولكن نظرية أينشتاين

النسبية (انظر ص ١٤٦) تحدثنا بأن الزمن ليس مطلقًا، وبأن بسرعة مقاربة لسرعة الضوء (بالنسبة للمُلاحظ) فالزمن ممتد. يشكل الزمن والفضاء الأبعاد الأربعة المسماة بالمكان- الزمان.

يمكن تعريف الزمان بوصفه الإطار الذي يحدث فيه التغيير. يبدو أيضًا أن للزمن اتجاهًا، على الرغم من أن معظم القوانين الفيزيائية تسمح أن يكون لأي مسار اتجاهان معاكسان، فبعض المسارات لها اتجاه أحادي. فمثلًا في القانون الحركي- الحراري الثاني Second Law of Thermodynamics المُصاغ في القرن التاسع عشر، والذي ينص على أن درجة الفوضى في أي نظام تزداد مع الزمن، فالصخور تتفتت والسيارات تصدأ والكائنات الحية تموت وتتحلل، وكلها عمليات لا رجعة فيها.

بالنسبة لنظرية الانفجار العظيم (انظر ص ١٤٩)، بدأ الكون منذ ١٣,٧ مليار سنة مضت. فإذا ما وُجِدَ الزمن قبل ذلك، فكل ما حدث قبل الإطار الزمني لبداية الكون ليس له تأثير على الإطار الزمني الحالي.

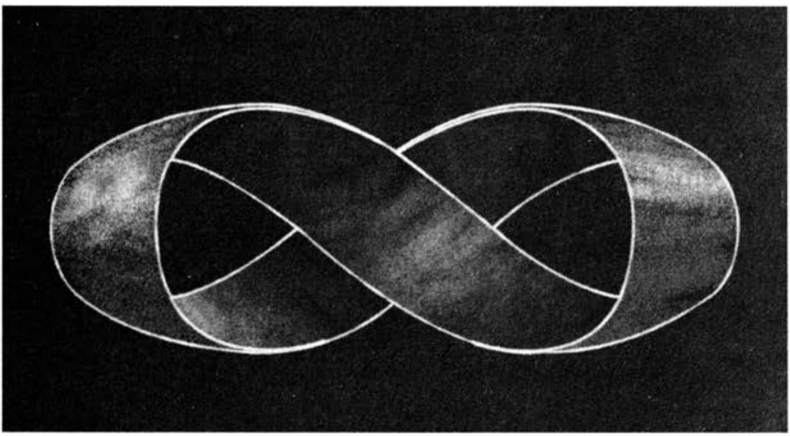
هل سيستمر الزمن للأبد؟ يقترح القانون الحركي- الحراري الثاني أن كل حركة، وبالتالي كل تغيير، وبالتالي الزمن نفسه، سينتهي حتمًا. ولكن يقترح بعض علماء الفضاء أن الكون الذي نحيا فيه هو كون واحد من عددٍ ضخم ممَّا يُسمَّى «بالأكوان Multiverse».

اللا نهائي Infinity

اللا نهائي هو أي كمية لا نهاية لها أو حد، سواء كانت هذه الكمية متناهية الصغر أو الكبر. وهو واحد من المفاهيم التي يصعب على العقل الإنساني فهمها، وبالأخص في علاقته مع الزمان والمكان. ومن شبه

المستحيل أن نتخيل مقصود «إلى الأبد»؛ لأن فكرة حدود للمكان أو نهاية للزمان هي بالأحرى فكرة متأرجحة: فنحن نتساءل دائمًا عمَّا بعد الحد أو ماذا يحدث في نهاية الزمن. ولم يفلح الفيزيائيون أو علماء الفلك بعد في الوصول إلى إجابة حاسمة في هذا الصدد.

في الرياضيات، مفهوم الكميات المتناهية الصغر -وهي كميات صغيرة جدًّا، ولكن أكبر من صفر- هو مفهوم أساسي لتطور الحساب في أواخر القرن السابع عشر. بعدها بقرنين من الزمان، أظهر عالم الرياضيات الألماني جورج كانتور Georg Cantor (١٨٤٥-١٩١٨) أن مجموع الأرقام الطبيعية أكبر من مجموع الأرقام الزوجية الطبيعية. وبالتالي فهناك أنواع مختلفة من الكميات المتناهية الصغر والتي يكون بعضها أكبر من بعض.



المادة Matter

المادة هي أي مادة -صلبة أو سائلة أو غازية- تحتل مساحة من المكان ولديها كتلة. وعلى الرغم من أن اليونانيين القدماء قد قدموا نظريتهم الذرية للمادة (انظر ص ٥٦)، إلا أن النظرية الذرية الحديثة ظهرت في بداية القرن التاسع عشر، عندما اقترح الكيميائي الإنجليزي جون دالتون John Dalton(١٧٦٦-١٨٤٤) أن المواد المتماثلة والمتجانسة مُكونة من جزيئيات متطابقة تُسمَّى الذرة، وهي مستقلة وتظل غير متغيرة في التفاعلات الكيميائية بشكلٍ أساسي.

لم يميز دالتون بين الذرة والجزيء. الذرات هي الوحدة الأساسية للعناصر (هيدروجين، أوكسجين، الحديد، الذهب، اليورانيوم... إلخ)، وتختلف في مقياس الكتلة والخصائص الكيميائية على حسب كل عنصر. الجزيء (مكون من عددٍ من الذرات، غالبًا من عناصر مختلفة) هو الوحدة الأساسية للمُركبات. فمثلًا جزيء الماء مُكون من ذرة أوكسجين وذرتين هيدروجين.

في نهاية القرن التاسع عشر، اكتشف الفيزيائي الإنجليزي جوزيف جون طومسون J. J. Thomson (١٨٥٦-١٩٤٠) الإلكترون. وهو مُكون صغير جدًّا سالب كهرومغناطيسيًّا في الذرة. ومثل هذا الاكتشاف قد بيَّن أن الذرات قابلة للقسمة، ومن ثم فتح الباب لدراسات معمقة في تكوين الذرة. ومنها جاء النموذج الذي يوضح تكوين الذرة من فضاء فسيح به نواة صغيرة يدور حولها «غيوم Cloud» من الإلكترونات السالبة. تُمثل النواة معظم كتلة الذرة، وتتكون النواة من بروتونات Protons ذات

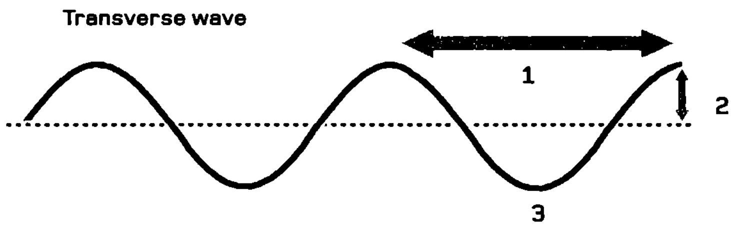
شحنة كهرومغناطيسية موجبة ونيوترونات Neutrons من دون شحنة كهرومغناطيسية. وقد نجحت أبحاثٌ أخرى في المكونات الرئيسة للذرة في الوصول إلى «نموذج معياري» للذرة وجزيئاتها في الفيزياء (انظر ص١٤٧).

وقد اكتشفنا أن معرفتنا وافتراضاتنا حول طبيعة المادة ضعيفة، وذلك بمقتضى ظهور النظرية الكمية (انظر ص ١٤٥)، وغيرها من النظريات الأخرى، والتي اكتشفت أن الإلكترونات وجزيئيات أخرى تسلك سلوك الموجات. هكذا بددت هذه النظريات افتراض أن المادة لا يمكن تدميرها أو خلقها وفق معادلة أينشتاين الفيزيائية الرياضية $E = mc^2$ (انظر ص ١٤٧). فقد أظهرت هذه النظرية أن المادة تتحول إلى طاقة والعكس صحيح، كما أثبت ذلك تجارب الانقسام والانصهار النووي، والتي قامت على أساسها القنبلة النووية والقوى النووية.

نظرية الموجات Wave Theory

على الرغم من أننا نفهم على نحو عفوي أن الموجات هي موجات المياه، إلا أن العديد من الظواهر الفيزيائية -من الصوت إلى الضوء وحتى أشعة إكس- مُكوّنة في الحقيقة من موجات. الموجة إذنْ هي أي تغير متكرر أو تأرجح أو تذبذب Oscillation ينطلق في وسطٍ أو مكانٍ ما. ومعظم الموجات تنقل طاقة من مكان إلى آخر، مثل الموجات الصوتية التي تنقل الطاقة الميكانيكية والضوء الذي ينقل الطاقة الكهرومغناطيسية (انظر ص ١٤٣). في الموجات العرضية، التذبذبات متواجدة بزاوية

مستقيمة على اتجاه تَنقُّل الموجة. أما في الموجات الطولية، فالتذبذب موازٍ لاتجاه تَنقُّل الموجة.



كل الموجات لها ثلاث خصائص مشتركة: المدى Amplitude، طول الموجة Wavelength، والتردد Frequency. يمكن للموجة أن تنعكس Reflected (ترتد من السطح) أو تنكسر Refracted (تميل من خلال مرورها بوسطٍ ما) أو تحيد Diffracted (تنتشر بعد مرورها من خلال فجوة صغيرة). كما يمكنها أيضًا أن تتداخل مع بعضها. وأيًّا كان نوع الموجة، فكل هذه الخصائص يمكن أن توصف بمعدلات رياضية مُتماثلة.

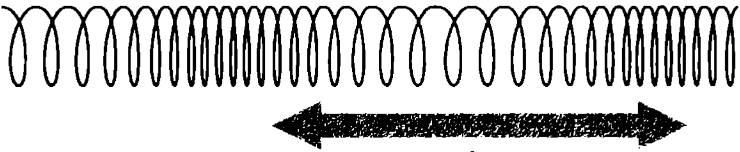
١ - **طول الموجة:** هو المسافة بين قمتين متتاليتين أو بين قاعدتين متتاليتين.

٢ - **المدى:** هو ارتفاع الموجة وقوة انتشارها.

٣ - **التردد:** هو عدد القمم أو القواعد التي تمر خلال نقطة ثابتة في الثانية.

٤ - **الصورة:** موجة عرضية؛ موجة طولية.

Longitudinal wave



1

ميكانيكية نيوتن Newtonian mechanics

الميكانيكا فرع من الفيزياء، يصف حركة الأشياء، سواء كانت الأشياء بمقياس الكواكب والنجوم أو بمقياس جزيئيات الذرة. معظم أنواع الحركة -من مدار الكواكب إلى مسار تسديدة صاروخية- يمكن وصفها بثلاثة قوانين للحركة وقانون الجذب العام Gravitation Law الذي صاغه عالم الفيزياء والرياضيات الإنجليزي العظيم السير إسحاق نيوتن Sir Isaac Newton (١٦٤٢-١٧٢٧).

نجد مفهوم القوة في قوانين نيوتن. والقوة هي أي شيء يُحدِث تغييرًا في معدل حركة الجسد. ويمكن لهذا المعدل من التغيير أن ينطوي على تسارع أو تباطؤ في نفس الاتجاه أو تغيير في اتجاه الحركة.

يبين قانون نيوتن الأول للحركة أن الجسد سيبقى في وضع ثابت أو في وضع حركة بمسار مستقيم وبسرعة ثابتة ما لم تؤثر عليه قوة خارجية. إن ميل الجسد للبقاء في حركة سكون أو حركة بسرعة ثابتة ينم عن قصوره الذاتي Inertia، ويعتمد القصور الذاتي على كتلة الجسد.

يوضح قانون نيوتن الثاني للحركة أن القوة التي تؤثر على الجسد هي قوة معادلة للتغيير الناتج في هذه اللحظة (نتاج كتلته وسرعته). وينص

القانون الثالث على أن قوة الحركة هي قوة معادلة ومعاكسة لقوة رد الفعل في حالة توازن القوى.

ويؤكد قانون الجذب العام لنيوتن أن كل كتلة في الكون تؤثر بقوة على كل الكتل الأخرى، وأن هذه القوة متناسبة طرديًّا Directly Proportional مع نتاج كتلتها، ومتناسبة عكسيًّا Inversely Proportional مع مربع المسافة التي تفصلهما. الجاذبية نفسها واحدة من القوى الأساسية للطبيعة، والجاذبية نفسها مفهومة فقط بشكل جزئي.

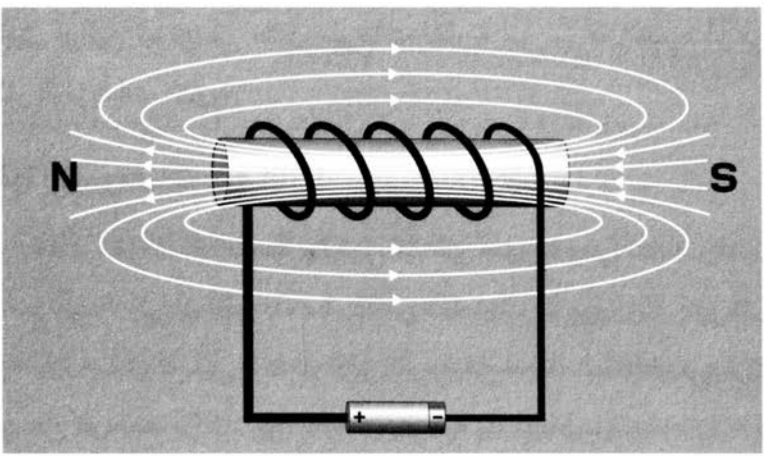
أثبتت قوانين نيوتن نجاحًا عظيمًا في توقع القوى وتطبيقتها العملية، إلا أن النظرية النسبية (انظر ص ١٤٦) والنظرية الكمية Quantum Theory (انظر ص ١٤٥) على التوالي قد أثبتتا أنه لا يمكن تطبيق قوانين نيوتن في نطاق سرعات مقاربة من سرعة الضوء أو في إطار الجزيئيات الذرية.

القوة الكهرومغناطيسية Electromagnetism

ظلت القوة المغناطيسية والكهربائية غير مفهومة حتى بدايات القرن التاسع عشر، إلى أن أظهرت سلسلة من التجارب أن مرور تيار كهربائي من خلال سلك نحاس يجذب الإبر القريبة من مجاله المغناطيسي. وقد بات من الواضح أن كلًّا من القوة الكهربائية والمغناطيسية تتفاعلان معًا في المدى. وفي عام ١٨٣١، أظهر الفيزيائي الإنجليزي مايكل فاراداي Michael Faraday (١٧٩١-١٨٦٧) أن التيار الكهربائي في السلك الكهربائي يؤدي إلى تغيير في المجال المغناطيسي. وكان هذا الأساسَ

العلميَّ للمولد الكهربائي، أما العملية العكسية فهي الأساس للموتور الكهربائي.

في أواخر القرن التاسع عشر، اقترح الفيلسوف الإسكتلندي جيمس كلارك ماكسول James Clerk Maxwell (١٨٣١-١٨٧٩) أن القوة الكهربائية والمغناطيسية هي ظاهرة لقوة واحدة كهرومغناطيسية، وأن التذبذب الكهربائي يولد الموجات الكهرومغناطيسية. وقد أكدت الدراسات اللاحقة نظريتَهُ، كما اكتُشف أن كل الظواهر الخاصة بموجات الراديو مرورًا بالضوء المرئي وحتى أشعة إكس هي ظواهر ذات طبيعة كهرومغناطيسية.



يتكون المغناطيس الكهربائي من سلك مُوصل للكهرباء حول إطار حديدي. عندما يسير التيار الكهربائي في هذا السلك، يتكون مجال كهرومغناطيسي حول الإطار الحديدي.

النظرية الكمية Quantum Theory

في نهايات القرن التاسع عشر، ومع ملاحظة العديد من الظواهر المتعلقة بالأشعة الكهرومغناطيسية، أُثيرت تساؤلات كثيرة كانت الفيزياء الكلاسيكية غير قادرة على الإجابة عليها. وفي عام ١٩٠٠، اقترح الفيزيائي الألماني ماكس بلانك Max Planck أن الأشعة الكهرومغناطيسية -متضمنة الضوء- لا تُبعَث على شكل موجة متواصلة، ولكن على شكل حزم مستقلة من الطاقة تُسمَّى بالكوانتا Quanta. ربط بلانك بين الطاقة (E) وكل كمية من تردد الموجة (f) في معادلته E = hf، والتي فيها h هو ثابت بلانك.

واحدة من أكثر الظواهر إلغازًا هي التأثير الضوئي الكهربائي، والذي فيه تنبثق الإلكترونات من الضوء أو أي شكل آخر من الأشعة الكهرومغناطيسية التي تضرب بعض المعادن. وفي عام ١٩٠٥، اقترح ألبرت أينشتاين أن هذا التأثير الضوئي الكهربائي يمكن أن يُفسَّرَ على هذا النحو فقط إذا كانت النظرية الكمية لبلانك صحيحة. في حالة التأثير الضوئي الكهربائي، لا يسري الضوء بوصفه موجة ولكن بوصفه مجموعة من الجزيئيات (وهي المعروفة الآن بالفوتون Photons). بعد عقدين من الزمان، اقترح الفيزيائي الفرنسي لويس فيكتور دو بروجلي Louis Victor de Broglie (١٨٩٢-١٩٨٧) أن الإلكترونات لها سلوك مماثل: «ثنائية الجزيء والموجة».

في عام ١٩١٣، أثرت نظرية بلانك السابقة الذكر في الفيزيائي الدنماركي نيل بور Niels Bohr، وقد رأى الأخير أن في داخل الذرة

(انظر ص ١٣٩) لا يمكن أن تدور الإلكترونات إلا في مدارات محددة، وأن لكل مدار مستوى طاقة محددًا. عندما يقفز إلكترون إلى مستوى طاقة علوي أو سفلي تنبعث كمية مميزة من الطاقة «كوانتا» Quanta.

في عام ١٩٢٧، صاغ الفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرج Werner Heisenberg مبدأه المشهور «عدم التأكد» «Uncertainty Principal». تفترض ميكانيكيا نيوتن (انظر ص ١٤٢) أن موقع الجسد وتوقيته يمكن أن يُقاسا معًا بدقة كبيرة. ينص مبدأ عدم التأكد على أنه في إطار الذرة وجزيئيات الذرة، من المستحيل قياس هذا الموقع والتوقيت؛ لأن فعل الملاحظة نفسه يغير الناتج.

بدت النظرية الكمية -مثلها مثل مفاهيم أخرى كالسببية- مناقضة للمنطق السليم. ولكنها هذه النظريات قد وجدت تطبيقات لها لا تُعد ولا تُحصى، منها مثلًا فهمنا لأشباه الـمُوصِّلات التي هي الأساس لتكنولوجيا الكمبيوتر الحديثة.

النسبية Relativity

تُؤكد ميكانيكيا نيوتن أن الكتلة والمكان والزمان مطلقة. ظاهريًا، كل التطبيقات العملية تعضد هذه الفرضية بشكل كامل. ولكن نظريتا ألبرت أينشتاين النسبية الخاصة (١٩٠٥) والعامة (١٩١٥) اقترحتا أن في بعض الحالات لا يمكن تطبيق ميكانيكا نيوتن.

توضح النظرية النسبية الخاصة أن ما من شيءٍ يمكن أن يسافر أسرع من سرعة الضوء الثابتة في الفراغ، بغض النظر عن حركة الـمُلاحظ. إذا مر شيءٌ مسرعًا أمام الـمُلاحظ، فسيبدو له هذا الشيء أقصر وأضخم، هذا الشكل من القصر والضخامة يمكن أن نميزه فقط في سرعات تقترب

من سرعة الضوء. وذلك مثل ساعة تعمل بسرعة مطابقة لسرعة الملاحظ، حينها ستبدو الساعة تمر بسرعة أبطأ مقارنة بحالة ما إذا كان الـمُلاحظ في وضع ثبات لا في وضع حركة. تطرح النظرية النسبية العامة فكرة الزمان-المكان (انظر ص ١٣٥)، وتؤكد أن المادة يمكن أن «تحني» كلًّا من المكان والضوء من خلال الجاذبية. أكدت التجارب بعد ذلك نظريات أينشتاين.



المعادلة الرياضية الشهيرة لأينشتاين والتي تظهر أن الطاقة (E) تساوي الكتلة (m) مضروبة في مربع سرعة الضوء (c).

النظرية الفيزيائية الرئيسة ونظرية الأوتار

The Standard Model and String Theory

تم وصف النظرية الرئيسة للجزيئيات الفيزيائية The Standard Model of Particle Physics بـ«نظرية شبه كل شيء». تهتم هذه النظرية بثلاثٍ من القوى الأربع الرئيسة للطبيعة، وتستخدم الميكانيكيا الكمية لوصف السبل التي تؤثر بها هذه القوى على الجزيئيات الذرية.

هذه النظرية مبنية على نماذج مُبَكِّرة للذرة (انظر ص ١٣٩). فمنذ بداية القرن العشرين، اكتشف الفيزيائيون النظريون عددًا متنوعًا من جزيئيات الذرة. وقد فسر هذا الاكتشاف العديد من النتائج التجريبية، إذ تم التأكد

من وجود الكثير من الجزيئيات المـفُترضة. فمثلًا، في عام ١٩٦٤ اقترح الفيزيائي الأمريكي موراي جل مان Murray Gell-Mann أن البروتونات والنترونات Protons and Neutrons المتواجدة في الذرة مُكوَّنة على الأقل من ثلاثة جزيئيات أصغر أُطلق عليها اسم كوارك Quarks. وهو ما تم اكتشافه بالفعل لاحقًا.

إذ تم اكتشاف الكوارك بروائح وألوان مختلفة بوصفها من عناصر الجزيئيات. وهي متلاصقة بقوى نووية ضخمة تنبع من تبادل جزيئيات تُسمى جلوون Gluons. الجلوون هو نوع من مقياس بوزون gauge[١٦] boson، وهو جزء من عناصر الجزيئيات التي تتوسط القوة النووية الأساسية. إن القوة النووية الضعيفة التي تتضمن بعض أنواع المواد الإشعاعية تتوسطها W وZ بوزون، بينما الطاقة الكهرومغناطيسية هي سبب التفاعل بين الجزيئيات ذات الإشارات الكهربائية كالإلكترون والبروتون. تنتمي الإلكترونات إلى القسم الثالث من عناصر الجزيئيات لبتون Leptons. يتضمن اللبتون أيضًا النيوترينو Neutrino[١٧]، التي ليس لديها إشارة كهربائية كما أن حجم كتلتها لا يذكر.

---

(١٦) بوزون Boson: الجسيمات الذرية، مثل الفوتون، حجم كتلتها مقارب لصفر وتكون الجزيئات الذرية. (المترجم).

(١٧) لبتون Lepton & النيوترينو Neutrino: هو جسيم أولي ومكون أساسي للمادة. وأشهر اللبتونات المعروفة هو الإلكترون، والذي يحكم عمليات الكيمياء كلها؛ لأنه موجود في أغلفة الذرات وترتبط به الخصائص الكيميائية كلها. وتوجد فئتان أساسيتان للبتونات: المشحونة منها (وتعرف أيضًا بلبتونات شبيه الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو). ويمكن للبتونات المشحونة أن تندمج مع جسيمات أخرى لتكوين جسيمات مركبة مثل الذرات وذرة الميونيوم الغريبة و بوزيترونيوم ، بينما النيترينو فهو ضعيف التفاعل مع المادة فهو نادر الرصد. (المترجم).

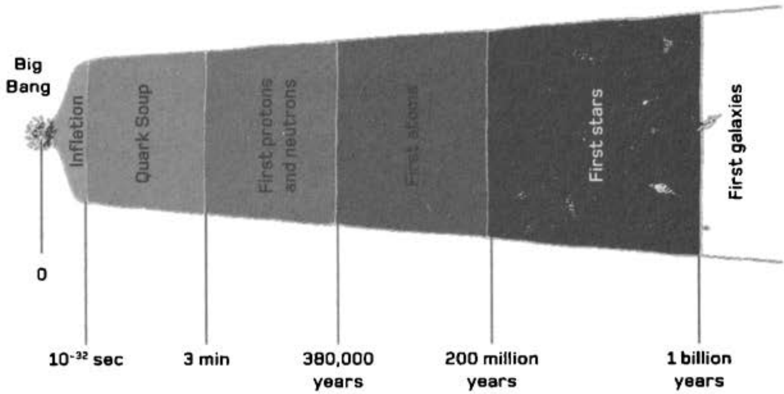
لا يستوعب النموذج الرئيس الفيزيائي القوة الأساسية الرابعة وهي الجاذبية المحكومة بقانون النسبية العامة (انظر ص ١٤٦). إدخال هذه القوة في المعادلة يحتاج إلى وجود مقياس بوزون رابع للجاذبية وإن ظل مقياسًا افتراضيًّا. محاولتنا لدمج الفيزياء الكمية وقانون الجاذبية العامة في نظرية «كل شيء» هي نظرية الأوتار String Theory. والتي تقترح أن الإلكترونات والكوارك تدور في جانب واحد «من الأوتار». ومع ذلك تظل نظرية الأوتار متناقضة؛ لأنها تحتاج إلى أبعاد أخرى غير مرئية، ولأنها ملزمة بتقديم تنبؤات قابلة للاختبار.

الانفجار العظيم The Big Bang

في عام ١٩٢٩، لاحظ عالم الفضاء الأمريكي إدوين هوبل Edwin Hubble أن العديد من المجارات لا تبعد عنا فحسب، وإنما مع ازدياد تباعدها يزداد تقهقرها أيضًا. ومن هنا، ولدت فكرة أن الكون يتمدد وأنه نشأ بالضرورة نتيجةً لانفجار عظيم «بيج بانج» Big Bang، ويجمع العلماء اليوم أن هذا الانفجار العظيم قد حدث منذ ١٣,٧ مليار سنة مضيت.

في البداية، كان الكون صغيرًا و كثيفًا وساخنًا جدًّا، كما أنه كان مُكوَّنًا من أكثر الجزيئيات التكوينية بساطةً. وقد كان الامتداد سريعًا، وفي خلال دقائق اندمجت البروتونات والنترونات مُكونةً نواة الهيدروجين والهيليوم التي بدأت في الالتحام في النجوم، والتي تخلقت منها مواد أخرى لاحقًا. ومنذ ذلك الحين ظل الامتداد الكوني مستمرًّا، ولكن السؤال هو: هل سيتسع الكون إلى الأبد؟ الإجابة غير معلومة. فإذا كان للكون كتلة كافية،

فستعيده قوة الجاذبية إلى «كتلة كبيرة جديدة» (ومن المحتمل بالتالي حدوث بيج بانج جديد). وإن لم يكن هذا هو الحال، فالامتداد سيظل مستمرًّا إلى الأبد، وسيعاني الكون من موتٍ بطيءٍ باردٍ.



الصورة: أول مليار سنة في التاريخ الكوني؛ الانفجار الكبير، التضخم، خليط الكوارك، أول بروتون ونترون، أول ذرة، أول نجمة، أول مجرة.

نظرية الفوضى Chaos Theory

نظرية الفوضى هي مجال من الرياضيات يدرس كيف يمكن لتغيرات صغيرة في الشروط الأساسية لنظام ديناميكي معقد أن تؤدي إلى تغيرات كبيرة في ناتج هذا النظام. تم تطبيق نظرية الفوضى على نظم مجالات متعددة، بما فيها علم الأرصاد الجوية والبيولوجيا والفيزياء. وعلى الرغم من أن نظمًا كتلك هي نظم حتمية Deterministic (انظر ص ٤٣) إلا أنه

من دون تواجد عناصر متغيرة، فسلوك هذه النظم -الذي يبدو فوضويًا- سيكون صعب التوقع.

من الرواد الأوائل لنظرية الفوضى الرياضي وعالم الأرصاد الجوية الأمريكي إدوارد لورانس Edward Lorenz. في عام ١٩٦١، استخدم لورانس نموذجًا حاسوبيًا للتوقعات الجوية. وبدأ بإدخال معلومات متصلة بمتغيرات مترابطة كالحرارة والرطوبة وضغط الهواء وقوة واتجاه الريح. في أول مرة يُستخدم فيها هذا البرنامج كتب رقم ٠,٥٠٦١٢٧، وفي المرة الثانية قرَّب الرقم إلى ٠,٥٠٦، فوجد أن السيناريو الجوي الذي نتج عن الرقم الأول كان مختلفًا عن الثاني. ومن ثم الاختلاف الضئيل ٠,٠٠٠١٢٧ أصدر فارقًا كبيرًا في ناتج الحسابات.

وفي عام ١٩٦٣، لاحظ أحد زملاء لورانس أنه إذا كان الأول على صواب، فإن «ضربة جناح واحدة لنورس ستغير الأحوال الجوية للأبد». وفي عام ١٩٧٢، تساءل لورانس في عنوان مقاله (هل من الممكن لضربة جناح فراشة في البرازيل أن تؤدي إلى إعصار في تكساس؟). ومن هنا جاء الاسم الشعبي لنظرية الفوضى: (تأثير الفراشة). بالطبع لا يمكن أن تؤدي ضربة جناح فراشة بمفردها إلى إحداث إعصار، ولكن هناك عناصر عديدة أخرى مجتمعة معها تُحدث هذا التأثير. فضربة جناح الفراشة يمكن أن تكون القشة التي تقصم ظهر البعير.

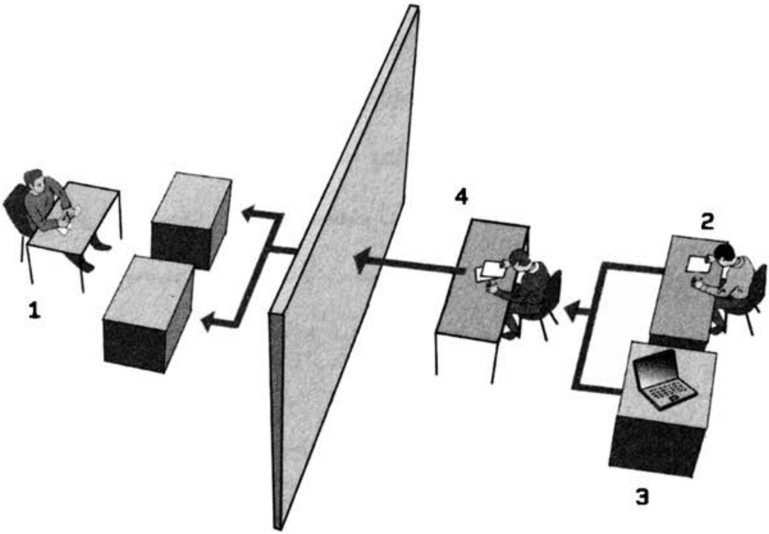
وعلى الرغم مما يدلّ عليها اسمها، فإن نظرية الفوضى هي نظام رياضي صارم يساعد على توضيح النظم الخفية وراء نظم تبدو عشوائية. وذلك بدءًا من العوامل التي تشارك في نوبة الصرع وحتى الاضطرابات الهوائية

التي تؤثر على حركة السيارات، وبدءًا من التقلبات في حياة مجتمعات الحيوانات البرية، وحتى تدفق حركة المرور في المدن المكدسة.

الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence

في عام ١٩٥٠، اقترح عالم الرياضيات الإنجليزي ألان تورنينج Alan Turning عمل اختبار لمعرفة ما إذا كان من الممكن وصف الآلة بالذكية. يجلس شخصٌ ما في غرفة مفردة ليطرح أسئلة على شخصٍ آخر في غرفة أخرى وعلى كمبيوتر في غرفة ثالثة. فإذا لم يستطع هذا الشخص في الغرفة الأولى أن يعرف إذا ما كان مَن يتكلم في الغرف الأخرى شخصًا أم كمبيوترًا، فسينتج عن ذلك نجاح الكمبيوتر فيما يُسمَّى «باختبار تورنينج».

دارت الشكوك حول صحة هذا الاختبار. وفي تجربة فكرية شهيرة، يجلس شخص في غرفة بينما تُطرح عليه أسئلة باللغة الصينية مكتوبة على أوراق عديدة تُدرج إلى الغرفة من تحت الباب. هذا الشخص لا يفهم اللغة الصينية، ولكنه يتبع مجموعة من التعليمات تُطلعه على ما في الورقة التي ينبغي عليه أن يخرجها مرة أخرى من تحت الباب. وبالتالي فإن الأشخاص الواقفين خارج الغرفة لا يستطيعون الحكم هل الشخص الجالس في الغرفة يتكلم الصينية بطلاقة أم لا. الخلاصة هنا هو أن حتى الكمبيوتر يمكن أن يُبرمج بحيث يقدم الإجابات الصحيحة من دون أن يكون واعيًا بمغزاها، ومع ذلك يتم وصفه بالعقل الذكي.



نظرية جرثومية المرض Germ Theory

ظل سبب الأمراض لغزًا قرونًا عدة. ألقى بعضهم اللوم على السموم أو سوء الجو أو غضب الآلهة. ولكن في أربعينيات القرن التاسع عشر، لاحظ طبيب النساء والولادة المجري الجنسية إيجنز سملويس Ignaz Semmelweiss أن المرأة التي على وشك الولادة ويقوم بتولدها الأطباء تكون مُعرضة للإصابة بحمَّى النفاس (وغالبًا ما يكون لها عواقب مميتة) أكثر مما إذا قامت القابلة (الداية) بتوليدها. وقد علَّل سملويس ذلك بعدم غسل الأطباء القادمين مباشرة من التشريح لأيديهم قبل القيام بعملية التوليد، وقد أصر على أنه يجب على الأطباء أن يعقموا أنفسهم قبل معاينة المرضى. وقد

لاقت أفكار سملويس الكثير من العداء، كما تم تجاهلها بشكل عام في هذه الآونة.

في خمسينيات القرن التاسع عشر، وخلال انتشار وباء الكوليرا في لندن، تتبع الفيزيائي جون سنو John Snow انتشار حالات الإصابة بالكوليرا، وأشار إلى أن الوباء ينتشر بكثافة أكبر بين الناس الذين يستخدمون مضخة معينة للحصول على ماء الشرب. أزال سنو يد المضخة، فانحسر عدد الحالات المـُصابة بشكل ملحوظ. وقد ساعدت هذه الصلة -بين الماء النابع من المضخة وانتشار المرض- سنو في الكشف عن كيفية انتشار الوباء. واقترح البعض أن العامل المسبب للوباء يمكن أن يكون عبارة عن جراثيم- جسيمات ميكروبية لا يمكن رؤيتها إلا عبر الميكروسكوب. وقد قام الميكروبيولوجي الفرنسي لويس باستور Louis Pastor (١٨٢٢-١٨٩٥) بالتعرف على الوسائل التي يمكن عن طريقها تجنب الأمراض التي تسببها هذه الجسيمات الميكروبية ومعالجتها. وقد استخدم باستور الغلي لقتل الميكروبات الـمُضرة في اللبن، كما ابتكر الأمصال لعلاج كلٍّ من داء الكلب والجمرة الخبيثة Rabies and Anthrax. لعب الفيزيائي الألماني روبرت كوخ Robert Koch (١٨٤٣-١٩١٠) أيضًا دورًا مهمًّا في هذا الصدد، فقد اكتشف البكتريا التي تسبب أمراضًا مثل الكوليرا والسل. كما أنه وضع معايير يُعرف على أساسها إذا كان سبب المرض ميكروبًا.

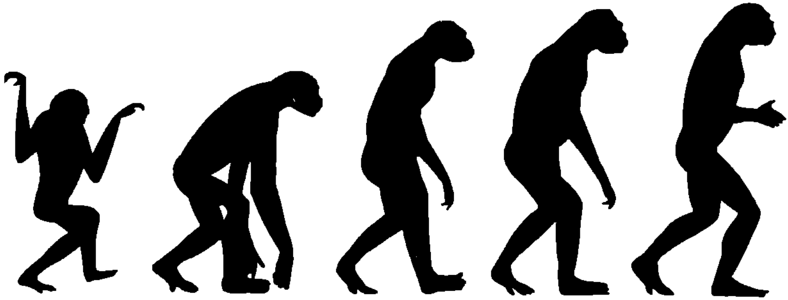
تنصف النظرية الجرثومية الـمُسببة للمرض إصرار سمولیس على النظافة. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر كان الجراح البريطاني جوزيف ليستر Joseph Lister رائدًا في الجراحة الـمُعقمة. ويُعزى التقدم الثاني

العظيم في هذا المجال الطبي إلى اكتشاف البنسلين Penicillin في عام ١٩٢٨ عن طريق عالم الميكروبيولوجي الإسكتلندي إلكسندر فلامينج Alexander Fleming. وكان هذا هو الاكتشاف الأول -ضمن العديد من الاكتشافات للأجسام المضادة والأدوية اللاحقة- التي أثبتت فعاليتها ضد عددٍ كبير من الأمراض التي تسببها البكتريا، مما أنقذ حياة الملايين من البشر.

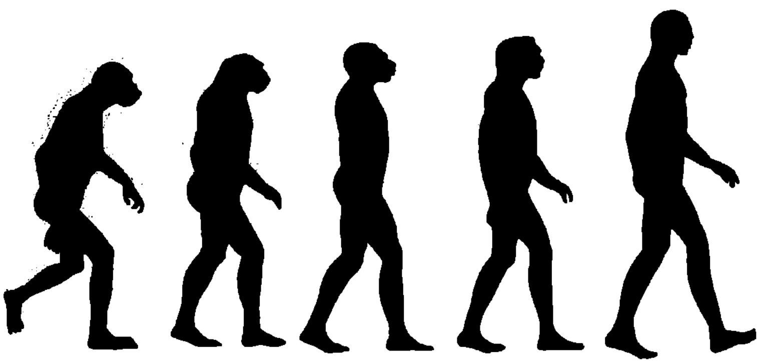
التطور Evolution

إن نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي -التي ابتكرها عالم الطبيعة الإنجليزي تشارلز داروين Charles Darwin والواردة في كتابه أصل الأنواع (١٨٥٩)- واحدة من النظريات الأكثر سلاسة وروعةً بالنسبة للنظريات العلمية. بل إنها قد غيرت طريقة تفكيرنا في أنفسنا (انظر الصفحات ٢٤، ٢٥، ٧١، ١٩٢ و٢٩٣).

أمضى داروين عقودًا طويلة يجمع الدلائل وينظمها قبل نشر نظريته. أظهر الجيولوجيون أن الأرض أكثر قدمًا مما كان مُتصوَّرًا من قبل، وأن الصخور القديمة قد احتفظت بحفريات العديد من الحيوانات التي انقرضت.



وبمقارنة الحفريات معًا وبمناظرة الكائنات الحية المتشابهة، رأى داروين أن هذه المجموعة من الكائنات الحية المتشابهة قد تطورت عبر تغيرات بسيطة لأصولها المشتركة. ورأى في هذا الصدد أن آلية هذا التغيير قائمة على الانتقاء الطبيعي. حاليًا وأبدًا توجد طفرات يمكنها أن تجعل الفرد منسجمًا بشكلٍ أفضل مع محيطه الطبيعي. هؤلاء الأفراد الذين تطوروا يتناسلون ويتكاثرون بشكل ناجح، ومن ثم يتكيفون مع بيئتهم. وبهذه الطريقة تكون قد ظهرت أنواع جديدة بما فيها نحن أنفسنا.



قضية الطبيعة في مقابل النشأة Nature vs. Nurture

ما لم يعلمه داروين –وهو يعمل على نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي (انظر ص ١٩٢)– هو كيف ينتقل التكيف مع البيئة والخواص الأخرى من جيلٍ لآخر. وما يدعو للسخرية هنا، أنه خلال حياة داروين، وجد راهب أسترالي اسمه جورج مندل George Mendel (١٨٢٢-١٨٨٤) الإجابة على هذا السؤال، ولكن اكتشافه هذا نُشِرَ حينها في جريدة مغمورة، ونُسِيَ أعوامًا عدة.

قبل اكتشاف مندل القوانين الوراثية، كانت الفكرة الـمُفترضة هي أن أي خاصية متوارثة في المولود هي عبارة عن مزيج من خواص الأبوين. خلال تجارب مندل على أجيال نبات البسلة، اكتشف أن أي خاصية –مثل لون الزهرة مثلًا– هي خاصية متوارثة من النبات الذكر أو الأنثى. وأن الوحدة البيولوجية لهذه الخاصية هي الجين.

الاكتشاف العلمي العظيم الثاني يُعزى إلى العالم الأمريكي جيمس واتسون James Watson والإنجليزي فرانسيس كريك Francis Crick اللذين بَيَّنَّا كيف تنقل الجيناتُ الخواصَ. وأن المفتاح هذه العملية هو جزيء مركب يُسمَّى الدنا DNA موجود في كل خلايا الكائنات الحية. إن دنا كل كائن حي (باستثناء المستنسخين) متميز بحد ذاته، كما أنه يحتوي شفرة الطريقة المميزة التي ينمو بها وينضج.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما إذا كان الدنا يحدد كل شيء عن الطريقة التي يسلكها الكائن الحي في حياته؟ وإذا كان كذلك، فهذا يولد أسئلة أخرى متعلقة بالجبر والإرادة الحرة، وعمَّا إذا كان هناك ما يُسمى

بالطبيعة الإنسانية؟ (انظر الصفحات ٢٤، ٤٧) وهذه أسئلة لها بدورها مضامين سياسية.

يؤكد علماء نفس التطور أن معظم السلوكيات محددة سلفًا (انظر ص ٢٩٢)، ولكن علماء النفس المعرفيين يشيرون إلى أهمية دور التعلم في تحديد السلوك (انظر ص ٢٩٤)، في حين أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين يشددون على الدور الجوهري للمجتمع والثقافة في تحديد سلوك الأفراد. في حين أن الجماعة العلمية ترى عامةً أن كلًّا من الوراثة الجينية والبيئة - كلًّا من الطبيعة والنشأة- تشكل هويتنا.

الفصل الرَّابع

السِّياسة

السياسة Politics

وُصِفَتِ السياسة بأنها فنٌّ وعِلمٌ. الكلمة نفسها فُسِّرت تفسيرات عدة. فترتبط السياسة بدراسة عملية تكوين وقيادة وإدارة الدول أو وحدات سياسية فيها. وتتضمن أيضًا العلاقة بين الأفراد في المجتمع وبشكلٍ أدق العلاقة بين القوة والسلطة. تشمل أيضًا السياسة كنشاط تنظيم وتحريك الـمُكونات السياسية، وتطوير السياسات، وتكوين الحملات، وتشكيل الحكومة. وتسعى السياسة إلى حدٍّ ما إلى تسوية الخلافات والوصول إلى اتفاق جماعي على الآراء.

اشتهرت السياسة بكونها فنَّ الممكن، وهي خاصية ترجع إلى أرسطو الذي يرى السياسة كفن التحكم والتوافق حول مجموعة كبيرة من المصالح في الدولة. ومثل هذه الصورة للسياسة تتوافق مع ما يحدث في الأنظمة الديموقراطية. كما أن هناك درجاتٍ من التلاعب السياسي من قبل الحكام حتَّى في أعطى الدول السلطوية.

تتضمن السياسة كدارسة نظرية «الفكر السياسي» أو «علم السياسة»، وهو عبارة عن نظريات حول الدولة والحكومة والسلطة والقانون والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وطرق تمثيل المحكوم... إلخ. كما تشمل أيضًا دراسات وصفية ومقارنة حول الهيئات السياسية كالدساتير والبرلـمانات ونظم التصويت. وبالإضافة إلى ذلك، هناك نظريات أعمق ذات اتجاه فلسفي فيها تفحص بشكلٍ نقدي ودقيق القيم الأساسية للاتجاهات السياسية كالعدالة والسلطة والمساواة والحرية.

تظهر الـمُعتقدات والقيم السياسية في عددٍ من الأيديولوجيات والحركات السياسية بدءًا من المنصات الجدل السلمي حول موضوعٍ واحد وصولًا إلى النظم الشمولية كالفاشية والشيوعية. وفي هذا النطاق الواسع من التقاليد السياسية توجد النظم المحافظة والليبرالية والاشتراكية والديموقراطية. وكلٌّ من هذه النظم تنطوي على سياسات تُرسم بحسب منظور نظام المجتمع والاقتصاد... إلخ. يدرس العالِم السياسي الأيديولوجيات والحركات على تنوع آفاقها الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية.

الدولة The State

الدولة -في مقابل المجتمع المدني (انظر ص ١٧١)- هي عبارة عن ترابط رسمي مبني بين الأفراد، تنظمه قوانين وحكومة تتمتع بالقوة التي تفرضها على أرض لها حدود. الدولة هي بدرجة ما أشبه بالفرد: إذ يُنظر إليها بوصفها مسؤولة عن أفعالها على المستوى الشعبي وعلى مستوى القانون الدولي، كما أن لديها حقوقًا وواجبات. وبمرور الوقت، تكتسب الدولة هوية شبيهة بالهوية الشخصية، وفعليًّا تُصبح الدول مشخصة أحيانًا في صور أشخاص مثل صورة العم سام Uncle Sam أو جون بول John Bull.

ويمكن النظر للدولة كتواصل طوعي بين الأفراد الذين يجتمعون من أجل منافعهم المشتركة؛ وهذه هي فكرة العقد الاجتماعي (انظر ص ١٦٩). وفي المقابل، يمكن رؤية الدولة من منظور القوة والاحتكار وتشريع العنف على أرض ذات حدود. بالنسبة للماركسيين، فالدولة هي

بالأخص مؤسسة تنبع من مرحلة اقتصادية معينة من أجل الحفاظ على الناتج الرأسمالي.



الحكومة Government

الحكومة هي المؤسسة التي تحكم الأفراد والمجتمع بشكل كامل. وغالبًا ما يكون ذلك في إطار الدولة(انظر ص ١٦٢). وهي تقوم بهذه المهام عن طريق فرض القوانين ونشرها.

كل الدول الحديثة تقريبًا لديها نوع من الدستور، أي مجموعة من القوانين الأساسية التي تُعرف وتُحدد سلطة الحكومات وترسم الخطوط العريضة لحقوق الأفراد (انظر ص ١٦٨). ومثل هذه القيود الدستورية لها تأثير متفاوت على الحكومات؛ ولكن من الممكن أيضًا إصلاح هذه الحكومات من خلال المحاكم الدولية على الأقل.

وفق الزمان والمكان تختلف أنواع الحكومات. ففي اليونان القديمة، عَرَفَ أرسطو خمسة أنواع من الحكومات: الحكومة الملكية (وهي بالمعني الحرفي «يحكمها حاكم مفرد» لمصلحة الأغلبية)؛ والحكومة الاستبدادية (التي يحكمها فرد واحد في سبيل مصلحته هو فقط)؛ والحكومة الأرستقراطية (وهي بالمعنى الحرفي «المحكومة من قبل الأفضل»، وهم يُنتقون بحسب أرسطو على أُسس الفضيلة ويحكمون لمصلحة الأغلبية)؛ والحكومة الأوليجارية (وهي بالمعنى الحرفي «محكومة من قبل القلة» المختارة على أساس الثورة، وهم يحكمون لمصالحهم الشخصية)؛ ثم الحكومة الديموقراطية (وهي بالمعنى الحرفي تعني «حكم الشعب»).

لا يزال هناك العديد من الأمثلة حول العالم للحكومة الاستبدادية، على شكل ديكتاتورية منتخبة أو غير منتخبة. ولا تزال الأوليجارية غير الرسمية تهيمن على بعض الدول. أما النسخة الحديثة لأرستقراطية أرسطو؛ فهي

حكم الجدارة Meritocracy، والتي يتقلد السلطة فيها الأكفاء. ويمكن أن نطبق هذه التصنيف على الخدمات المجتمعية، وليس بالضرورة على السياسيين المنتخبين فقط. ويمكننا أيضًا أن نضيف إلى قائمة أرسطو عن نظم الحكم حكومة الكهنة والتي تعني بشكل حرفي «حكم الله»، ويمكن الإشارة هنا إلى دول مثل أفغانستان (تحت حكم طالبان) التي يتمتع رجال الدين فيها بالسلطة الحاكمة.

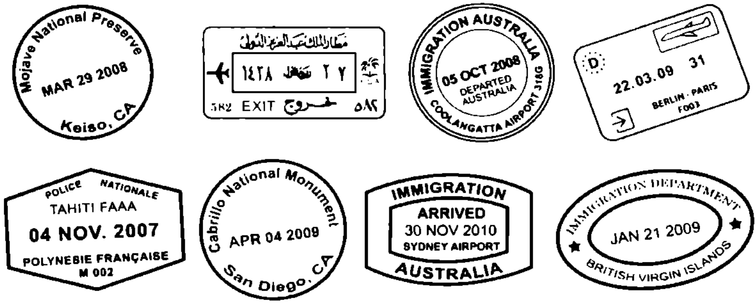
والآن في الوقت الذي لا يزال الحكم الملكي فيه مستمرًّا، لم يبقَ من هذا الحكم إلا المظاهر الاحتفالية لرئاسة صورية. والآن أيضًا أصبحت الديموقراطية (على الأقل بالاسم) هي الشكل الأكثر شيوعًا للحكومات (انظر ص ١٨٠) حول العالم، ومعظم الدول يحكمها نظام جمهوري ورئيس منتخب بدلًا من نظامٍ ملكي على رأس الدولة.

سيادة الدولة Sovereignty

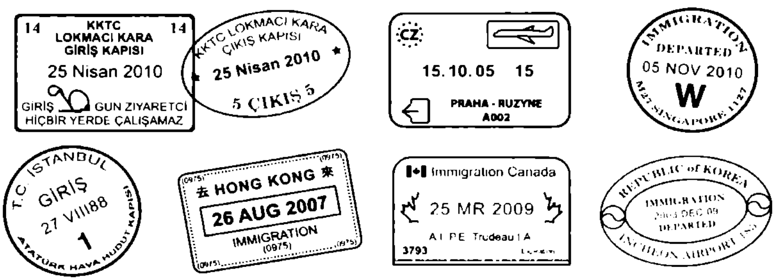
سيادة الدولة بوصفها قوى عليا لها جانبان. في القانون الدولي، يتم تعريف الدولة ذات السيادة عالميًّا بأنها الدولة التي تتمتع بالسلطة غير المحدودة داخل حدودها. ولكن، من الممكن أن تتعرض سيادة الدولة للتغيير، مثل انضمام الدول لكيان أكبر منها مثل الاتحاد الأوربِّي. كما يمكن للدول أن تدخل في صراعات إذا تعدت إحدى الدول المعادية على سيادة الدولة على أرضيها.

وداخل الدولة نفسها يطرأ سؤال: أين تظهر سيادة الدولة؟ بشكل رسمي -في الممالك الأوربية- تظهر سيادة الدولة في العملة الإنجليزية الذهبية، ومع ذلك ففي الواقع هناك مشاكل تثيرها الكنيسة الرومانية

الكاثوليكية حول سيادة الدولة على الدين والمسائل الروحية.



في بريطانيا، تطورت الديموقراطية البرلمانية، وظهرت فيها فكرة أن السيادة الرسمية تؤول إلى الملك (أو الملكة) في البرلمان، وذلك على الرغم من أن السلطة -بحكم الأمر الواقع- في يد المجلس الذي يتخذ القرارات. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن سيادة الدولة راسخة في الدستور (انظر ص ١٦٨).



القانون Law

أهم خصائص الدولة امتلاكها نظامًا قانونيًّا. الهدف منه عامةً هو قابليته للتطبيق على جميع المواطنين بشكلٍ متساوٍ، كما أن وجود هذه

القوانين يحدُّ من قوة الحاكم على المحكوم. في اليونان القديمة مثلًا، أدَّى انتشار معرفة الناس بالقراءة والكتابة وعرض القوانين على الجمهور إلى تقييد سلطة النبلاء التقليدية ونشر الديموقراطية.

نظريًا على الأقل، يُفترض أن القانون بشكله العام يُعضد العدالة وأنه أداة لها، وهنا لا يمكن أن نتغافل عن وجود قوانين غير عادلة. ومن أجل التشديد على انتشار العدالة، ينبغي على القُضاة أن يكونوا محايدين، وعلى المحاكم عامةً أن تكون مفتوحة للصحافة والجمهور، ليس فقط لتطبيق العدالة، ولكن أيضًا كي نرى أنها تُطبق فعلًا.

في البلاد الغربية، هناك نظامان رئيسان من القوانين. القانون الروماني: الـمُنتشر والمعمول به في القارة الأوربية، وهو مُنبثق عن روما القديمة. وعلى هذا القانون الروماني بُنيت قوانين عامة (مثل قوانين نابليون التي انتشرت في فرنسا وعددٍ من الدول الأخرى والتي بدأ تطبيقها في القرن التاسع عشر). تتضمن نظام التحقيق الذي يقوم القاضي بموجبه بالتحقيق في قضية وبسؤال الشهود في المحكمة قبل إصدار الحكم.

في المقابل هنالك القانون العام، الـمُطبق في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا والعديد من دول الكومنولث، وهو قائم على القوانين التي يُمررها الكونجرس أو البرلمان على أساس سابقة قضائية يمكن الاستناد إليها لتطبيق الحكم فيها على كل القضايا الـمُماثلة.

سابقة قضائية كتلك يجب أن يكون منصوصًا عليها في قانون أو محكمة عليا. في نظم القانون العام، تنطوي العملية القضائية على خصومة؛ المحامون عن كلا الطرفين يتجادلون في مرافعتهم قبل إصدار

الحكم. ولكن الحكم يصدر من القاضي، وأحيانًا من هيئة المحلفين؛ وهم مجموعة من المواطنين المختارين عشوائيًّا يتمثل دورهم في اعتبار الدلائل وإصدار حكم منطقي على القضية.

التمسك بالمبادئ الدستورية Constitutionalism

معظم الدول لديها دستور مكتوب، وهو عبارة عن مجموعة من القوانين الأساسية التي تُعرف حدود قوى الحكومة، وتنصُّ على كيفية انتخاب الحكومة، وماهية حقوق المواطنين. وبصفة عامة، تسعى الحكومات الدستورية إلى توفير الحرية السياسية وتمثيل إرادة الشعب.

تطور التفكير الدستوري في القرن السابع عشر والثامن عشر. وقد نبع الدستور من فكرة العقد الاجتماعي (انظر ص ١٦٩). وكانت بريطانيا العظمى من أولى الدول التي شكلت ملكية دستورية (تَحِدُّ فيها إدارة البرلمان من القوى الملكية). وقليلًا ما يكون الدستور غير مكتوب. وأول دستور مكتوب مهم هو دستور الولايات المتحدة الأمريكية الذي صيغ في ثمانينيات القرن الثامن عشر. وقد صدر هذا الدستور بناءً على سلسلة من الفحوصات والتوازنات بين الأفراد وحكومة الدولة والحكومة الفيدرالية، وإرساء مبدأ الفصل بين السلطات، وهو المبدأ المعمول به حتى الآن في معظم الدساتير.



العقد الاجتماعي The Social Contract

تهيمن فكرة العقد الاجتماعي على معظم الفكر الدستوري. ففي العقد الاجتماعي يسلم الناس حريتهم وسلطتهم للحكومة التي تقوم بدورها بتحقيق النظام الاجتماعي والحفاظ عليه من خلال أحكام القانون.

طَوَّرَ الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbesنظريته للعقد الاجتماعي وسط فوضى الحرب الأهلية الإنجليزية. في أطروحة

لوياثان Leviathan [١٨] التي قدمها عام ١٦٥١، وصف هوبز حياة الإنسان في الطبيعة من دون دولة حاكمة بأنها «حياة وحيدة، فقيرة، سيئة، قاسية وقصيرة». إذ يعتقد هوبز أن الأفراد يستطيعون أن يعيشوا معًا في سلام فقط إذا رضخوا لسلطة مطلقة.

من بعد هوبز وفي نفس القرن، رفض فيلسوف إنجليزي آخر وهو جون لوك John Locke السلطة المطلقة في أطروحته الثانية حول الحكومة (١٦٩٠). وقد كتب هذه الأطروحة في عصر الانتفاضة«الثورة العظيمة» التي نحَّى الإنجليز فيها ملكًا ذا نوازع استبدادية مطلقة وهو الملك جيمس الثاني James II لصالح ملك آخر وهو وليام الثالث William III الذي وعد بالحفاظ على حقوق وحريات الشعب. وحينها أكد لوك على أن الحكومة الشرعية تستطيع أن تتواجد فقط بموافقة المحكومين. وعلى الرغم من أن الناس قد قبلوا تسليم «حقوقهم الطبيعية» إلى الحاكم، إلا أنهم في المقابل يعون أن لديهم حقوقًا مجتمعية ينبغي أن توفرها لهم الحكومة. فإذا ما فشلت الحكومة في الحفاظ على هذه الحقوق، ولم تعد تحكم من أجل خير المحكومين، فلدى الشعب كل الحق في تغيير حكومته. هذه الفكرة الجذرية كان لها تأثيرٌ على مُشعلي الثورة الأمريكية في عام ١٧٧٦.

الرؤية الثالثة للعقد الاجتماعي هي التي ألهمت الثوار الفرنسيين في عام ١٧٨٩ وقد وصفها الفيلسوف الفرنسي جون جاك روسو Jean-Jacques Rousseau في كتابه العقد الاجتماعي (١٧٦٢). لقد طَوَّرَ روسو

(١٨) لوياثان Leviathan: حيوان بحري ضخم (يُظَنُّ أنه تمساح أو حوت)؛ شيء جبار في عظمته.

فكرة «سيادة الشعب»، وأكد على أن المواطنين يرتبطون بالقوانين فقط إذا ما كانوا يلعبون دورًا في وضعها. ينبغي أن تكون الحكومة دائمًا متوافقة مع «الإرادة العامة»، وينبغي على الفرد أن يخضع لهذه الإرادة. ولكن بعد ذلك تم استغلال نظرة روسو هذه للعقد الاجتماعي -من قبل مفكري النزعة الشمولية، لا سيما اليساريين منهم- لتبرير إلغاء حرية الأفراد.

المجتمع المدني Civil Society

يتضمن المجتمع المدني كل المؤسسات المستقلة عن الحكومة داخل الدولة. تتكون هذه المؤسسات من نطاق واسع من الهيئات، مثل المنظمات التطوعية والاجتماعية والأندية الرياضية، والمنظمات المعارضة والتجمعات الكنسية. يتجمع في هذه المنظمات الأفراد على هدف مشترك وبارتباطٍ حر. ما يُميز أحيانًا بين المجتمع المدني و«المجتمع» بمعناه الواسع، هو أن المجتمع المدني لديه اهتمامات سياسية. وهو يضم أيضًا هذه الهيئات التي تقوم بعمل جماعي من دون موافقة الدولة.

غالبًا ما يُنظر إلى المجتمع المدني بوصفه أداة مطلوبة للديموقراطية. في المقابل، لا يطيق النظام الشمولي (انظر ص ١٧٩) المجتمع المدني، إذ ينبغي في هذا النظام أن تكون كل النشاطات محكومة من قبل الدولة. وقد عاودت منظمات المجتمع المدني الظهور في عددٍ من الدول الاشتراكية، وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة في الصين لا تزال في بداياتها الأولى إلا أنها مُهددة بالانقراض. ونلاحظ في هذا الصدد أنه حتى في الديموقراطيات الراسخة، لا يزال الجدل دائرًا حول مدى مسؤولية الدولة

ومدى المسؤولية التي يمكن تركها للمجتمع المدني.



العنف Violence

النهي في عبارة «لا تقتل» مقبولٌ بشكلٍ عام -في إطار القانون والمبادئ الأخلاقية- بوصفه أقوى المحرمات السبع التي نهى اللهُ عنها موسى، والتي ورد ذكرها في العهد القديم، ونجدها متأصلة في كل أديان التوحيد. ويبدو أن مثل هذا التحريم يُقر بنزوع الإنسان إلى القتل ما لم يتم تقيده بشكلٍ ما.

في القرن السابع عشر، اعتقد الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز أن لدى الإنسان ميلًا للقتل، ويرى أنه قبل أن يجتمع البشر معًا ليشكلوا دولًا كانوا يعيشون في خوف مستمر من الموت القاسي. كما اعتقد هوبز أيضًا أن الواجب الأول للحكومة هو حماية الأرواح، وفي أشد النظم شرعية يُعتبر العنف -الذي يرتكبه المواطنون- جريمة. وهناك قضايا عنف ثَبُتَ

أن الإجماع حولها بعيد المنال مثل قضايا الإجهاض والقتل الرحيم.

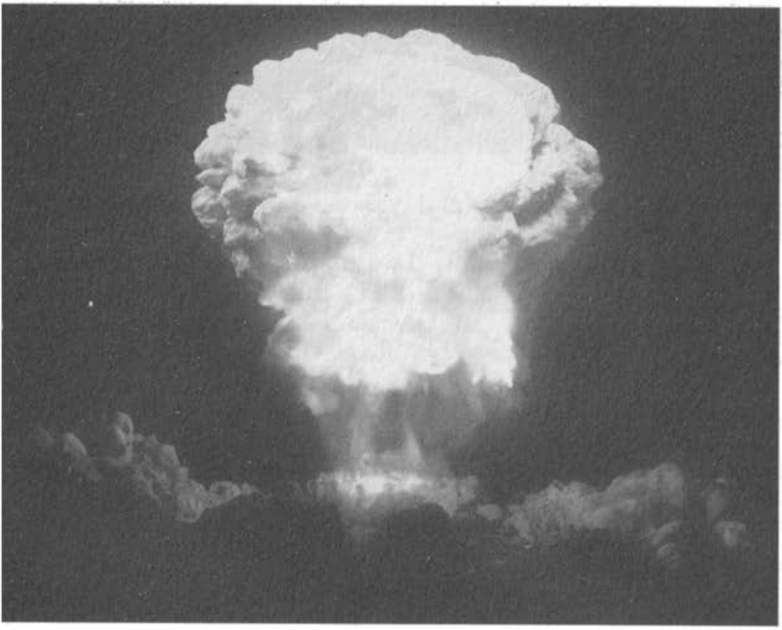
وعلى الرغم من ذلك، توجد محرمات عامة لعنف الفرد. وتحتفظ الدولة عامةً بحق القيام بأفعال عنيفة. في بعض الدول، العقاب البدني والمالي يشرعه القانون وحده ويدافع عنه على سبيل الردع أو العدالة (انظر العقاب ص ٢٧٦). إعلان الحرب أيضًا أمرٌ تختص به الدولة في بعض الظروف، وهو أمرٌ مشروع في كل من القانون القومى والدولي (انظر ص ١٧٤). في حين أن السلام التام لا تتبناه سوى أقلية صغيرة (انظر ص ١٧٦).

على مر العصور، برر عددٌ من المفكرين السياسيين استخدام العنف من أجل تحقيق مصالح الدولة. استخدم الثوار الأمريكيون في عام ١٧٧٦ العقد الاجتماعي (حجج جون لوك) لتبرير ثورتهم، في حين أن كارل ماركس وأتباعه برَّروا ثورتهم على الرأسمالية والظلم الاجتماعي المستمر بأنها رغبات مشروعة لا مفر منها. تبنَّى الماركسيون أيضًا مفهوم «العنف المنظم» أي فكرة أن الدولة يمكن أن تكون عنيفة من أجل الدفاع عن وجودها.

الردع Deterrence

يتمثل الردع في الاعتقاد بأنه إذا كانت الدولة تمتلك جيشًا مسلحًا قويًّا وترسانة عظيمة من السلاح، فلن تجرؤ دولة أخرى على مهاجمتها أو على أن تُعرض مصالحها للخطر. وهذا هو المبرر الذي يجعل الدول تنفق مبالغ طائلة على «الدفاع»؛ على أمل أنها إذا فعلت ذلك، لن تحتاج أبدًا أن تحارب.

المشكلة في هذه العقيدة أنها تؤدي إلى سباق في التسلح، مما يعزز التوتر والخوف المشترك بين الدول. في الحرب الباردة، تطورت عقيدة الردع إلى «الدمار المتبادل المؤكد»، وهو ما أدَّى إلى عجز الجانبين عن البدء بالضربة نووية؛ هذا لأن كل طرف يعلم أن الطرف الثاني سيكون قادرًا على أن يرد بانتقامٍ مدمر. غير أن تطوير نظام الصواريخ المضادة البالستية يهدد بشكل مستمر بقلب «التوازن الدولي المرعب الهش»؛ فأنظمة كهذه تجعل الدولة قادرة على النجاة من الضربات الـمُدمرة.



الحرب War

بصفة عامة -وعلى نطاقٍ واسع- تُعتبر الحرب شرًّا، ولكن التاريخ زاخرٌ بالحروب التي تم تبريرها من قبل مرتكبيها على أسس أخلاقية

وشرعية. تفترض حجج كهذه أنه من الصواب القيام بأفعال شريرة من أجل تجنب شر أكبر. هذا يتفق مع النظرة الغائية Consequentialist للأخلاق والتي تتمثل في أن الغاية تبرر الوسيلة، ولكنها تتنافى مع آداب الأخلاق والسلم، كما تتنافى أيضًا مع اعتبار محرمات مثل «لا تقتل» هي نواهٍ مطلقة ينبغي تطبيقها في كل الحالات.

تطورت فكرة «الحرب العادلة» مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في العصور الوسطى، وقد تم تضمين هذه الفكرة في القانون الدولي الحالي تحت مُسمَّى «السبب العادل»، وهو الأمر الذي أثار جدلًا كبيرًا حوله. وهو من الأسباب التي تبيح النظر إلى الحرب بأنها عادلة. دفاع الدولة عن نفسها ضد الاعتداء على أرضيها هو أمرٌ مقبول بشكلٍ واسع. في حين يبدو «السبب العادل» لدى دول أخرى مشوبًا بالتناقض، وذلك حين تشرع الحرب لدوافع دينية وأيديولوجية أو للحفاظ على المصالح الاقتصادية.

شرط آخر من شروط الحرب هو «القصد العادل» وهو بمثابة حرب لتصليح واقع خاطئ قد تسببت فيه دولة خاضت الحرب تحت زعم «السبب العادل». ينص مفهوم «السلطة المختصة» بأنه يسمح فقط لدولة معترف بها ذات سيادة دولية أن تتدخل عسكريًّا؛ ولكن هذه الحرب لا تحدث في عديد من الظروف التي يرى فيها بعضهم أن التدخل العسكرى واجب. يجب النظر إلى الحرب دائمًا بوصفها الملاذ الأخير، بعد فشل الـمُفاوضات الدبلوماسية والعقوبات الاقتصادية.

بالإضافة إلى ذلك، هناك قوانين دولية، مثل معاهدة جنيف التي تسعى إلى تخفيف فعل وطأة الحرب عن طريق حماية المدنيين وأسرى الحرب.

كما أن خرق أي قانون من قوانين الحرب يعتبر جريمة حرب، ومن ثم يعاقب مرتكبه.

السَّلام Pacifism

يتمثل السلام في الاعتقاد بأن قتل الإنسان -وكل أنواع العنف الأخرى المرتبطة به- هو خطأ جسيم في كل الظروف. ليس السلام بالضرورة مُجرد احتجاج بعض الأفراد على الحرب، فهؤلاء يعتقدون أن بعض الحروب عادلة وبعضها الآخر ليس كذلك. وغالبًا ما نجد السلام متأصل الجذور في العديد من المعتقدات الدينية: فمثلًا كل جماعات الكويكرز Quakers[١٩] تتسم بالسلمية شأنهم في شأن العديد من البوذيين، إلا أن معظم الطوائف المسيحية ومعظم المسلمين يعتقدون أن هناك حربًا عادلة (انظر ص ١٧٤).

وعلى الرغم من السخرية أحيانًا من السلميين بوصفهم صوفيي التفكير، إلا أن نزعة اللا عنف قد أثبتت نجاحًا أحيانًا في المسار السياسي، لا سيما في صراع الهند للحصول على استقلالها من الاحتلال الإنجليزي في النصف الأول من القرن العشرين. كما اتخذ المهاتما غاندي Mahatma Gandhi (١٨٦٩-١٩٤٨) نهج المقاومة الشعبية اللا عنيفة، وهو ما أثبت فاعلية كبيرة، مثلما حدث في حملة مارتن لوثر كينج Martin Luther

---

(١٩) الكويكرز Quakers: جمعية الأصدقاء الدينية، هي مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس. تعتقد هذه الجماعة أن التعليمات الإلهية الدينية تأتي من الداخل دون الحاجة إلى مساعدة وساطة خارجية أو شعائر.

King (١٩٢٩-١٩٦٨) للمطالبة بحقوق الأفارقة الأمريكيين في الفترة بين خمسينيات وتسعينيات القرن العشرين.



الحكم الديكتاتوري المطلق Absolutism

دائمًا يكون هناك حكام يحاولون ممارسة القوة المطلقة في الحكم. لدينا في هذ الصدد الحكم الملكي ذو الديكتاتورية المطلقة كمثلٍ واضحٍ، لا سيما في القرن السابع والثامن عشر في أوربا. في هذه الـمَلَكية تصبح السيادة للملك الذي يحكم بقوة مطلقة داخل الدولة ويمسك بمقاليد السلطة المطلقة التي لا يحدها أي دستور. تسعى هذه الـمَلَكية إلى إلغاء

سلطة الآخرين أو الحد منها في المملكة مثل سلطة النبلاء والكنيسة والتجمعات البرلمانية.

يقوم الحكم الديكتاتوري المطلق على الاعتقاد بأن الله قد ولاه الحكم. وهو ما يعرف بـ«الحق الإلهي للملوك». وأشهر مثال على ذلك هو حكم الملك جيمس الأول، ملك إنجلترا عندما قال في البرلمان في عام ١٦١٠: «إن الدولة الملكية هي الأعلى شأنًا على وجه الأرض، والملوك ليسوا مختارين من الله لتولي العرش على الأرض فحسب، بل الملوك آلهة».

استمر الحكم الديكتاتوري المطلق للملك جيمس مع ابنه شارل الأول الذي تجاهل تمامًا قوة البرلمان، مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية الإنجليزية، وإلى عزل الشعب للملك نفسه بسبب خيانته لشعبه. وقد شجعت حالة الفوضى التي عمت البلاد خلال هذه الحرب الفيلسوف توماس هوبز إلى اتخاذ موقف يرى أن الملكية ذات القوة المطلقة هي وحدها التي تستطيع أن توفر الأمن لشعبها (انظر ص ١٦٩)، ولكن هذا الموقف لم يجد مردودًا في بريطانيا.

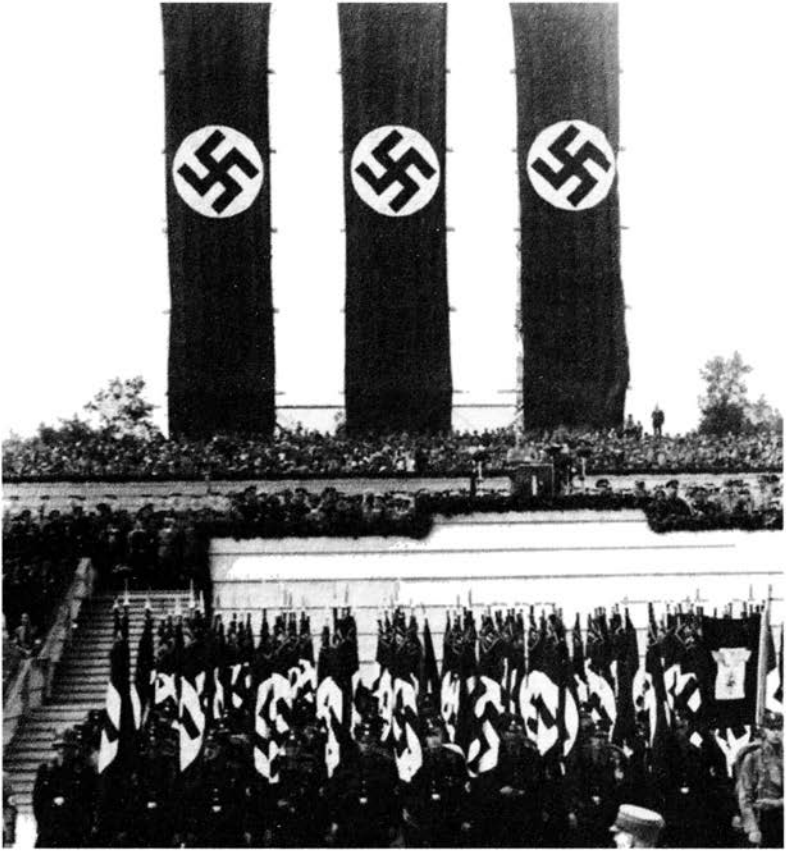
لدينا نمط نموذجي للحكم الديكتاتوري المطلق للنظام الملكي في أوربا، ألا وهو حكم لويس الرابع عشر ملك فرنسا، والذي اشتهر بتصريحه بأن «أنا الدولة، والدولة أنا». نجح لويس على مدى حكمه الطويل الذي امتد من ١٦٤٣ حتى ١٧١٥ في إضعاف سلطة النبلاء، وتجسيد مقاليد القوة في شخصه. وقد حاولت ممالك أوربية أخرى أن تحذو حذو لويس، ولكن نجاحها كان محدودًا. وفي القرن الثامن والتاسع عشر، أدت

التغيرات الاقتصادية -خاصة في مجال التجارة الدولية والصناعة- إلى تحويل مسار القوة لصالح البرجوازيين في المناطق الحضارية، وقد ضغط هؤلاء لإنشاء حكومة دستورية تضم ممثلين عنهم.

الحكم الشمولي Totalitarianism

لا تسعى أنظمة الحكم الشمولي إلى امتلاك السلطة المطلقة فحسب، وإنما إلى التحكم في كل جوانب الحياة داخل الدولة، بحيث يكون أي فعل أو فكرة لدى المواطن تابعة لأيدولوجيا الدولة. يرتبط النظام الشمولي بشكلٍ خاص بالفاشية والنازية والديكتاتورية الشيوعية في القرن العشرين، مثل نظام هتلر في ألمانيا، وستالين في الاتحاد السوفيتي.

من غير المحتمل أن تكون الأنظمة الحاكمة الشمولية قد ظهرت قبل ظهور وسائل الإعلام الضخمة كالصحف والراديو والسينما. فهذه الوسائل قد استُخدمت لتلقين الشعب عبر سلسلة لا نهائية من الدعاية. وقد لاقت المدارس والجامعات نفس المصير، كما زاد إحساس الفرد بأن لا أهمية له إلا في إطار الدولة والأيديولوجيا، وقد تم تعزيز هذا الشعور لديه من خلال التجمعات الحاشدة. وحدها المؤسسات التابعة للدولة هي المسموح بها، ويُحظر وجود أي شيء آخر كالمجتمع المدني مثلًا (انظر ص ١٧١). ففى الإطار السياسي تُعد النظم الشمولية هي المقابل للنظم الليبرالية الديموقراطية.



الديموقراطية Democracy

المعنى الحرفي لكلمة الديموقراطية هي «حكم الشعب». الذي يمكن أن يتخذ شكل الحكم المباشر من قبل مواطني البلد الذين يصوتون على كل شؤون الدولة. وفي المقابل -وبشكل أكثر شيوعًا- تتكون الحكومة في النظام الديموقراطي من منتخبي الشعب الممثلين لهم. حتى في هذه الديموقراطية التمثيلية، تُطرح بعض الشؤون الهامة

جدًّا -مثل التغييرات الدستورية- على الشعب للتصويت عليها في شكل الاستفتاءات.

ظهرت الديموقراطية أولًا في اليونان في أواخر القرن السادس قبل الميلاد في مدينة أثينا. تتمثل هذه العملية الديموقراطية الأثينية في اجتماع كل الرجال البالغين (كانت النساء والعبيد مستبعدين) من أجل اتخاذ القرارات. أما في الجمهورية الرومانية (٥٠٩- ٢٧ قبل الميلاد)، فنجد نموذجًا للحكم الديموقراطي، بموجبه يتم تمثيل طبقة النبلاء فقط في مجلس الشيوخ. ولكن بعد ذلك، أصبح من حق عامة الشعب التصويت من خلال ممثليهم المنتخبين.

تحت حكم الأباطرة عقب الجمهورية الرومانية، اختفى كل مظهر ديموقراطي، وكذلك الحال في القرون الوسطى وحتى مع الممالك التي تخضع أحيانًا للبرلمانات، فمثل هذه المجالس لم يُمثل الشعب فيها إلا فئة ضئيلة لا تتمتع إلا بالنزر اليسير من القوة.

ظهرت الديموقراطية في شكلها الحديث ببطءٍ. ففي بريطانيا مثلًا شهد القرن السابع عشر صراعًا طويلًا بين الملك والبرلمان الذي بدا في موقع السيادة. ولكن في هذه المرحلة وعلى الرغم من أن البرلمان كان منتخبًا، إلا أنه مثَّل فئة ضئيلة من الشعب، أي فئة النبلاء والكنيسة ومالكي الأراضي وبعض الأثرياء (المرأة لم يكن لها حق التصويت). ولم يحصل البريطانيون -من الجنسين- على حقهم الانتخابي إلا في العقود الأولى من القرن العشرين، بعد حقبة طويلة من الحملات والتوترات.

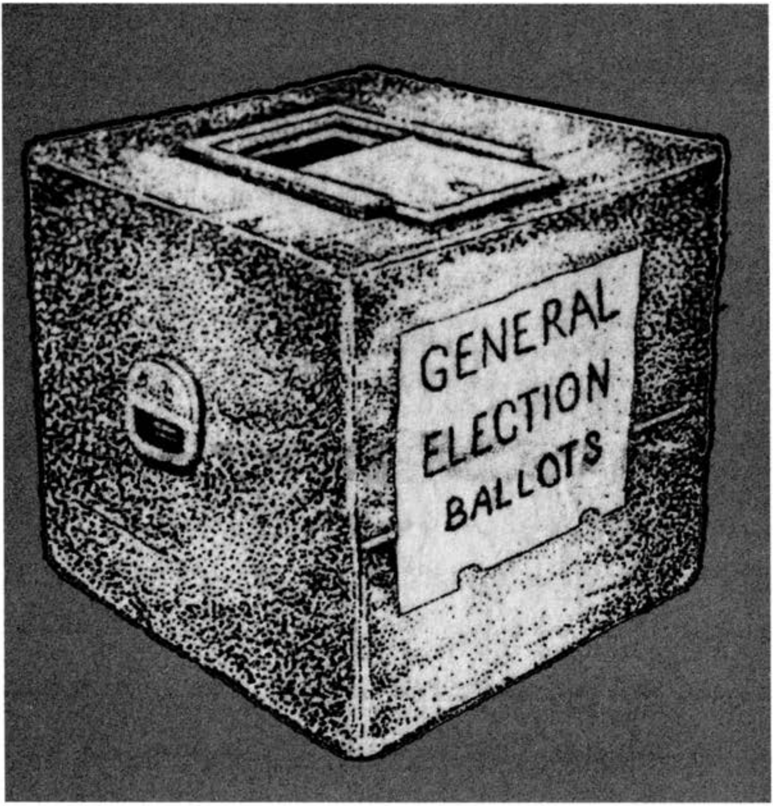
حدثت صراعات مماثلة في دول أخرى من أجل انتزاع حق التصويت

لعامة الشعب والأقليات الإثنية والمرأة. والآن، معظم الدول -دوليًّا على الأقل- تتمتع بحكم ديموقراطي. وهذا على الرغم من أن الانتخابات في العديد من الدول تتسم بالفاسد والتهديد والتلاعب من قبل وسائل الأعلام والجماعات السياسية المتنافسة.

نُظم التصويت Voting systems

لدينا نطاق واسع ومتنوع من نُظم التصويت حول العالم. ففي الانتخابات الرئاسية الأمريكية، كل ولاية تصوت لـمُمثليها في إطار من التنافس الانتخابي، ومن بينهم يتم انتخاب الرئيس. أما في بريطانيا والعديد من الدول الأخرى، هناك نظام الفوز للحائز على أعلى الأصوات، وهو نظام يتم فيه توزيع المرشحين عبر دوائر انتخابية خاصة، والمرشح الحائز على أعلى الأصوات في دائرته يُلحق بالبرلمان؛ كما تحظى الأحزاب السياسية التي لديها أغلبية المقاعد في البرلمان بتشكيل الحكومة. والنقد الموجه لكلا النظامين هو أنه من الممكن أن تُنتخب الحكومة أو الرئيس بأصوات قليلة بالنسبة لمجمل الأصوات.

دول أخرى تستخدم النظام الانتخابي المعروف بالتمثيل النسبي، والذي تُمنح بموجبه المقاعد البرلمانية لكل حزب على أساس النسبة العامة من الأصوات التي يحصل عليها على مستوى الدولة. وعلى هذا النحو، يُعطي مثل هذا النظام الفرصة للعديد من الأحزاب السياسية الصغيرة للحصول على مقاعد برلمانية. كما أنه يُضعف من احتمالية حيازة حزب سياسي واحد أغلبية المقاعد، مما قد يؤدِّي غالبًا إلى تحالف بين الأحزاب السياسية لتشكيل الحكومة.



النظام الفيدرالي في مقابل النظام المركزي Federalism vs Centralism

في بعض الدول تتمثل القوة السياسية في سلطة الحكومة المركزية. والتي تتحكم مباشرةً في إدارة البلاد بما يتضمن المحليات كافة. دول كتلك تُعرف بالدول المركزية.

في بعض الدول الأخرى، يمكن أن تظهر الدولة المركزية فقط في شؤون الدفاع والشرطة، في حين تمتلك كل ولاية من الولايات الـمُكوّنة

لمثل هذه الدولة مقوماتها الإدارية الداخلية، ولديها منتخبوها في الحكومة الذين لديهم صلاحية تمرير القوانين وزيادة الضرائب. دول كتلك هي دول فيدرالية، وقد نشأت غالبًا من اتحادٍ طوعي.

الأمثلة على الدول الفيدرالية تشمل الولايات المتحدة الأمريكية، ألمانيا وأستراليا وكندا، في حين أن الأمثلة على الدول المركزية تشمل فرنسا وبريطانيا. في نهاية القرن العشرين نجد أن بعض الدول المركزية قد فوضت قوتها لهيئات محلية -مثل تلك الموجود في إسكتلندا وويلز وأيرلندا الشمالية- ولكن مثل هذا النهج البنائي ليس مماثلًا للاتحاد الطوعي في النظام الفيدرالي.

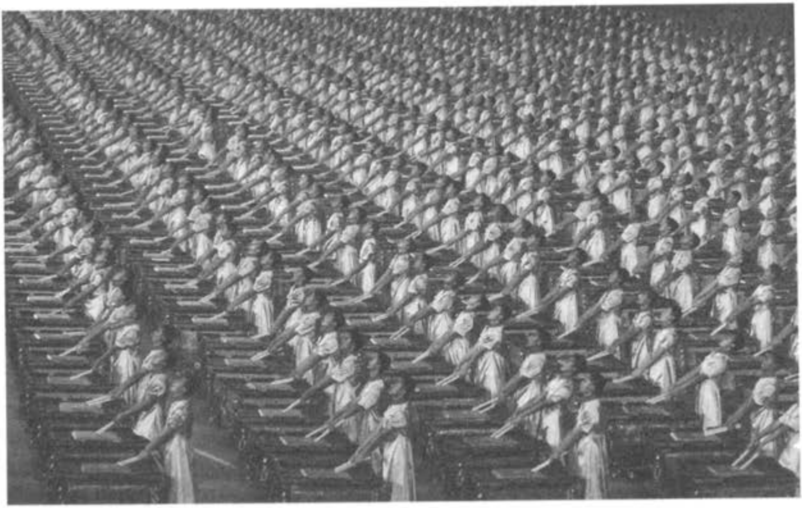
أوضح الأمثلة على الاتحاد الطوعي هي الولايات المتحدة الأمريكية التي تكونت في عام ١٧٧٦ عندما أعلنت ١٣ مستعمرة استقلالها عن بريطانيا. بعد الاستقلال رفضت هذه المستعمرات الامتثال لأي حكم مركزي، رافضةً استبدال استبداد بآخر. ولذلك عندما تم التصديق على الدستور الأمريكي في عام ١٧٨٨، احتفظت كل ولاية بسلطاتها المستقلة، باستثناء بعض السلطات الخاصة بالحكومة الفيدرالية. لقد أدَّى موضوع «حقوق الولايات» -لا سيما في مسألة السماح بالعبودية أو حظرها- إلى انسحاب عددٍ من الولايات التي تتمسك بالعبودية من الاتحاد. مما أشعل الحرب الأهلية الأمريكية في عام ١٨٦١ والتي استمرت إلى عام ١٨٦٥، والتي حاربت فيها الحكومة الفيدرالية ليس فقط للقضاء على العبودية، ولكن أيضًا للحفاظ على الاتحاد.

في دول فيدرالية أخرى يظهر التوتر عندما يُفصح الدستور عن تفضيلٍ لمجموعة إثنية أو لمجموعة تتكلم بلغة مختلفة -مثل الكيبك في كندا والباسك في إسبانيا- وتعتقد هذه الأقليات أن حقوقهم ستُحفظ بشكل أفضل مع الانفصال التام.

الجماعية في مقابل الفردية Collectivism vs Individualism

تشير النزعة الجماعية إلى الاعتقاد بأن حقوق المجموعة ومصالحها -مثل المجتمع أو الدولة- لها الأولوية. في المقابل يشدد أنصار النزعة الفردية على أن حقوق وحريات المواطن هي كيان فردي مستقل. أكثر المظاهر تشددًا وإيمانًا بالنزعة الجماعية تتمثل في الدول الشمولية (انظر ص ٢٠٤)، في حين أن القيم الفردية تُمثِّلها بشكل كبير في النظام الليبرالي عند كلٍّ من اليسار واليمين (انظر ص ٢٠٠).

بين هذين الحدين، تتضمن معظم المواقف السياسية توازنًا بين القيم الجماعية والفردية. تُشدِّد هذه النظم على أن لدى المواطنين حقوقًا وواجباتٍ. ويؤكد النظام الديموقراطي الاجتماعي على الدور الكبير للدولة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي تعزيز الحريات الديموقراطية للأفراد. بينما ترى النظم المحافظة أن للدولة دورًا أقل في هذا الصدد؛ إذ تعتقد أن الأفراد يجب أن يُترَكوا أحرارًا في رعايتهم لأنفسهم. ورغم ذلك، فإن هذه النظم ترعى النظام الاجتماعي وتعتقد في وجوب الطاعة للسلطة الشرعية والأخلاقية والدينية.



المذهب الطوباوي Utopianism

يرى المذهب الطوباوي أنه من الممكن خلق مجتمع مثالي. يتخذ هذا المذهب اسمه من اليوتوبيا Utopia، وهي عبارة عن مقالة فكرية سياسية كتبها عالم الإنسانيات ورجل الدولة الإنجليزي سير توماس مور Sir Thomas More (١٤٧٨-١٥٣٥) في عام ١٥١٦. وفيها وصف جزيرة متخيلة سماها يوتوبيا (من الاسم اليوناني «أرض لا توجد في أي مكان» «nowhere Land»)، ويُفتَرض أنها اكتُشِفَت في وسط الأطلنطي. في هذه الدولة المثالية، يتعاونون جميعًا، وكلٌّ من الرجال والنساء يعملون في الحقول وفي تجارتهم الخاصة. كما أن التعليم متوفر للجميع، والوظائف مُشتركة بين الجميع. في الواقع يصف مور هنا مرحلة مُبكرة من مراحل الدولة الاشتراكية (انظر ص ٢٠٣).

منح عمل مور هذا اسم اليوتوبيا على لون أدبي كامل، اشتمل على

جمهورية أفلاطون Plato's Republic (في القرن الرابع)، وأتلانتا الجديدة New Atlantis للسير فرنسيس بيكون Sir Francis Bacon (١٦٢٤) وأخبار من اللا مكان News From Nowhere (١٨٩٠) لوليام موريس William Morris. يشمل هذا اللون الأدبي أيضًا أعمالًا ساخرة مثل رحلات جلفر Gulliver's Travels جوناثون سويفت Jonathon Swift (١٧٢٦)، كما أثار هذا المنحى الأدبي نزعات مضادة لليوتوبيا (ديستوبيا)، مثل عالم جديد شجاع Brave New World ألدوس هوكسلي Aldous Huxley وألف وتسعمائة وأربعة وثمانون (١٩٨٤) لجورج أورويل George Orwell والذي يدين فيه النظام الشمولي الوحشي للاتحاد السوفيتي.

وعلى المستوى السياسي، يشير مصطلح اليوتوبيا إلى معنى الاستحالة. وقد اتَّهَمَ أنصار أقصى اليمين كلًّا من النظام الشيوعي والاشتراكي بكونهما صورة مُهتزة لطموح يتجاهل الجانب السوداوي للطبيعة الإنسانية.

يرى نقاد اليوتوبيا أن محاولات صناعة مجتمعات «مثالية» تنطوي بحد ذاتها على ما يدينها. إذ يعتبرها النقاد «مجتمعات مُصطنعة»، وأشهر أمثلتها تتمثل في التنظيم الاجتماعي الذي فرضه الاتحاد السوفيتي تحت حكم ستالين، وفي الثورة الثقافية في الصين تحت حكم ماو Mao، فكلاهما قد تسبب في معاناة شعبية كبيرة.

وعلى نطاق أضيق، توجد محاولات كثيرة لصناعة مجتمعات طوباوية، تقوم على التعاون الاقتصادي والحياة الـمُشتركة. تمثلت هذه

المحاولات في مستعمرات المينويتز Mennonite (٢٠) الهولندية التي تكونت في ديلاوير Delaware (٢١) في عام ١٦٦٣، وفي نيو لانارك New Lanark (٢٢) في إسكتلندا تحت راية المصلح الاجتماعي روبرت أوين Robert Owen في السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، وفي المستوطنات الزراعية والصناعية الإسرائيلية، ومجتمعات الهيبي في القرن العشرين.

اليسار واليمين والوسط Left, Right and Center

إن كناية اليسار واليمين والوسط الـمُستخدمة في السياسة تنبثق من الثورة الفرنسية في ١٧٨٩. ففي المجلس الـمُمثل للثورة، كان يجلس الأرستوقراطيون على يمين الملك، ويجلس عامة الشعب على يسار الملك. وفي البرلمان القومي بعد الثورة، أصبح السياسيون الأكثر راديكالية يجلسون على اليسار، وأصبح هذا النظام في الجلوس شائعًا في البرلمانات الأوربية فيما بعد.

في السياسة الحديثة، يمكن تقييم المواقف السياسية من أقصى

(٢٠) المينويتز Mennonite أو تجديدية العمادة: حركة مسيحية إصلاحية ظهرت في أوربا في القرن السادس عشر على شكل جماعات متفرقة في ألمانيا وهولندا وسويسرا في فترة متزامنة مع الإصلاح البروتستانتي. وهي منسوبة إلى مينو سيمون Mino Simone الذي نادى بهذا الإصلاح الديني.

(٢١) ديلاوير Delaware: ولاية أمريكية، تقع ولاية ديلاوير في الجزء الأوسط من الولايات المتحدة المطل على المحيط الأطلنطي، ويحمل اسم الولاية تخليدًا لذكرى البارون دولاوير De Lawrr الذي اكتشف نهر ديلاوير.

(٢٢) نيو لانارك: مدينة إسكتلندية أسسها دافيد دال David Dale في ١٧٨٦. وقد أصبحت المدينة -بفضل روبرت أوين ونجاحها الاقتصادي- مثالًا لليوتوبيا الاجتماعية.

اليسار إلى أقصى اليمين: مؤيدو التروتيسكية Trotskyites [٢٣] والماويون Maoists [٢٤]؛ الشيوعيون والاشتراكيون؛ والاشتراكيون الديموقراطيون (يسار وسط مثل حزب العمل البريطاني)؛ الليبراليون (وسط)؛ والمحافظون والمسيحيون الديموقراطيون (وأحزاب أخرى يمينية وسطية)؛ والفاشية (متضمنة النازية والقوميين العنصريين) في أقصى اليمين. تميل الأحزاب عند أقصى الحدّين السياسيين إلى النظام الشمولي (انظر ص ٢٠٤)، في حين أن الأحزاب الأقرب إلى الوسطية تمثل بشكل كبير الديموقراطيين. وبعض الأحزاب -مثل حزب الخُضر (انظر ص ٢١٣) والحزب التحريري (انظر ص ٢٠١)- يتواجدون في مواقع مختلفة من هذا النطاق السياسي.

---

(٢٣) التروتسكية Trotskyites: تيار شيوعي وضع على يد ليون تروتسكي، وكان الاختلاف الرئيس بين تروتسكي وجوزيف ستالين حول ثلاث نقاط رئيسة هي: أن التروتسكية ترى أن الثورة الاشتراكية يجب أن تكون أممية، ولا بد أن تنتقل للعالم كافة وليس إلى بلد واحد، وقد طرحت هذه الفكرة كشكل مثالي مناقض لأفكار أخرى منها عدم مراعاة التطور غير المتكافئ للأقطار، وأن الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة الثورة الاشتراكية هي طبقة العمال بتحالفها مع طبقة الفلاحين، وليس كما طرح ستالين من خلال نظرية الجبهة الشعبية.

(٢٤) الماوية Maoismأو الماركسية اللينينية الماوية: نظرية شيوعية ثورية تستند إلى أفكار ماركس وأنجلز ولينين وستالين، وبخلاف الأحزاب الشيوعية التقليدية تبرز هذه النظرية أفكار القائد الشيوعي الصيني ماو تسي تونج، وتعتبرها تطويرًا خلاقًا للماركسية اللينينية. تميزت الأحزاب الشيوعية الماوية بالقيام بحروب شعبية ضد الإمبريالية والأنظمة المرتبطة بها مستلهمة التجربة الصينية ودروس ماوتسي تونغ العسكرية وميراث الحركة الشيوعية العالمية ممثلًا في كومونة باريس، وفي ثمانينيات القرن الماضي نشأت الحركة الأممية الثورية التي ضمت مجموعة كبيرة من الأحزاب والمنظمات الشيوعية الماوية، وأصدرت بيانًا تاريخيًا يلخص وجهات نظرها سنة ١٩٨٤، وقد طورته في التسعينيات من القرن الماضي تحت عنوان: عاشت الماركسية اللينينية الماوية.



السياسة المحافظة Conservatism

في السياسة، التيار المحافظ هو عبارة عن موقف يميني وسطي، قد تبنته جماعات مثل الحزب المحافظ البريطاني، وأحزاب مسيحية ديموقراطية عديدة في أوربا، والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك نوعان في التيار المحافظ: الموقف «المحافظ الاشتراكي» في مقابل الموقف «الاشتراكي الليبرالي»؛ واللذان يختلفان على قضايا مثل قضية الإجهاض وزواج المثليين؛ في حين أن «المحافظين الاقتصاديين» يدعمون الحكومات الصغيرة والضرائب القليلة. ينتمي عديد من المحافظين إلى كلا الموقفين السياسيين.

يحترم المحافظون بشكلٍ عام السلطة التقليدية (انظر ص ٢٢١)، سواء كانت ملكية أو رئاسية، أو قانونًا أو كنيسة أو أبًا لكونه رأس الأسرة. وفقًا للنظام الاجتماعي، يُنظر إلى مُنظمات كهذه على أنها منظمات محافظة،

ويرى المحافظون أن ما يخالف منظورهم هو ما سيجعل الجانب الأسوأ من الطبيعة الإنسانية (انظر ص ٢٤) حرًّا طليقًا.

يتضمن هذا المنظور احترامًا للطبقية (انظر ص ٢١٩): فقد ولد الناس بقدرات مختلفة، وتراتبهم في المجتمع عبارة عن انعكاس لها. يدافع معظم المحافظين العصريين على امتياز الطبقة، ويشددون على أن الحراك الاجتماعي ممكنٌ فقط بالنسبة لمن يتمتعون بكلٍّ من القدرة والإرادة لتحسين أنفسهم.

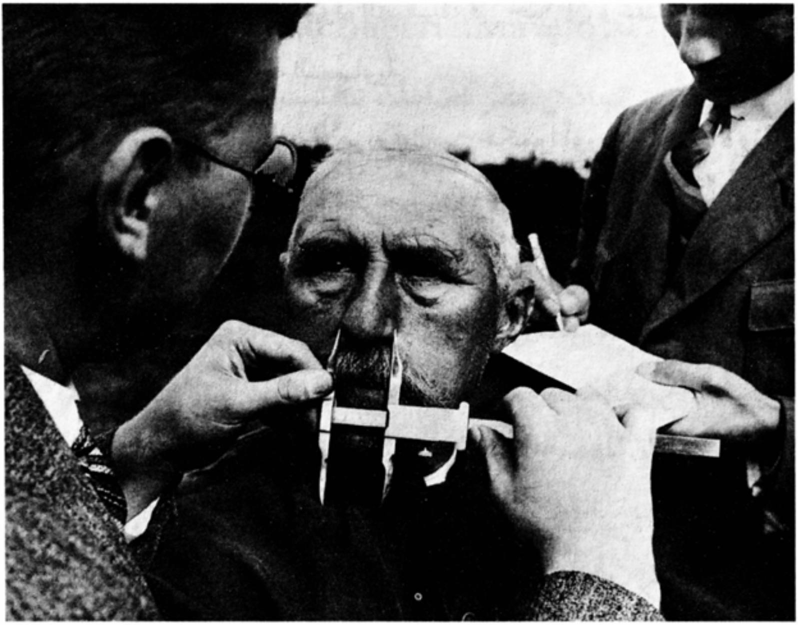
علاوة على ذلك، يؤمن المحافظون بالملكية الخاصة (انظر ص ٢٤٢)، وبأن الأفراد لديهم الحق في فعل ما يشاءون بملكيتهم الخاصة سواء التي ورثوها أو اكتسبوها. هناك العديد من المواقف في هذا الشأن. يشدد بعض المحافظين على أن الدولة لديها واجبات تجاه المجتمع لا سيما الفقراء، وأن هذه الوجبات تتحقق بدرجة ما من خلال دعم الدولة لقطاعات مثل الصحة والتعليم، والتي تمولها الضرائب.

ولكن هناك أيضًا عددٌ من الاقتصاديين الليبراليين (لا يجب خلطها بالليبرالية السياسية أو الاشتراكية، انظر ص ٢٠٠) الذين يعتقدون أن أفضل وسيلة لازدهار الاقتصاد هو إطلاق السوق حرًّا دون تدخل من الدولة سواء على المستوى التنظيمي أو الضريبي. وقد أصبح الاقتصاديون الليبراليون قوة كبيرة داخل العديد من الأحزاب اليمينية الوسطية منذ سبعينيات القرن العشرين.

الداروينية الاجتماعية Social Darwinism

تتضمن الداروينية الاجتماعية سلسلة من المعتقدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المنبثقة عن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي لتشارلز داروين (انظر ص ١٥٧).لقد نشأت الداروينية الاجتماعية مع العصامي الإنجليزي هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) الذي لخص نظرية داروين في «البقاء للأصلح»، وأكد أن هذه النظرية تبرر رأسمالية السوق الحر غير المقيدة، والتي يتم فيها تقييم المنافسة على أساس ما يقدمه المتنافسون من مساهمات أفضل. ولكن سبنسر يقدم مثالًا فاضحًا للمغالطة الطبيعية؛ إذ يرى أن «الواجب» هو ذاته «الإلزام» (انظر ص ٩٧).

أدت الداروينية الاجتماعية إلى ظهور علم تحسين النسل Eugenics، الموصوف بالعلم الزائف؛ لأنه يشدد على أن الفقراء والمحرومين هم «أفراد أدنى»، ويجب منعهم من التناسل؛ من أجل الحفاظ على كفاءة المجتمع. يعتقد علم تحسين النسل أن الصفات السلوكية مثل النزعة الإجرامية يمكن أن تكون موجودة فسيولوجيًّا. وقد أشاع العلماء العنصرين فكرة أن هؤلاء الأفراد الفقراء هم «أدنى» منهم (انظر ص ١٩٧).



القومية Nationalism

القومية عبارة عن أيديولوجيا سياسية تعزز أولوية الهوية الوطنية، القائمة على عناصر عديدة مثل التقاليد الإثنية واللغوية والثقافية. لعبت العديد من الفنون دورًا مهمًّا في تعظيم القومية، إذ تحتوي هذه الفنون القومية دائمًا روحًا عاطفيةً أكثر من كونها منطقية. تُصان الدولة بوصفها كينونة شبه مقدسة أكبر من مجموع الأفراد بداخلها.

ظهرت الحركات القومية في الدول التي تسعى إلى التحرر من الحكم الأجنبي، ومثل هذه الصراعات من أجل التحرر تشغل نطاقًا واسعًا من المتن السياسي. هذا كان الحال مثلًا في أوربا في القرن التاسع عشر حيث ظهرت القومية الحديثة. في بداية هذا القرن، كانت ألمانيا وإيطاليا

مُكونتين من مجموعة من الدول الصغيرة، في حين أن وسط أوربا كانت تحت سيطرة الإمبراطورية النمساوية.

كان الأباطرة والملوك والأمراء -الذين حكموا أوربا في هذه الآونة- يتمتعون بحكم ملكي مطلق (انظر ص ١٧٧)، أما المعارضون لحكمهم فقد كانوا منحازين للنزعة القومية والليبرالية والديموقراطية. وهؤلاء قد اصطفوا مع الشعراء والموسيقيين في الحركة الرومانسية (انظر ص ٣١١) التي استلهمت حكايات التراث والأغاني التراثية بقوة لتعزيز الإحساس بالهوية القومية.

بعد قرن من الصراعات، استطاعت الدول الصغيرة في أوربا أن تحصل على حكمها الذاتي، الذي تم الاعتراف به بالسلام الذي حل بعد الحرب العالمية الأولى. وهذا ما شجع بالتالي حركات التحرر في مستعمرات الإمبراطوريات الغربية فيما وراء البحار. وأحيانًا كانت القوى الإمبريالية تواجه الاحتجاجات القومية بعنف شديد، ولكن في الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٧٥ استطاعت حوالي مائة مستعمرة أن تصبح دولًا ذات سيادة مستقلة.

للقومية أيضًا جانب مظلم. فالأحزاب القومية التي ظهرت في الدول القومية الناشئة نزعت إلى التأكيد على شموخ دولها مقارنةً بسائر الدول والبشر، وأحيانًا بشكل عدائي. وفي أبشع صورها، انبثق عن النزعة القومية النزعة العنصرية (انظر ص ١٩٧) والفاشية (انظر ص ١٩٨).

الاستعمار والإمبريالية Colonialism and Imperialism

منذ القرن السادس عشر فصاعدًا، تنافست قوى أوربية عديدة على تكوين مستعمرات في أنحاء متشعبة من العالم، بشكل كبير لتتحكم في تجارة المواد الخام وتوفير أسواق جديدة لمصنوعاتها. في القرن التاسع عشر -مزودين بمزيج من الدين والعنصرية- طَوَّرَ المستعمرون الثقافة «الإمبريالية» وأسبغوا عليها غاية أخلاقية سامية، واعتبروها أهم ما يميز الحضارة الغربية ليفرضوها على مستعمراتهم «البدائية». غير أن تحت هذه القشرة، نجد أن للمصالح التجارية دورًا محوريًّا.

في مواجهة القيم الغربية التي تتغنى بالديموقراطية والمساواة، راحت صفوة من المتعلمين في الدول الـمُستعمرة تتساءل عن حق القوة الإمبريالية في فرض هذه القيم عليهم. ومن هنا، نشأت الحركات القومية (انظر ص ١٩٣) التي مضت في عملية تحرر بطيئة -وأحيانًا عنيفة- ضد الاستعمار في النصف الثاني من القرن العشرين. وعلى الرغم من ذلك، يعتقد البعض أن الإمبريالية السياسية قد تحولت إلى إمبريالية اقتصادية.



الرسم الكرتوني الشهير في عام ١٨٩٢ الذي يصف الإمبريالي البريطاني سيسل رودس Cecil Rhodes كعملاق واقف على القارة الإفريقية.

العنصرية Racism

العنصرية هي الاعتقاد بأن بعض «الأجناس» ليست مختلفة عن «الأجناس» الأخرى فقط، ولكنَّها أيضًا أسمى منها. نتجت هذه النزعة العنصرية عن أفعال تتراوح بين السب والقذف وبين المعاملات الظالمة التي تعزز التمييز وصولًا إلى الإبادة الجماعية. مُعتقدات وأفعال كهذه يتم انتقادها اليوم على أساس أخلاقي وعلمي، في حين أنها كانت شائعة في حقبة الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

مفهوم «العرق» نفسه مفهوم معقد ومشكوك فيه. في الماضي أدت القيود على الاتصالات والنقل إلى ارتياب المجتمعات في الأغراب الوافدين إليها، وكان هذا الأمر مبنيًّا بشكلٍ كبير على أساس اختلاف اللغة والثقافة، وهو ما نسميه اليوم بالعرق. فإذا ما تكيف الأغراب مع ثقافة المجتمع، فيُرَحِّبَ بهم في هذا المجتمع. ووفق هذه الرؤية، لن يكون الاختلاف بين الأجناس اختلافًا فطريًّا.

في القرن التاسع عشر، أثارت هذه الاختلافات سلوكًا مُعاديًا في المستعمرات ضد غير الأوروبِّيين. وقد ترسخت هذه النظرة مع انتشار نظريات علمية زائفة عن الأجناس البشرية يتم بموجبها تصنيف البشر في العالم إلى «سلالات» عديدة على حسب الخصائص الفيزيائية، مثل لون الجلد أو ملامح الوجه (اختلافات يعتبرها علماء الجينات الـمُحدثون طفيفة جدًّا). وبحسب هذه النظريات يكون الأوروبِّيون هم الجنس «الأعلى تطورًا» أو «الأكثر تحضُّرًا» بين البشر على المستويين الجسدي والعقلي.

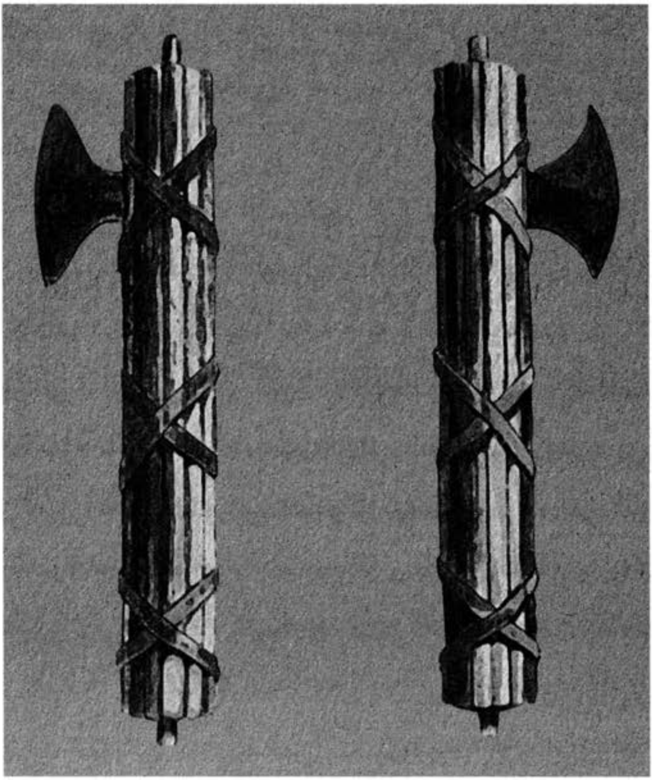
تبنَّى الداروينيون الاجتماعيون -وهم أنصار «البقاء للأصلح»- هذه النظريات في الشؤون الإنسانية (انظر ص ١٩٢). وظهر العلم الزائف لتحسين النسل، وللتأكيد على أن الأفراد الذين ينتمون لسلالة «الأدنى» وفق ثقافتهم أو طبيعة أجسادهم أو أي أصول عنصرية أخرى ينبغي أن يُحاصروا حتى لا يؤثر وجودهم على جودة «النسل البشري». في بداية القرن العشرين، كان علم تحسين النسل يلقى احترامًا وقبولًا، ولكن تم رفضه بقوة عندما ارتبط بالنازية بشكلٍ مستديم. فقد استخدم نظام هتلر التمييز العنصري في أقصى صوره بإبادة عدد يصل إلى أربعة عشر مليون فرد بين يهود وعبيد وغجر وآخرين اعتُبروا «دون البشر». وقد كانت أكبر إبادة جامعية في التاريخ، ولا يُظن أنها ستكون الأخيرة.

الفاشية Fascism

أسفرت مذابح الحرب العالمية الأولى عن خيبة أمل مريرة من السياسات الديموقراطية، بينما أشاعت الثورة البلشفية في روسيا في عام ١٩١٧ مشاعر الخوف من النظام الشيوعي. هذه الظروف هي التي أنتجت في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته النُّظم الفاشية في إيطاليا وغيرها من الدول مثل اليابان وإسبانيا وألمانيا.

الفاشية هي الشكل المتطرف للقومية في أقصى اليمين السياسي (انظر ص ١٩٣)، مصحوبة بتحكم استبدادي رهيب يصل إلى حد النظام الشمولي (انظر ص ١٧٩). يتنوع النظام الفاشي من بلدٍ لآخر، ولكن بشكلٍ عام تشترك الحركات الفاشية في ثقافة القائد ذي القوى المطلقة وفي كراهية الأغراب والأقليات الإثنية والاشتراكيين والشيوعيين

والليبراليين والديموقراطيين. وقد أدَّى شغف هذه النظم الفاشية بالقوى العسكرية والتوسع الاستعماري إلى انفجار الحرب العالمية الثانية. الآن، لا تزال الفاشية باقية في مظاهر عدة منها مظاهرات المشاغبين حليقي الرؤوس ذوي الزي العسكري في روسيا، ومنها الأحزاب السياسية في أقصى اليمين المناهضة للمهاجرين في بريطانيا وفرنسا والتي تظهر آثارها في السياسات الديموقراطية.



تنبثق كلمة «الفاشية» من الحزمة fasces، المظهر الاحتفالي لمجموعة من الأعواد المربوطة حول فأس كان يحملها القضاة في روما القديمة.

الليبرالية Liberalism

كلمة «ليبرالية» -المشتقة من الكلمة اليونانية للحرية- لها معانٍ عديدة، ولكن بشكلٍ عام الليبراليون يؤمنون بالديموقراطية والمساواة وحقوق الفرد وحدود السلطة الحكومية. يولي بعض الليبراليين أهمية قصوى لروح التسامح في الإطار المجتمعي، مثلًا في بعض القضايا مثل حقوق المثليين. في حين نجد أن ليبراليين آخرين يشددون على أهمية الحرية في الإطار الاقتصادي، مؤيدين في ذلك السوق الحر، ورافضين تنظيم الحكومة له، وهذه النظرة مماثلة لرؤية بعض المحافظين.

في الولايات المتحدة الأمريكية، تتعارض الآراء السياسية بشكل تقليدي ما بين «المحافظ» اليميني و«الليبرالي» اليساري. الليبراليون في الولايات المتحدة لديهم نزعة علمانية (كثير منهم في الحزب الديموقراطي). فهم يؤيدون حقوق الأقليات ويعتقدون في استخدام قوة الحكومة من أجل مساعدة المحرومين من الفقراء. في العديد من الدول الأخرى (مثل الحزب الليبرالي الديموقراطي البريطاني) يتبنى الليبراليون قيمًا مماثلة، وهم في الاتجاه السياسي الأوسط، ففي الاتجاه اليميني نجد المحافظين، وفي الاتجاه اليساري نجد الديموقراطيين الاجتماعيين والاشتراكيين.

ظهرت الليبرالية الحديثة على يد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke، الذي قدم في نهاية القرن السابع عشر رؤيته للعقد الاجتماعي (انظر ص ١٦٩). وقد كان للوك تأثيرٌ عميقٌ على بعض مؤسسي الولايات

المتحدة الأمريكية، لا سيما توماس جيفيرسون Thomas Jefferson الذي صاغ بيان الاستقلال.

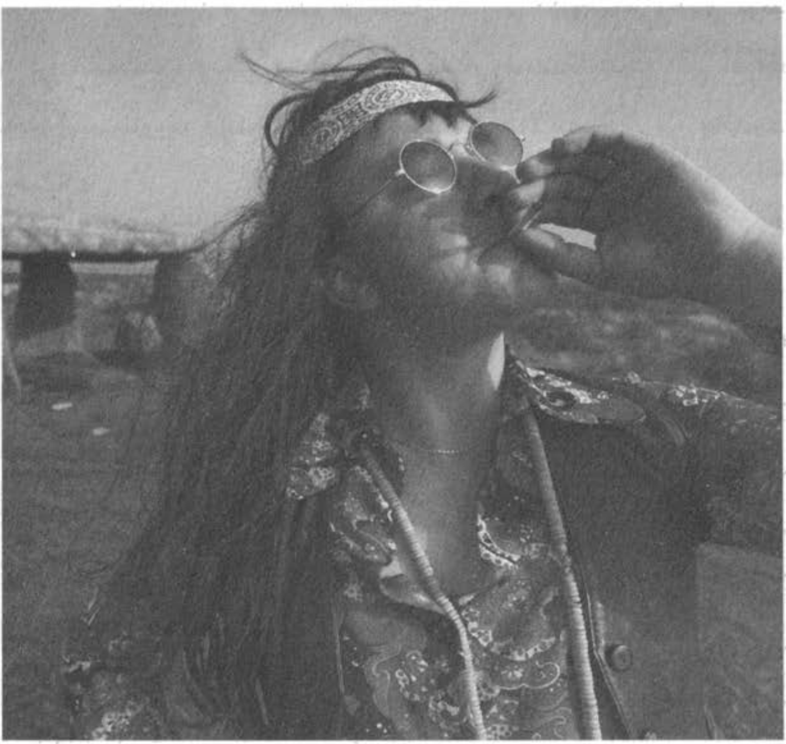
نجد المعنى الكلاسيكي لليبرالية في كتاب (عن الحرية) On Liberty (١٨٥٩) الذي كتبه الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت ميل John Stuart Mill. في هذا العمل أكد ميل أن الحرية تتوقف فقط عند الحد الذي تؤذي فيه الآخرين.

حديثًا، أدى تأثير عمل الفيلسوف الأمريكي جون رولس John Rawls (نظرية العدالة Theory of Justice) (١٩٧١)إلى رؤية جديدة لليبرالية، تؤكد أننا لا نستطع أن نختار المركز الاجتماعي الذي نولد به في المجتمع، ولكن من حقنا أن نختار مجتمعًا يتمتع كل أفراده بحقوقٍ متساويةٍ، ويكون الظلم الاجتماعي والاقتصادي فيه محدودًا وضئيلًا.

التحررية Libertarianism

يؤمن التحرريون Libertarianبالحرية الكاملة لكل فرد. هذه الحرية غير المقيدة من حكومة أو قانون أو دين أو تقاليد الاجتماعية. نجد تحررين في كلا الجانبين السياسيين اليساري واليميني. في اليمين هم ليبراليون «اقتصاديون» ذوو مُعتقدات تمتد من الرأسمالية الحرة إلى السلوك الاجتماعي الحر، حيث يجب أن يكون كل شيء مسموحًا به باسم الحرية. أما التحرريون في اليسار السياسي فيميلون إلى رفض سلطة الدولة وكسر المحرمات الاجتماعية كفعل ثوري، وبموجبه تكون المخالفة واجبة من أجل التغيير.

يركز العديد من التحرريين على السلوكيات المكروهة بالنسبة للتقاليد المحافظة للمجتمع. فهم يطالبون مثلًا أن تكون كل أنواع المخدرات -من الحشيش إلى الهيروين- وكل الممارسات الجنسية شرعية متاحة. المسؤولية الفردية أساسية في هذا الإطار. أما الذين ينتمون إلى اليمين السياسي فهم يرفضون «الدولة الراعية»، والتي تتدخل فيها الحكومة من أجل منع الأذى، كما يعتقدون أنه ينبغي حل المشاكل الاجتماعية على غرار مفاوضات السوق.



الاشتراكية Socialism

ينطوي مصطلح «الاشتراكية» على مواقف سياسية عديدة تمتد من اليسار الوسطي إلى أقصى اليسار. الاشتراكية وليدة الثورة الصناعية الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أوجدتها طبقة عاملة كبيرة محرومة وفقيرة في الحضر. تؤمن هذه الطبقة بالعمل الجماعي من خلال السياسات الديموقراطية والأنشطة النقابية أو الثورة العنيفة، من أجل الحصول على العدالة الاجتماعية.

في قلب الاشتراكية يكمن الاعتقاد في المساواة. ومن هذه المساواة ما يتحقق على مستوى السياسة الدولية، إذ يدين الاشتراكيون القوميين والعنصرية والإمبريالية، كما أنهم يدعون إلى تضامن العمال حول العالم. يقوم الإيمان بالمساواة لدى الاشتراكيين على ضرورة تنظيم المجتمع والاقتصاد لصالح الخير المشترك وليس لمصلحة ذوي الامتيازات أصحاب القلوب المتحجرة. في حين أن المحافظين والاقتصاديين الليبراليين يعتقدون أن كل فرد مسؤول عن تحسين أحواله الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي لا يجب على الدولة التدخل في عملية السوق الحر، لكن الاشتراكيين يؤمنون أنه غالبًا ما يكون نجاح الفرد أو فشله منوطًا بأسرته وبيئته.

يؤكد الاشتراكيون المعتدلون على أنه ينبغي تقييد الثروة بشكل ما، مثلًا عن طريق فرض الضرائب، وذلك من أجل القضاء على الظلم الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع. كما يؤكدون أن للدولة دورًا في مساعدة المحرومين، مثلًا عن طريق توفير التعليم والرعاية الصحية

المجانية. هذا علاوة على المنح وإعانة البطالة وغيرها مما تقدمه الدولة الصالحة الخيرة. هذه الدولة التي تسعى إلى توفير الأمان والحماية للمجتمع «من المهد إلى اللحد». وهذا بشكل عام هو موقف الأحزاب الديموقراطية الاشتراكية، مثل حزب العمال البريطاني، الذي يؤمن بتحول تدريجي وديموقراطي للمجتمع.

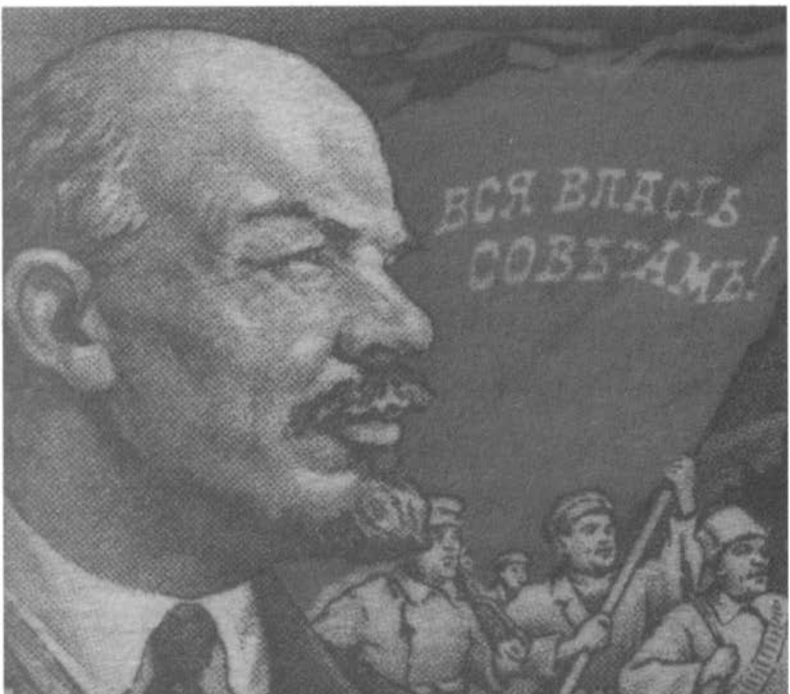
يتخذ الاشتراكيون الأكثر راديكالية رايتهم من كارل ماركس Karl Marx (انظر ص ٢٦٠)، ويعتقدون أن الثورة العنيفة وحدها يمكنها أن تقضي على الظلم الاجتماعي والاقتصادي. فهم يرون أن الاشتراكية مجرد خطوة من أجل تطبيق الشيوعية (انظر ص ٢٠٤)، التي بموجبها ستصبح الطبقية والملكية الخاصة والدولة نفسها مجرد أشياء من الماضي، لم يعد لها وجود.

الشيوعية Communism

تشير الشيوعية بشكلٍ عام إلى أي مجتمع فيه شراكة في الملكية. ظهرت المحاولات الأولى للنظام الشيوعي في إطار ضيق و«بدائي» في مختلف العصور- نجدها مثلًا في بعض المجتمعات الرهبانية في العصور الوسطى، ولدى بعض المجموعات الراديكالية قُربَ الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر.

ظهرت الشيوعية «العلمية» الحديثة في البيان الرسمي الشيوعي (١٨٤٨) الذي كتبه كارل ماركس وفريدريك إنجلز Friedrich Engels (انظر ص ٢٠٦). وهما يعتقدان أن طبقة العمال ستُسقِط الرأسمالية وتُؤسس «ديكتاتورية الطبقة العاملة»، وهي مرحلة من الاشتراكية تكون

فيها كل الملكية تابعة للدولة. ومن ثم تستبدل الدولة نفسها بشيوعية مثالية مؤسسة على مبدأ «من الكل على حسب قدراته، إلى الكل على حسب احتياجاته». لم تتجاوز الدولة الشيوعية -التي أُنشئت خلال القرن العشرين في الاتحاد السوفيتي وغيرها من الدول- مرحلة الاشتراكية أبدًا، وهذا على الرغم من وجود الحزب الشيوعي الذي مارس الديكتاتورية على رأس السلطة.



الماركسية Marxism

ابتكر المفكران الألمانيان كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥) -مؤسسا الشيوعية الحديثة- تفسيرًا للتاريخ سُمِّي بالمادية الجدلية. وتشدد الأخيرة على أن التطور الاجتماعي يسير نحو صراع طبقي ونحو تغير حتمي في النظام الحاكم للإنتاج الاقتصادي.

وبحسب ماركس، كان الإنتاج في النظام الإقطاعي في العصور الوسطى يقوم على الزراعة بشكل أساسي، وبالتالي كانت القوى في يد النبلاء؛ لأنهم يملكون الأرض. ومع الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، استبدلت الأرض الزراعية بالمصانع والمحاجر في كونها المصدر الرئيس للثروة. ومن ثم أصبح البرجوازيون (رأسماليو الطبقة الوسطى) هم الطبقة الحاكمة بدلًا من الأرستقراطيين. وتوقع ماركس أن المرحلة الآتية هي مرحلة الطبقة العاملة الـمُستغلة (الطبقة البروليتاريا Proletariat) والتي ستصعد وتُقصي الرأسماليين لتؤسس «ديكتاتورية الطبقة العاملة». وعلى هذا النحو ستتحقق الشيوعية «المثالية».

عمليًّا لم تسر الأمور مثلما خطط ماركس لها. فقد توقع ماركس أن الثورة ستبدأ في ألمانيا، التي تأسست الصناعة فيها بشكل قوي، وتكونت فيها طبقة عاملة عريضة في المناطق الحضرية. في حين أن روسيا في المقابل ظلت دولة إقطاعية ولم تبدأ الصناعة فيها إلا في بداية القرن العشرين. غير أن الثائر الروسي فلاديمر لشي لينين Vladimir Llych Lenin (١٨٧٠-١٩٢٤) ظن أنه من الممكن لمجموعة صغيرة من

الثوريين العاملين أن يشعلوا ثورة ناجحة، وقد استطاعوا بالفعل القيام بهذه الثورة في عام ١٩١٧.

في الصين، تبنى ماوتسي تونج Mao Zedong (١٨٩٣-١٩٧٦) الماركسية التقليدية عن طريق تحريك القوى الثورية للشعب الـمُزارع، وهي الاستراتيجية التي أدت إلى نجاح الشيوعية في الصين في عام ١٩٤٩.

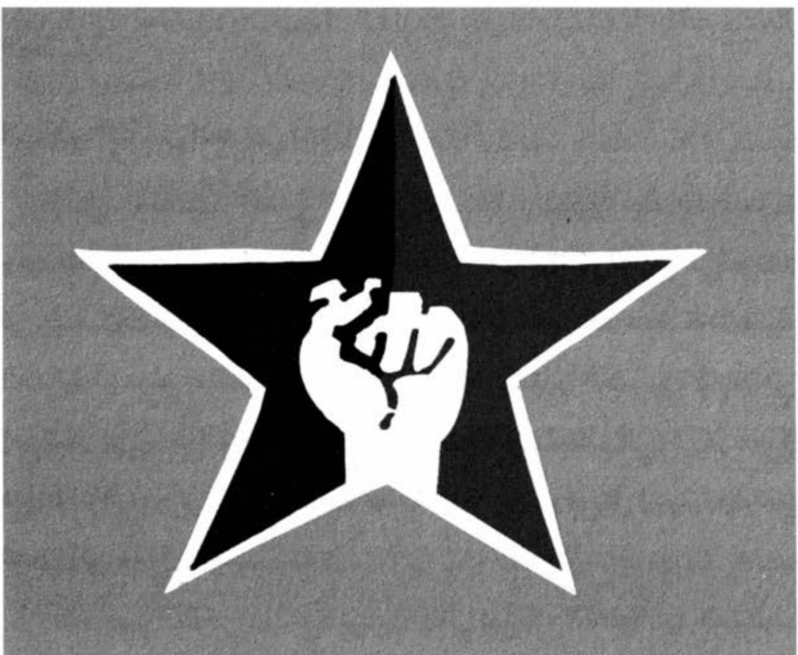
على الرغم من أن توقعات ماركس فشلت، إلا أن نظامه المجتمعي والسياسي والاقتصادي لا يزال مُؤثرًا في العديد من المفكرين. فقد أجدى نهج ماركس نفعًا في العديد من المجالات التي تبحث مثلًا عن الأساس المادي أو الطبقي للظواهر الثقافية أو عن الآثار السلبية للمجتمع الصناعي الحديث.

المذهب النقابي العمالي Syndicalism

يُمثل المذهب النقابي العمالي شكلًا راديكاليًّا مضادًّا للدولة ومضادًّا أيضًا للرأسمالية. لقد ظهرت الحركة النقابية الأولى في فرنسا في تسعينيات القرن التاسع عشر. وقد استطاعت هذه الحركة النقابية العمالية أن تُؤثر سياسيًّا في النصف الأول من القرن العشرين، فمثلًا في إسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية، انضم عمال العالم إلى حركة (The Wobblies) ، ولا تزال حركات عمالية مهمة في دول مثل إسبانيا وفرنسا تنتمي إلى هذا المذهب.

لقد ألهم المفكرون الفوضويون (انظر ص ٢٠٩) النقابات العمالية. فمثلًا تدافع النقابة العمالية عن قراراتها عن طريق الإضرابات كوسيلة

لتغيير المجتمع. وعلى عكس الفكر الماركسي التقليدي، تطالب النقابة العمالية بانتقال التحكم في وسائل الإنتاج من الدولة (والتي يرون أنها ستكون دائمًا محور القوة والامتياز) إلى النقابة العمالية. وهم يعتبرون اتحادهم اتصالًا حرًّا بين الأفراد، ومن ثم فهو أكثر ديموقراطية من المؤسسات التمثيلية مثل البرلمانات. كما أنهم يرتابون بشكلٍ عام في المفكرين الاشتراكيين الذين يندمجون في الديموقراطية التقليدية.



الفوضوية Anarchism

غالبًا ما يُستخدم المذهب الفوضوي كمرادف «للفوضى». ولكن في الإطار السياسي، لا يسعى الفوضويون إلى الفوضى، وإنما إلى اختفاء الدولة والسماح للأفراد بالاتصال الحر بينهم من أجل الخير المشترك. وعلى الرغم من أن الفوضويين يؤيدون زوال الدولة ومؤسساتها إلا أنهم ليسوا كالعدميين Nihilists الذي يرفضون كل القيم ويؤيدون فكرة التحطيم لذاتها. كما أنهم ليسوا بالضرورة مثل التحرريين (انظر ص ٢٠١) الذين يعلون القيم الفردية على القيم جماعية.

يعتقد الفوضويون أن الإنسان خيّر ومُتعاون بطبيعته. وأن ما يُفسد الإنسان هو الحكومة التي تستغله وتضطهده. يُعادي الفوضويون الرأسمالية، ويؤكدون على أن الرأسمالية الصناعية تُفسد الإنسان وتضعفه وتمنعه من تحقيق إمكانياته الحقيقية. وعلى الرغم من أن الفوضيين يُنظرُ إليهم بوصفهم منتمين إلى الجناح السياسي اليساري، إلا أن الفوضويين يُدينون الماركسية التقليدية، رافضين تعزيز الماركسية لسلطة الدولة (انظر ص ٢٠٦) كمرحلة أساسية على طريق الشيوعية.

أول شخص يمكن أن يُعتبر فوضويًّا هو الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي بيير- جوزيف برودون Pierre-Joseph Proudhon (١٨٠٩-١٨٦٥)، صاحب العبارة الشهيرة: «الملكية هي سرقة». وعلى الرغم من أن كلًّا من برودون وكارل ماركس تأثرا ببعضهما، إلا أنهما قد اختلفا بعد ذلك. فقد آمن برودون بالتغيير السلمي وليس الثورة العنيفة. كما أنه دافع عن العمال وملكية العمال، في مقابل ملكية الدولة التي تتضمن في كل

صورها درجةً ما من تحكم الأفراد في أفراد. وعلى عكس برودون، نجد أن الفوضوي الروسي ميخائيل باكونين Mikhail Bakunin (١٨١٤-١٨٧٦) يدعو إلى الاستيلاء العنيف على السلطة. وذلك من خلال المظاهرات والإرهاب. وفي ذلك فهو يختلف أيضًا مع ماركس.

لم تصبح الفوضوية حركة سياسية قوية أبدًا، وذلك على الرغم من أنها أثبتت فعاليتها في الاتجاه النقابي العمالي السياسي (انظر ص ٢٠٧). كما أنها دعت إلى تظاهر الشباب والراديكاليين من الطبقة الوسطى، مثلما حدث في الإضرابات الطلابية في عام ١٩٦٨ أو في الأعمال المضادة للعولمة حاليًا.

المُجتمعية Communitarianism

الـمُجتمعية هي فلسفة سياسية حديثة نسبيًّا، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن العشرين. وهي تسعى إلى إيجاد «طريق ثالث» بين الاشتراكية من جهة، التي تتضمن تعزيز دور الدولة في النظام الاجتماعي (انظر ص ٢٠٣)، وبين التحرريين في الاتجاه اليميني من جهة أخرى، والذين يؤكدون على أولوية الفرد والتي تنفي أهمية المجتمع بالنسبة للإنسان (انظر ص ٢٠١).

عزز المحافظون التقليديون دائمًا أهمية المجتمع، ولكن هذا يتضمن تعزيزهم للتراتبية والسلطوية والتماهي مع الثقافة والأخلاقيات والدين في المجتمع. يتمسك المجتمعيون بمبادئهم إلى درجة أنه أُطلق عليهم اسم «الوسط الراديكالي». فهم يؤمنون بأن على المواطنين واجبات بقدر ما لهم من حقوق، ويؤكدون على أهمية المجتمع المدني

(انظر ص ١٧١) التي تُعلي قيمة «رأسمال المجتمع»، على اعتبار أن المواطنين هم «أصحاب مصلحة»، كما أنها تؤيد التعاون المتبادل المثمر بين شبكات التواصل الاجتماعي. وقد كان لأفكار المجتمعيين بعض الرواج في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، وكلٍّ من اليسار واليمين الوسطي.



مذهب حماية البيئة Environmentalism

ظهر مذهب حماية البيئة كرد فعل على الآثار السلبية للنشاط الإنساني على كوكب الأرض والحياة البرية والبيئة الطبيعية بشكلٍ عام. يولي هذا المذهب قيمةً لكل هذا، ويؤكد على ضرورة الحفاظ على البيئة لراحة الإنسان ورفاهيته، بوصفها مصدرًا للتنوع البيئي وكخير في حد ذاته. وعلاوة على ذلك، ينبغي الحفاظ على البيئة البكر. كما يشن حماة البيئة حملات ضد التلوث المستمر والاحتباس الحراري.

قبل نهاية القرن الثامن عشر وظهور الحركة الرومانسية، كان يُستهان بالأماكن البرية مثل الجبال والغابات ويُنظر إليها كمصدر عدائي موحش مُضر غير ذي فائدة. لكنَّ الرومانسيين كانت لهم نظرة مختلفة، فالبرية بالنسبة لهم أعلى حالات الشعور وقد سموها بالرفيعة السامية. ورأى شعراء -مثل وودزورث- الإنسان جزءًا من الطبيعة لا مقابلًا لها، بل راح يصف الطبيعة بأنها الـمُعلم الأخلاقي للإنسان.

ساعد الرومانسيون في إصلاح علاقة الناس بعالم الطبيعة، ولكن على المستوى العلمي، نجد أن حركة حماية البيئة ترجع أصولها إلى عالم الطبيعة الإسكتلندي المولود في أمريكا جون موير John Muir (١٨٣٨-١٩١٤) والذي شن حملة ناجحة لإقامة أول حديقة عامة وطنية. كما أنه في عام ١٨٩٢ أنشأ نادي سيرا Sierra Club، وهو عبارة عن هيئة للحفاظ على البيئية، وهي رائدة في مجالها في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تم إنشاء هيئات مماثلة في أماكن أخرى مثل الصندوق الائتماني الوطني البريطاني England's National Trust في عام ١٨٩٥.

كانت النظرة المثالية للطبيعة في الحركة الرومانسية بمثابة رد فعل جمالي في مقابل الثورة الصناعية التي حولت المجتمع والبيئة بشكل جذري. كما أدت الصناعة أيضًا إلى تلوث البيئة على نطاق غير مسبوق. وعلى الرغم من أن أول تشريع يقيد التلوث قد صدر في إنجلترا في عام ١٨٦٣، إلا أن الأمور قد سارت حثيثًا بشكل عام في الاتجاه السيئ قبل أن تتخذ مزيدًا من الإجراءات لحماية البيئة.

أشار كتاب (الربيع الصامت Silent Spring) لراشيل كارسون Rachel Carson إلى الآثار المدمرة للمبيدات مثل DDT السلسلة الغذائية، ومن ثم ظهرت موجة جديدة من الحملات المكثفة لحماية البيئة، والتي تولدت منها أحزاب سياسية مثل حزب «الخُضر» (انظر ص ٢١٣).

سياسات الخضر Green Politics

أدت حركة حماية البيئة في السبعينيات إلى ظهور أحزاب «الخُضر» السياسية، التي تشدد على الواجب الأخلاقي للحفاظ على كوكبنا وعلى حق الأجيال القادمة فيه. اليوم، حزب الخُضر مُمثلٌ في العديد من التشريعات القومية، بل ويشكل تحالفات مع الحكومات ومع غيره من الأحزاب على نطاق واسع. تنطوي سياسات الخُضر المثالية على تقييد حاسم على الصناعة والزراعة وخفض كمية المخلفات وتشجيع الطاقة المتجددة. يميل الخُضر إلى اليسار الوسط السياسي ويتبنَّى قيمًا بيئية وعدالة اجتماعية واتجاهًا ديموقراطيًّا على مستوى القاعدة، كما أنهم يؤمنون باللا عنف.

فيما قبل، نادى عددٌ من القوميين ومن الحركات الفاشية في أقصى اليمين باحترام الطبيعة. ذلك أن أيديولوجيا النازي الـمُمثلة في «الأرض والدم» قد ولَّدت ارتباطًا صوفيًّا بين الشعب والأرض. كما اهتم عددٌ من المحافظين الأثرياء بالحفاظ على الحياة البرية وساكنيها. إلا أنهم اتُّهموا بالحفاظ على مصالحهم الترفيهية والاستمتاع بالقيم الجمالية، متجاهلين في ذلك الحاجة لتحسين أحوال السكان المحليين من الفقراء.



النزعة النسوية Feminism

تتمثل النزعة النسوية في الاعتقاد بأنه ينبغي أن يكون للمرأة حقوق مساوية للرجل. الحركة النسائية هي التي تشن الحملات في هذا الاتجاه، والذي ترجع أصوله إلى نهاية القرن الثامن عشر، عندما نشرت الكاتبة البريطانية ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft كتابها (دفاع عن حقوق المرأة) A Vindication of the Rights of Woman (١٧٩٢). في هذه الآونة، كانت المرأة مواطنة من الدرجة الثانية، يُنظر إليها كملكية خاصة للأب أو الزوج، ويتم حرمانها من العمل في أي مهنة ومن التعليم العالي والتصويت أو شغل أي منصب سياسي.

وقد نظمت النساء أنفسهن لشن حملة ضد هذا الظلم. وظهرت أولى حقوق المرأة في الولايات المتحدة الأمريكية، في مدينة سينيكا فولز Seneca Falls، في نيويورك في عام ١٨٤٨. وقد رأى كثيرون أن النجاح في الحصول على حق التصويت بمثابة الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفي نهاية القرن التاسع عشر، نشأت جمعية النساء للتصويت في العديد من البلاد. وقد تبددت طرقهم السلمية للمطالبة بالحقوق، لتحل محلها في بداية القرن العشرين حركة «المطالبة بحق الاقتراع» «Suffragettes» الأكثر عنفًا. فقامت النساء في أثناء هذه الحركة بكسر النوافذ وربطن أنفسهن بالسلاسل الحديدية وأضربن عن الطعام من أجل الحصول على «حق التصويت». ورويدًا رويدًا، منحت الدول امتيازًا للمرأة، كما هو الحال في بريطانيا وألمانيا في عام ١٩١٨، وفي الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٠، وفي فرنسا وإيطاليا في عام ١٩٤٥.

ظهرت موجة جديدة من النزعة النسوية في ستينيات القرن العشرين، تمثلت في «الحركة النسوية التحررية» التي وُلدت وسط مرحلة من التغيرات الاجتماعية الجذرية في العديد من البلاد الغربية. متأثرةً بآراء الفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفور Simone de Beauvoir، التي شددت في كتابها (الجنس الثاني The second Sex) (١٩٤٩) على أنه «لا نولد نساء، وإنما نصير نساء»، «فالمرأة» ليست محددة بيولوجيًّا، ولكنها بالأحرى نتاج شروط ثقافية. كما أن كتاب بيتي فرايدن Betty Frieden (لغز المرأة The Feminine Mystique) (١٩٦٣) هو أيضًا من الكتب المؤثرة في تاريخ النزعة النسوية.

تقوم الحركة النسوية الجديدة بحملة من أجل المساواة في الأجر وتنظيم الأسرة ورعاية الأطفال كرد الفعل على التمييز على أساس الجنس، وكل أنواع استغلال الرجل وظلمه بدءًا من الانتهاكات الجنسية إلى العنف المنزلي. لكن نجاح هذه الحملة بدى متفاوتًا، ولكن لا شك أن هناك تغييرًا في سلوكيات الرجال اتجاه المرأة، مما رفع طموحات المرأة في التحرر. هذا التغيير نلمسه على الأقل عند الطبقة المتوسطة في البلاد الغربية.

التعددية الثقافية Multiculturalism

اليوم -بفضل ظواهر مثل الهجرة والعولمة- أصبحت العديد من المجتمعات حول العالم مكونة من مجموعات إثنية مختلفة ومختلطة. مما أسفر عن ظاهرة التعددية الثقافية في المجتمع الواحد، وتتمثل هذه الظاهرة في سياسة قبول بل وتشجيع عددٍ من الثقافات الدينية والإثنية المختلفة داخل المجتمع. بدلًا من محاولة فرض هوية ثقافية واحدة.

بعضهم يعارض التعددية الثقافية، ويرون أنه إذا أراد المهاجرون الاستقرار في مجتمع ما، فينبغي عليهم أن يتقبلوا قيم الثقافة «الـمُضيفة». حينها -فقط- سيزول التوتر والتعارض وتلتحم أواصر المجتمع.

بعض الدول مثل بريطانيا تتقبل التعددية الثقافية بدرجة كبيرة، في حين أن دولًا أخرى مثل فرنسا تساعد المهاجرين على استيعاب ثقافتها، بل تفرضها أحيانًا بالتشريع، مثل منع المرأة المسلمة من لبس النقاب. وترى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها دائمًا «موطنًا للانصهار الثقافي» لمختلف المهاجرين الذين يحاولون التعبير عن هويتهم الإثنية في إطار الهوية الأمريكية العامة.



العلمانية في مقابل الثيوقراطية Secularism vs. Theocracy

إن المعنى الحرفي لمصطلح الثيوقراطية هو «حكم الله». يشير هذا المصطلح إلى الدولة التي يسيطر فيها رجال الدين على الحكومة، ويكون القانون الديني هو قانون الحاكم للدولة. تشدد العلمانية في المقابل على أنه لا يجب على أى دين أن يشغل مكانة متميزة داخل الدولة؛ فالدين مسألة شخصية، ولا ينبغي له أن يلعب دورًا في الحياة العامة.

في البدايات الأولى للحضارات، كان الدين أداة للقوى الروحية والدنيوية أيضًا. وقد صرح الملوك الأوائل المتربعون على العرش أنهم من سلالة الآلهة، وحافظوا على نفوذهم بالتشديد على سلطتهم الإلهية المدعومة بالقوة. تبنت عدة دول وإمبراطوريات لاحقة نظام الدولة الدينية الذي يعزز موقع الحاكم دون منح هذه السلطة بالضرورة للكهنة. مثلًا، في روما قبل المسيحية كان الإمبراطور هو رئيس الكهنة، وكانت الطقوس الدينية واجبًا شعبيًّا وتعبيرًا عن الولاء للدولة.

شهدت العصور الوسطى صراعات عديدة في أوربًّا بين الحكام العلمانيين والكنيسة الكاثوليكية في روما، والتي غالبًا ما استحوذت على القرار النهائي في بعض الشؤون الخاصة بالسلطة الكنسية. وقد وصل هذا الصراع إلى مداه الأقصى في مرحلة الإصلاح البروتستانتي حين انفصلت بعض الممالك عن روما من أجل إنشاء كنائس خاصة بها، يكون الملوك أنفسهم على رأسها، مثلما حدث مع ملك إنجلترا هنري الثامن.

وعلى الرغم من أن كنائس إنجلترا اليوم لا تتمتع إلا بنسبة ضئيلة من الحضور المنتظم، إلا أنه لا يزال بعض هذه الكنائس يرأسها الملك، كما

يوجد بها العديد من المدارس الدينية المدعومة من الدولة. في المقابل، وعلى نحو مدهش، تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية أكبر نسبة حضور منتظم للكنائس، إلا أن هناك فصلًا مؤسسيًّا بين الكنيسة والدولة، مثلها في ذلك مثل فرنسا.

وفي العالم الإسلامي، هناك العديد من الدول التي تحكمها القوانين الإسلامية الصارمة، في حين أن الإسلاميين الأكثر راديكالية يطمحون في تكوين خلافة عالمية، تكون فيها الشريعة الإسلامية مطبقة بشكل عالمي.

الطبقية Hierarchy

تُمثل الطبقية إحدى أهم القيم في الاتجاه السياسي اليميني التقليدي والمحافظ. إذ يؤمن هذا التيار بالنظام الملكي والأرستقراطي، ويرسخ أيضًا مبدأ الطبقية بحسب الملكية والحالة الاجتماعية، طبقية تنتقل من جيلٍ لجيلٍ. في المقابل -في اليمين السياسي أيضًا- يرفض الليبراليون الاقتصاديون الامتيازات السياسية الموروثة، في حين أنهم يقبلون الميراث وانتقال الملكية.

هناك اعتقاد عام في اليمين السياسي يتمثل في أن الناس بطبيعتهم ليسوا متساويين، وبالتالي فهناك ريبة في مذهب المساواة العامة بين الناس egalitarianism (انظر ص ٢٢٦)، إذ يرى أصحاب هذا التيار أن مذهب المساواة يؤدي إلى الحط من مستوى الإنسان لا رفعه. وهم يعززون موقفهم هذا بحجج من الداروننيين الاجتماعيين (انظر ص ١٩٢) الذين ينظرون إلى مبدأ «البقاء للأصلح» بوصفه النموذج «الطبيعي» للمجتمع.

بل يذهب بعضهم أيضًا إلى أبعد من ذلك في اعتقادهم بوجود اختلافات بيولوجية بين الرجل والمرأة وبين مختلف الأجناس البشرية في الذكاء والتراتبية. وقد تم استخدام هذه الحجج لتبرير سياسات عنصرية تراوحت بين الاضطهاد والإبادة الجماعية.



السُّلطة والتَّسلُّط Authority and Authoritarianism

يُضفي أصحاب اليمين السياسي -باستثناء بعض التحررين منهم (انظر ص ٢٠١)- قيمة كبيرة على السلطة. فهم يعتقدون أنها الأساس الذي يحافظ على النظام الاجتماعي، والذي بدوره يحافظ على حقوق الملكية ويسمح بالنشاط الفعال للسوق الحر. ويرى بعض أصحاب اليمين السياسي أن هناك حاجة إلى إيجاد توازن بين السلطة والحقوق الديموقراطية، في حين يميل آخرون إلى تسلط الدولة من خلال السلطة الملكية المطلقة (انظر ص ١٦٥) أو الديكتاتورية.

لقد حثت الثورة الفرنسية -في عام ١٧٨٩ وما تبعها من فوضى- مفكري تيار اليمين السياسي إلى الدفاع عن السلطة التقليدية. وقد عاتب الفيلسوف الفرنسي جوزيف دي ماتر Joseph de Maistre (١٧٥٤-١٨٢١) -وهو من منطقة سافوا الفرنسية- المفكرين العلمانيين والليبراليين على ما تسببوا فيه من حمامات الدم في عصر التنوير، وأكد على وجوب إعادة السلطة الملكية المطلقة وعودة السلطة البطريركية إلى كل من الدولة والعائلة. علاوة على ذلك، يعتقد دي ماتر أنه ينبغي أن تعود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى موقعها المتميز في الدولة، كما ينبغي أن تُعزَّز الأخلاقيات المسيحية بالقوانين. وقد تم الترحيب بهذا النوع من التفكير الثيوقراطي في ممالك متنوعة مثل مملكة الملك فرانكو في إسبانيا وآية الله في إيران.

قدم الباحث المحافظ الإنجليزي الأيرلندي الأصل إدموند بروك Edmund Bruke (١٧٢٩-١٧٩٧) نقدًا للثوار الفرنسيين من منظور

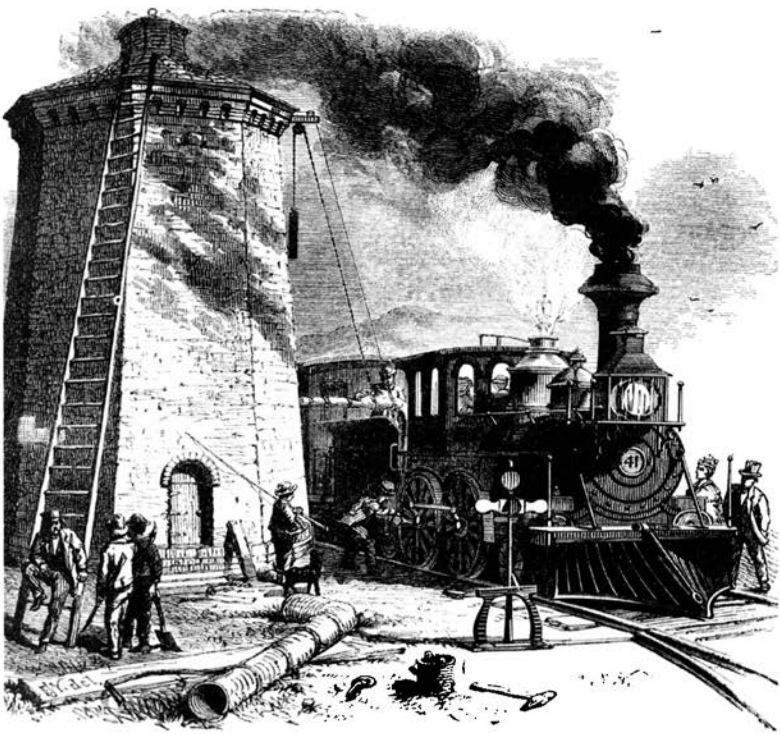
مختلف. إذ اعتقد أنه ينبغي إنشاء سلطة تحافظ على الأعراف والتقاليد، وتراكم الحكمة والخبرة الإنسانية لنقلها إلى الأجيال الجديدة. وشدد بروك على أن تدمير هذه السلطة سيؤدي إلى أقصى درجات الفوضى، وبالتالي إلى الديكتاتورية.

خلال الحرب الباردة، ميزت الديموقراطيات الغربية -لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية- بين النظم التي تعتبر شمولية (انظر ص ١٧٩) مثل الاتحاد السوفيتي وأنصاره، وبين النظم المتسلطة بشكلٍ كامل مثل الديكتاتوريات العسكرية في التيار اليميني السياسي. وغالبًا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدعم هذه الأنظمة الـمُتسلطة، وذلك على الرغم من تقارير الولايات المتحدة الأمريكية لحقوق الإنسان في هذه الأنظمة، وهذا حين تجد فيها حصنًا نافعًا ضد الشيوعية.

التقدم Progress

يُمثل مفهوم التقدم إمكانية أن تصبح الأشياء أفضل. ويتضمن هذا التقدم نظرة حميدة للطبيعة الإنسانية (انظر ص ٢٤)، والتي يمكن أن تتحسن إذا ما كانت الظروف مُناسبة. التقدم اعتقاد وقيمة مشتركة لدى الليبراليين والراديكاليين واليساريين. في المقابل، يتخذ الرجعيون والمحافظون منحًى أكثر تشاؤمًا، فيرفضون إمكانية التحسن. في الحقيقة، فهم غالبًا يتطلعون إلى «الماضي المجيد»، مؤكدين أن الأمور تصير إلى التدهور.

ترجع فكرة التقدم إلى القرن السادس عشر، مع بزوغ النزعة الإنسانية العلمانية والثورة العلمية. ومنذ ذلك الحين، تقدم العلم والتكنولوجيا بشكلٍ هائل لصالح الإنسانية. وبالتوازي، هناك قلة قليلة فقط ترى أنه منذ ذلك الحين لم تتحسن طريقة تعاملنا مع بعضنا. ولكن بالفعل الأمور تحسنت كثيرًا، فمثلًا في الغرب على الأقل تم حظر عمل الأطفال وإلغاء العبودية.



الحرية Liberty

الحرية واحدة من أكثر الكلمات ابتذالًا في السياق السياسي. رفع كلٌّ من الديماجوجيين Demagogue [٢٥] والدجالين والوطنيين والشعبويين والطغاة راية الحرية عندما كانت مناسبة لهم. لكن قلة قليلة منهم فقط هي التي استطاعت مقاومة إغواء هذا الشعار. في إعلان أربروث Arbroath لاستقلال إسكتلندا في عام ١٣٢٠ من الاحتلال الإنجليزي نقرأ ما يلي: «لا نحارب من أجل المجد أو الثروة أو الشرف، ولكن من أجل الحرية فقط، والتي يُضحِّي الرجال الشرفاء بحياتهم من أجلها».

كان لبوق الحرية نداء خاص لدى الثوار الأمريكيين. فالحرية التي كانوا يبتغونها تتمثل في الاستقلال من تدخل الحكومة البريطانية في شؤونهم الوطنية. وهذه نظرة ضيقة جدًّا للحرية؛ لأنها سمحت باستمرار العبودية، وفشلت في منح المرأة حقوقها السياسية. اتسمت الحرية التي تطلع إليها الآباء المؤسسون لأمريكا بكونها حرية سلبية تتمثل في التحرر من الحكومة. وفي النهاية أقرّ الأمريكيون مجموعة من حقوق المواطنين في الدستور، حقوق لا تستطيع الحكومة التعرض لها، كمنعها مثلًا حقهم في حرية التعبير والديانة.

---

(٢٥) الديماجوجيون Demagogue: من اليونانية ديما من ديموس «شعب»، وجوجيا من «قيادة». وهي استراتيجية لإقناع الآخرين بالاستناد إلى مخاوفهم وأفكارهم المسبقة. وتشير الكلمة إلى استراتيجية سياسية للحصول على السلطة واكتساب القوة من خلال مناشدة التحيزات الشعبية، اعتمادًا على مخاوف وتوقعات الجمهور المسبقة. عادة ما يتم هذا عن طريق الخطابات والدعاية الحماسية، واستخدام المواضيع القومية والشعبية في محاولة استثارة عواطف الجماهير.

التمسك بهذه الحرية السلبية هو أساس السياسة الليبرالية (انظر ص ٢٠٠). في أقصي اليمين السياسي، نجد الاقتصاديين الليبراليين يطالبون بالسوق الحر الذي لا دخل للحكومة فيه، وهذا بمثابة مطلب أساسي لسياسة الليبرالية.

في المقابل، يتمسك اليسار السياسي بالحرية الإيجابية. فإذا كان القانون لا يمنع الفرد من فعل شيءٍ ما، فهذا لا يعني أن من حق الفرد بالضرورة أن يفعل هذا الشيء. فالحرية الإيجابية تتضمن توفير الحكومة للوسط الذي يكون الناس فيه أحرارًا، قادرين على تحقيق مبتغاهم وتحقيق أقصى مواهبهم. حتى لو أدَّى هذا إلى الحد من حرية بعض الأفراد في تحقيق كل ما يتمنوه.

التسامح Toleration

يتمثل التسامح في قبول حق الآخرين في حرية الاعتقاد والتفكير والتعبير، وهي قيمة أساسية في الليبرالية. لكن تاريخ مفهوم التسامح يتسم بالتفاوت. فمثلًا في العصور الوسطى الأوربية، كان الاتجاه العام هو اضطهاد الأقليات الدينية، وهو ما نجده حتى اليوم في الدول الشمولية والسلطوية، حيث يتم التعامل مع هذه الأقليات بقسوة.

ظهر التسامح كقيمة مع عصر التنوير في القرن الثامن عشر. فقد صرح فولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨) -أحد الرموز الرائدة لحركة التسامح- بقوله: «قد لا أتفق مع ما تقول، ولكنني سأدافع حتى الموت عن حقك في معارضتي». مع ذلك، لا نزال نجد قيودًا على حرية التعبير حتى في الديموقراطيات الليبرالية الحديثة، في شكل قوانين ضد التحريض على

العنف أو الكراهية والعنصرية. ومحك الإدانة هنا هو تلك الحالات التي يؤدي فيها التحريض إلى إيذاء بدني. وهناك جدل حول بعض العبارات التي يجب تحريمها تمامًا؛ لأنها تُعتبر في حد ذاتها جريمة.



المساواة Equality

أول القيم الأساسية التي يؤكدها إعلان الاستقلال الأمريكي في عام ١٧٧٦ هو أن «كل البشر خُلقوا متساوين». ويتنافى هذا التصريح مع الامتيازات الموروثة في المملكة البريطانية، والتي سعى الأمريكان

إلى التحرر منها. والسؤال هنا: ما طبيعة هذه المساواة؟ لم تكن المساواة الأمريكية شاملة للعبيد السود أو المرأة، ولكنها كانت بمثابة البداية؛ إذ نصت على أن كل الرجال الأحرار في الجمهورية الجديدة لهم حقوق متساوية بما فيها حق التصويت.

كان مبدأ المساواة -الذي تم تأسيسه في الولايات المتحدة الأمريكية- شاملًا حق الجميع في تطوير أنفسهم، وأن المكانة الاجتماعية التي يولد بها المرء، ليس لها أدنى تأثير على فرص حياته. لقد كان عدد من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر فخورين بواقع أنهم ولدوا في كوخ خشبي. وبالمثل تفاخرا عددٌ من رواد الصناعة أنهم تدرجوا من أصول متواضعة.

وعلى الرغم من ذلك، يرى المنتمون لليسار السياسي أن المساواة في الفرص لن تكون حقيقية إلا مع تأمين الدولة لحق الجميع في أن يبدأوا مشوارهم من الـمُنطلق نفسه. وذلك مثلًا عن طريق توفير التعليم المجاني والرعاية الصحية والمنزل الملائم للجميع. ويمكن الوصول لهذا الهدف من خلال إعادة توزيع الثروة عن طريق الضرائب، وبالتالي المساس بحقوق ملكية الأفضل حالًا. أما في الشيوعية «المثالية»؛ فتُصادر كل الملكيات الخاصة؛ لينعم الجميع بمستوى معيشي مماثل.

يلتزم أيضًا اليسار السياسي بالحقوق المتساوية بالنسبة لمختلف الأجناس والديانات والجنس سواء كان رجلًا أو امرأةً أو مختلف الميول الجنسية... إلخ، كما أنه يعارض التمييز ضد الأقليات من خلال تفعيل

«التمييز الإيجابي»، مثل ضمان نسبة من الوظائف الحكومية خاصة بالمجموعات الإثنية.

في حين أن اليمين السياسي ينتقد التمييز الإيجابي الذي يضر بمصلحة الأفضل تأهيلًا. كما أنهم ينتقدون -بدرجات متفاوتة- إعادة توزيع الثروة الذي يؤدي إلى خفض مستوى المعيشة بدلًا من النهوض به، كما أنه بمثابة تعدٍّ على حق الملكية الخاصة.

العدالة Justice

العدالة هي أكثر المفاهيم أهمية في الأخلاق والتشريع والفلسفة السياسية منذ اليونان القديمة، فقد رفضت جمهورية أفلاطون فكرة أن العدالة تصون حقوق مَن يمتلكون السلطة وحدهم. كما ميز أرسطو بين العدالة التي تمنح الفرد «الجزاء الذي يستحقه» عن طريق التعويض أو الجزاء، وبين العدالة التي تضمن توزيع الخيرات بطريقة متساوية.

الشكل الأول للعدالة عند أرسطو هو ما تطمح النظم التشريعية إلى تحقيقه، على الرغم من أن كل القوانين بالطبع ليست عادلة. يتمثل الشكل الثاني للعدالة عند أرسطو في «العدالة الاجتماعية». كما أن هذه العدالة الاجتماعية ذات صلة وثيقة بالأفكار التي تدور حول المساواة (انظر ص ٢٢٦). تتمثل فكرة العدالة الاجتماعية في أن يكون للجميع حقوق متساوية، وهو ما يتحقق بالنسبة لليسار السياسي عن طريق توزيع الثروة.

حقوق الإنسان Human Rights

نميز بين حقوق الإنسان والحقوق المدنية أو الحريات المدنية (انظر ص ٢٣١) على اعتبار أن حقوق الإنسان هي حقوق «طبيعية» وعالمية، في حين أن الحقوق والحريات المدنية -والتي تختلط بالأولى- حقٌّ للمواطنين يحميها القانون في إطار الدولة. تتضمن حقوق الإنسان أيضًا حقوق اقتصادية واجتماعية وثقافية، مثل الحق في التوظيف والرعاية الصحية والتعليم التي ينبغي على الحكومة توفيرها.

خلال العصور الوسطى، أكد عالم اللاهوت توماس الأكويني على أنه يجب على القانون العلماني للدولة أن يقاس على «القانون الطبيعي» المؤسس على المبادئ المسيحية. في عصر التنوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فكر الفلاسفة في تطوير أفكارٍ حول القانون الطبيعي والحقوق الطبيعية تُبنى على المنطق لا على الوحي الإلهي. أثَّر هؤلاء المفكرون على كلٍّ من الثوار الأمريكيين والفرنسيين، وهو ما تجسد مثلًا في نصوص الدستور الأمريكي (انظر ص ٢٣٥).

ظهرت فكرة عالمية حقوق الإنسان ببطءٍ، بدايةً من الحركة المناهضة للعبودية في أواخر القرن الثامن عشر. وفى منتصف القرن التاسع عشر، تزايد اهتمام علماء الإنسانيات بالمدنيين والمحاربين في الحروب، مما أدَّى إلى توقيع معاهدة جنيف، والتي شملت اتفاقيات دولية عديدة حول حقوق المدنيين والجنود الجرحى وأسرى الحرب.

في عام ١٩٤٨ -ونظرًا للأعمال الوحشية التي تمخضت عن الحرب العالمية الثانية- أصدرت الأمم المتحدة إعلان حقوق الإنسان، حتى وإن لم تُبدِ الأمم المتحدة إرادة أو قوة لتنفيذ بنود هذا الإعلان.

بدت الاتفاقيات الدولية -مثل الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان التي صدرت في عام ١٩٥٠- أكثر فاعلية؛ فإذا ما وجد شخصٌ ما أن حقوقه قد سُلبت في دولة من الدول الموقِّعة على هذه الاتفاقية، يمكنه في هذه الحالة أن يرفع القضية إلى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان التي تتمتع بسلطة تغير حكم محاكم هذه الدول.

حقوق الحيوان Animal Rights

إلى أي مدى يجب أن نمنح الحيوان حقوقًا مماثلةً للإنسان؟ حتى ظهور نظرية داروين عن التطور (انظر ص ١٥٥)، كان يُنظر إلى الحيوان والإنسان بوصفهما كائنين منفصلين، ولكن اليوم ونحن ندرك أنه ليس هناك فاصل بينهما، فهذا السؤال يتطلب الانتباه.

وعلى الرغم من أن القرن التاسع عشر قد شهد تشريعات تحذر من معاملة الحيوانات بقسوة، إلا أن الإقرار بحقوقٍ للحيوانات مماثلة لحقوق الإنسان لم يظهر إلا في أواخر القرن العشرين. في هذا الإطار، يمكن لحق الحيوان أن يبدأ ببساطة في عدم التعامل معه بوصفه ملكية خاصة، ومن ثم لا يجب استخدامه كطعام أو لصناعة الملابس أو لأغراض البحث أو الترفيه. ولكنه من غير المحدد على أي فصيل من الحيوانات تنطبق هذه الحقوق أو غيرها من الحقوق. فمثلًا هل نحن

مستعدون أن نمنح حق الحياة للدود الطفيلي الذي تسبب في معاناة الإنسان؟



الحريات المدنية Civil Liberties

الحريات المدنية والحقوق المدنية جزء من حقوق الإنسان العالمية (انظر ص ٢٢٩). هذه الحقوق يتمتع بها مواطنو الدولة، وهي محمية

بالقانون في الواقع، غالبًا ما تكون الحقوق جزءًا من دستور الدولة. تشمل الحقوق المدنية بعض الحريات مثل حرية التعبير وحرية الانتخاب، ويُحظر على الدولة التعرض لهذه الحقوق.

وبحسب رؤية جون لوك John Locke للعقد الاجتماعي (انظر ص ١٦٩) في أواخر القرن السابع عشر، فإن المواطنين يقومون بتقديم حقوقهم الطبيعية برضى إلى الدولة في مقابل حصولهم على حقوق مدنية. هذه الحقوق تضمنها الدولة. فإذا ما فشلت الدولة في الحفاظ عليها، فالمواطنون أحرارٌ في سحب موافقتهم على حكم هذه الدولة لهم.

أثرت أفكار كهذه في كلٍّ من الثوار الأمريكيين والفرنسيين، وفي عام ١٩٧١ تموضعت هذه الأفكار ضمن سلسلة من الحقوق في الدستور الأمريكي. تتمثل الحقوق المنصوص عليها في الدستور على حرية الديانة والتعبير والصحافة والتجمع السلمي؛ وعلى منع الفرد من تكرار الجريمة؛ وحق عدم سلب الحياة والحرية والملكية دون إجراء قانوني؛ وحق المتهم في محاكمة سريعة وعامة. ووقتها لم تشمل هذه الحقوقُ العبيدَ السُّودَ في أمريكا. وحتى بعد تحرر العبيد، لم تُمنح هذه الحقوق المدنية بشكل كامل للأفارقة الأمريكيين إلا بعد الحملة الهائلة للحقوق المدنية التي شهدتها أمريكا في خمسينيات وستينيات القرن العشرين.

الحريات المدنية الآن مكفولة في الديموقراطيات الغربية الليبرالية. ولكن على الرغم من ذلك، تميل الحكومات بطبيعتها إلى قمع الحريات الفردية، بسبب الطبيعة البيروقراطية، أو بسبب النزوع إلى تقييد بعض الحريات؛ من منظور ضرورة هذا الإجراء للحفاظ على الأمن والمنفعة

العامة. وأحيانًا يتطلب الأمر تحدِّي المنظمات الحقوقية المدنية -مثل اتحاد الحريات المدنية الأمريكية في الولايات المتحدة الأمريكية أو منظمة الحرية في إنجلترا- للحكومات من أجل الحفاظ على هذه الحقوق، وحتى وإن تطلب الأمر اللجوء إلى المحاكم.

الاستثناء Exceptionalism

يُمثل الاستثناء الاعتقاد أن لشعب أو دولة مقامًا خاصًّا أو قدرًا بعينه. وقد يبدو هذا كأنه من تدبير الله أو عنايته الإلهية. في القرن التاسع عشر مثلًا، اعتقد البريطانيون الإمبرياليون أن مهمتهم هي نشر القيم البريطانية «السامية» إلى المناطق الجاهلة في العالم. أما اليوم، فديانات مثل اليهودية تعتقد أن الله منحهم فلسطين؛ الأرض التي يحتلون ضفتها الغربية في تحدٍّ سافر للقانون الدولي.

يبدو أن عقيدة الاستثناء هذه هي الأكثر شيوعًا في الولايات المتحدة الأمريكية. إنها جزء من الأسطورة الوطنية بأن الله أوحى إلى المستعمرين الأوائل مثل مجموعة الآباء الحجاج Pilgrim Fathers [٢٦]، بأن يهاجروا إلى أمريكا، وأن المستعمرين الأوروبيين الأصليين حظوا «بقدر إلهي واضح للانتشار في القارة الأمريكية». يعتقد كثير من الأمريكيين أن لبلدهم رسالة خاصة بها تتمثل في كونها منارة لسائر بلدان العالم.

---

(٢٦) الآباء الحجاج Pilgrim Fathers: الاسم الشائع للمستعمرين الأوائل لمستعمرة بيلموث Pylmouth في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تُعرف اليوم في ولاية مساسوتس Massachusets.



وصول الآباء الحجاج إلى أمريكا- تشارلز لوسي ١٨٦٨

الاتجاه الأحادي والاتجاه المتعدد

Unilateralism and Multilateralism

إن مصطلح أحادي الاتجاه ومصطلح الاتجاه المتعدد -بمعنى «المحاباة» أو «تعدد التحيزات»- قد استُخدما كثيرًا في إطار مسألة نزع السلاح النووي. ولكنهما أصبحا يُستخدمان حديثًا وفق الطريقة التي تُوجه بها الدول سياساتها الخارجية.

خلال الحرب الباردة، حشدت الدولتان العظيمتان المتصارعتان ترسانة عظيمة من الأسلحة النووية كافية لتدمير العالم مرات عديدة. ووجهة النظر هنا هي الردع (انظر ص ١٧٣) للجانب الذي يبدأ أولًا بالهجوم. ولكن الكثير من حملات المناهضة للتسلح النووي ترى أن هذا الردع خطير وغير أخلاقي. كما أنها تنادي بنزع الأسلحة النووية من قبل طرف من الطرفين؛ أملًا في أن يتبعه في ذلك الطرف الآخر.

يرى معارضو هذا الاتجاه أن أملهم في أن ينزع الطرف الآخر السلاح النووي بلاهة. في المقابل فكروا في اتجاه متعدد بموجبه يتفق الجميع على تخفيض عدد أسلحتهم النووية أو حتى نزعها، ورأوا أن مثل هذا الاتجاه المتعدد أكثر حكمة من الاتجاه الأحادي.

على مر العقود الأخيرة، كلٌّ من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (ووريثته روسيا الفيدرالية) قد وقَّع على اتفاقيات خفض ترساناته النووية، إلا أنهما لا تزالان تحتفظان بعددٍ كبير منها.

مع تلاشي التوتر بعد نهاية الحرب الباردة في عام ١٩٩٠، اتجه الاهتمام الدولي إلى قضية انتشار الأسلحة النووية، ومحاولة منع الدول غير المستقرة والمعادية -وحتى المنظمات الإرهابية- من الحصول على أسلحة دمار شامل نووية أو كيميائية أو بيولوجية.

في إطار السياسات الخارجية، يُقال مثلًا إن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش اتخذت اتجاهًا أحاديًّا دون الحصول على إجماع دولي: «أنت إما أن تكون معنا، وإما أن تكون مع الإرهابيين»، هكذا صرح

بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر. وعندما استلم الرئيس باراك أوباما الرئاسة، اتخذ اتجاهًا متعددًا أكثر توافقًا، فقد قال لأعداء أمريكا: «سنمد لكم اليد، إذا مددتم أنتم أياديكم أولًا».

الفصل الخامس

الاقتصاد

الاقتصاد Economics

«العلم الكئيب» هذا هو وصف المؤرخ الإسكتلندي والفيلسوف السياسي توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥-١٨٨١) لعلم الاقتصاد. الاقتصاد هو دراسة النشاط التجاري، وتحليل كيفية تقديم الخدمات وإنتاج السلع وتوزيعها وتبادلها ونفادها. وعلى الرغم من أن عددًا من النظريات الاقتصادية قد تشكلت على مر العصور، إلا أن أصل الاقتصاد الحديث يعود إلى إسكتلندي آخر هو آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣-١٧٩٠) الذي حدد في كتابه (ثروة الأمم) The Wealth of Nations (١٧٧٦) ثلاثة عوامل رئيسة للإنتاج وثروة الدولة: الأرض، والعمل، ورأس المال.

غالبًا ما ينقسم المجال الاقتصادي إلى الاقتصاد الجزئي والاقتصاد الكلي. يتعامل الاقتصاد الجزئي مع الشؤون الاقتصادية التي تواجه الأفراد والشركات، في حين أن الاقتصاد الكلي يتعامل مع الشؤون الاقتصادية على مستوى الدولة مثل التضخم والبطالة والنمو. يدور الجدل الرئيس في الاقتصاد حول ما إذا كان ينبغي على الدولة التدخل المباشر في الاقتصاد وتنظيمه أم لا. ويدور هذا الجدل على نطاق واسع في المجال السياسي.



النظم الاقتصادية Economic systems

يعتمد المدى الذي تتدخل فيه الحكومة -في مختلف الدول- في الشؤون الاقتصادية على النظام السياسي للحكومة. في معظم الدول، لا تدخل الحكومات في الاقتصاد بدرجة أو بأخرى فحسب، بل تعد نفسها لاعبًا أساسيًّا في هذا الاقتصاد، فهي توفر الخدمات -وفي بعض الأحيان السلع- كما أنها تستهلك السلع والخدمات الـمُقدمة من القطاع الخاص أيضًا.

يمكن تصنيف الأنظمة الاقتصادية في مختلف الدول داخل هذا النطاق الواسع. ففي الحد الأقصى نجد النظام الرأسمالي ذا الشركات الحرة اقتصاديًّا، بمعنى أن يكون الإنتاج كله ملكًا للقطاع الخاص، مُمثلًا في الأفراد والشركات. وفي إطار هذا النظام تلعب الحكومة دورًا ضئيلًا في القرارات الاقتصادية والتي تتمتع بشكل كبير باللا مركزية. تُحدد الأسعار والسلع بشكلٍ كامل وفق قانون العرض والطلب (انظر ص ٢٤٣) عبر أعداد كبيرة من الأسواق.

وفي الحد الأقصى المقابل نجد الاقتصاد المخطط مركزيًّا، وهو اقتصاد اشتراكي نادر الوجود منذ انهيار الشيوعية في غرب أوربا وانهيار الاتحاد السوفيتي في الحقبة التي تمتد من عام ١٩٨٩ إلى عام ١٩٩١. في هذا الاقتصاد نجد أن كلًّا من الإنتاج والتوزيع والاستهلاك تابعٌ للتخطيط المركزي؛ إذ تملك الدولة الأراضي وكل المصانع وتخصص المصادر لمختلف الـمُنتجين على حسب الخطة القومية، وبالمثل تُوزع السلع على المستهلكين على حسب الحصص الـمُخصصة لها.

عمليًّا، معظم الدول لديها اقتصاد مُختلط. وفي هذا النموذج الـمُختلط، يكون معظم الإنتاج -وبشكل متزايد معظم الخدمات (مثل الطاقة والمواصلات)- في يد القطاع الخاص؛ ولكن لا تزال الحكومة هي التي تُنظم السوق عن طريق الضرائب والتسعيرة وسعر الفائدة وتوفير المال استهدافًا لمخططات معينة. قد تتضمن هذه الخطط ضمان التوظيف الكامل، والتأكيد على النمو الاقتصادي وتجنب التضخم والعجز في موازنة المصروفات. الموازنة هي قيمة ما تستورده البلاد في مقابل ما تصدره.

الملكية Property

الملكية هي امتلاك أي شيء ذي قيمة ملموسة (مثل الأرض أو المباني) أو غير ملموسة (مثل الحقوق الفكرية لعمل فني أو براءات الاختراعات). وأيضًا في القانون والنظريات السياسية، الملكية هي حق امتلاك شيء مما يتضمن الحق في استهلاكه أو بيعه أو تأجيره أو رهنه أو نقله أو تبديله أو تدميره.

يعتقد الاشتراكيون والشيوعيون أن عددًا من الأشياء -مثل وسائل الإنتاج (الأرض والمصانع والمحاجر... إلخ)- ينبغي أن تكون ملكية عامة للدولة. في المقابل، اتفق المحافظون والليبراليون -بحسب الفيلسوف الإنجليزي جون لوك في القرن السابع عشر- على أن للأفراد حقوقًا طبيعية في الملكية التي على أساسها اتسع نطاق العمل، ويتبع ذلك حق انتقال الملكية من جيل إلى آخر. بالإضافة إلى ذلك، أكد المحافظون والليبراليون على أن الملكية الخاصة هي شرط أساسي للحرية. فمن دونها لا يوجد أفراد مستقلون بل أعضاء جماعة فحسب.



الرأسمالية Capitalism

الرأسمالية: هي النظام الاقتصادي الـمُهيمن على العالم الآن. وهي تقوم على رأس المال. هذا الأخير عبارة عن ثروة يمكن استخدمها لجلب ثروة أكبر، وذلك عن طريق استثمارها في بعض الأعمال. في الاقتصاد الرأسمالي، تصبح الوسائل الأساسية للإنتاج والتوزيع والتبادل ملكية خاصة للأفراد أو الشركات. الرأسماليون -الأفراد الذين يملكون رأس المال- أحرار في استخدام ممتلكاتهم وجلب منافع منها في إطار منافسة مفتوحة بينهم.

لقد تتطور النظام الرأسمالي في حقبة الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. قبل ذلك، غالبًا ما كان التنافس مُقيدًا، مثلًا كان الحق في صناعة السلع أو التجارة هدية من النظام الملكي، مما أدَّى إلى احتكارات ظالمة. انتقد آدم سميث هذا الحال من الأعمال، وأكد في كتابه (ثروة الأمم) على أنه إذا كان كل فردٍ حرًّا في القيام بمشروعه الاقتصادي، فسيكون في الناتج المتراكم فائدة للمجتمع بأسره.

وبحسب سميث، أكد المدافعون عن الرأسمالية أنها أكثر النظم الاقتصادية كفاءةً؛ فهي تؤدي إلى قوة التنافس والإبقاء على الأسعار منخفضة وعلى الجودة عالية في آن واحد، وهذا في صالح المستهلك. كما أكدوا أيضًا أنه ينبغي للرأسماليين أن يتحملوا المخاطرة وهم يغامرون بثروتهم في الاستثمار حتى يحصلوا على الفائدة المرجوة.

في هذا الصدد، يتجه الانتقاد إلى أن العمَّال في النظام الرأسمالي معرضون للخطر مثل الرأسماليين، فهم سيخسرون موارد رزقهم إذا أعلنت الشركة -التي يعملون فيها- إفلاسها. من أوجه النقد أيضًا، أن غاية الشركة في النظام الرأسمالي هي المنافسة بقوة لدرجة وضع منافسيها خارج نطاق العمل، وبالتالي الوصول إلى الاحتكار، ومن ثم تحديد السعر الذي تريده لسلعها متجاهلةً الجودة. من أجل الحد من هذا المصير، وضعت العديد من الدول قوانين لمنع الاحتكار، وفي الواقع وضعت الدول قوانين أخرى تَحُدُّ من الحريات الاقتصادية من أجل صالح المجتمع بأسره.

العرض والطلب Supply and demand

في كتابه (ثروة الأمم)، شرح آدم سميث كيف يكون عمل الأفراد من أجل مصلحتهم في اقتصادهم الخاص مُفيدًا على نحو تلقائي للمجتمع بأكمله. وقد أطلق على هذه العملية مصطلح «اليد الخفية»، بمعنى قانون العرض والطلب، وهما مفهومان من المفاهيم الأساسية في الاقتصاد عامةً.

الطلب هو كمية الـمُنتجات (السلع أو الخدمات) التي يستطيع أو يرغب المستهلكون في شرائها. أما العرض فهو كمية المنتجات التي يستطيع أو يرغب المنتجون في بيعها. يتغير العرض والطلب مع الأسعار. كلما ارتفعت الأسعار، كلما قل المستهلكون الذين يستطيعون أو يرغبون في الشراء، في حين يزيد المنتجون الذين يريدون البيع، وذلك لزيادة أرباحهم. وكلما قل السِّعر، كلما زاد المستهلكون الذين يستطيعون أو يريدون الشراء، في حين يقل المنتجون الراغبون في البيع؛ لأن نفعهم في ذلك يقل. في السوق الحر، حين يؤدي السعر إلى تماثل العرض والطلب، فهذا ما يُسمَّى بسعر التوازن.



السوق The market

يقع السوق في قلب الاقتصاديات الرأسمالية، وهو الساحة التي تُباع فيها السلع والخدمات والموارد وتُشترى. يعمل السوق وفق قانون العرض والطلب (انظر ص ٢٤٥)، ويتطلب عمله المنافسة التي تختلف عن مجرد التداول، فالتداول لا يحتاج أكثر من فردين؛ في حين أن السوق يحتاج على الأقل ثلاثة مشاركين، حتى توجد منافسة على الأقل في جانب واحد من المنتج السوقي.

يتراوح السوق بين أسواق المزارعين المحليين، مع حوالي ١٢ منصة عرض، وبين الأسواق في شوارع المدينة الكبيرة والمراكز التجارية والتي تضم نطاقًا واسعًا من باعة التجزئة، يتنافسون ببضائع متشابهة، وصولًا إلى أسواق السلع المستوردة الدولية أو سوق العملة الذي يعمل في عالم افتراضي على شبكات الإنترنت العالمية. يوجد أيضًا سوق العمل، فمثلًا بعض الحكومات تسعى إلى تشجيع المستثمرين الأجانب لبناء مصانع في دولها بتوفيرها للعمالة اللازمة لهذه المصانع، والتي تتمتع بحماية قانونية وحقوق أقل من تلك التي يتمتع بها عمال الدول المنافسة.

يؤكد مناصرو السوق الحر غير المقيد على أن هذا النظام من أكثر الوسائل فاعلية لإقامة اقتصاد. ففي هذا النظام -وببساطة- تخسر الشركات التي لا تستطيع أن تنتج السلع والخدمات بجودة كافية أو بسعر مناسب لطلب المستهلكين، في حين يكسب المنافسون الأكثر كفاءةً. ويؤكد أيضًا مناصرو السوق الحر أن هذا النظام يُجدي نفعًا لكلٍّ من المنتجين (الذي يجنون أرباحًا) والمستهلكين (الذين يحصلون على ما يحتاجون إليه بالسعر الذي هم مستعدون لدفعه).

يتجه النقد لهذا النظام صوب حدود كفاءة السوق الحر. فمثلًا قانون العرض والطلب لا يوافق بالضرورة الحاجة الاجتماعية مثل خدمات النقل في المناطق السكنية البعيدة، كما أن النظام الرأسمالي لا يُولي التلوث البيئي الناتج عن المنتجيين اهتمامًا، ولا يمنع تكدس الثروة في يد عددٍ ضئيل من الأفراد. وفي الآونة الأخيرة، غالبًا ما تُجمِع الدول على ضرورة وجود درجة ما من التدخل الحكومي في نظام السوق عبر التنظيم القانوني والضرائب.

العمل Labour

يشير العمل إلى كلٍّ من القوة العاملة عامةً، لا سيما العاملين براتب والحاصلين على الأجر في مقابل الخدمة في إطار إنتاج الثروة. في سوق العمل غير المقيد تمامًا والتابع لقوانين العرض والطلب (انظر ص ٢٤٥)، ينبغي على العمال أن يتنافسوا فيما بينهم عن طريق عرض عمل أكثر مع أجر أقل. وللحد من ذلك، أنشأ العمال اتحادات عمالية، والتي من مهامها الدخول في مساومات مع العمَّال في محاولة الوصول إلى أجر محدد ومساوٍ لجهد العمل.

ابتكر الاقتصادي الإنجليزي دافيد ريكاردو David Ricardo (١٧٧٢-١٨٢٣) ما يُعرف «بنظرية العمل للقيمة» «Labour theory of value»، والتي تؤكد أن القيمة المتبادلة للسلع والخدمات تُحدَّد بحسب كمية العمل الـمُتضمنة في إنتاجها فقط. كما طَوَّرَ كارل ماركس (انظر ص ٢٠٦) هذه الفكرة، حين أكد أن الرأسماليين يحصلون من خلال سعر المنتجات التي يبيعونها على قيمة العمل في إنتاجها، في حين أنهم يدفعون للعمال ما هو أقل من قيمة عملهم، فتكون الحصيلة «عمل زائد» يُنتج «قيمة زائدة»، وهذه الأخيرة تعني «الأرباح الرأسمالية».



التجارة الحرة في مقابل سياسة الحماية الاقتصادية
Free trade vs protectionism

التجارة الحرة هي السياسة التي بموجبها يُسمح بالتجارة الحرة بين الدول دون أي قيود. يمكن أن تتبلور هذه القيود في شكل كوتة (قيود فيزيقية لحجم المستوردات)[٢٧] أو جمارك (ضرائب على الصادرات والواردات) أو حدود للتبادل (قيود من قِبل البنوك المركزية على

(٢٧) يمكن أن تمثل القيود الفيزيقية لتبادل السلع في الحدود المكانية للطائرات والسفن التجارية في نقل البضائع. (المترجم).

العملات الأجنبية المتوفرة للواردات) أو الدعم الحكومي للمنتجات المحلية. كل هذه الإجراءات الـمُقَيِّدة للتجارة الحرة تُسمى «بسياسة حماية الاقتصاد» Protectionism – حماية الاقصاد من آثار التنافس التجاري الدولي.

كانت سياسة الحماية الاقتصادية تقريبًا سياسة عالمية، إلى أن أكد آدم سميث في كتابه (ثروة الأمم) أنه إذا كانت الدولة غنية بمورد ما، أو تمتع بكفاءة في صناعة ناتج ما، فإنها ستنتج ما تمتاز به على نطاق أكبر وستساهم بشكل هائل في الثروة العامة إذا سُمح لها بالتصدير دون قيود إلى الدول الأخرى.

اتفق مناصرو التجارة الحرة الذين اتبعوا آدم سميث في القرن التاسع عشر على أن سياسة الحماية الاقتصادية غالبًا تكون في صالح عددٍ ضئيل من المنتجين على حساب باقي الشعب. كما أشاروا بشكل خاص إلى سياسة الذرة البريطانية التي قيدت استيراد الحبوب للحفاظ على السعر المحلي عاليًا لمصلحة المزارعين البريطانيين. إلا أن هذه السياسة قد أدَّت إلى اضطرار العمال البريطانيين إلى دفع أسعار عالية لشراء الخبز، ونتيجة لذلك اشتكت المصانع قلة الأرباح من بيع منتجاتها[٢٨].

وعلى الرغم من أن قانون الذرة استُبدل في عام ١٨٤٦، إلا أن سياسة حماية الاقتصاد استمرت في كونها معيارًا للتجارة الدولية، خصوصًا في

(٢٨) أدت سياسة الذرة البريطانية –والتي بموجبها تم منع استيراد الحبوب– إلى قيام المزارعين برفع أسعار الذرة؛ لأنهم قد أصبحوا المنتجين المحتكرين بسبب غياب المنافسة. وأدَّى ذلك بالتالي إلى رفع أسعار هذا المنتج بالنسبة للمصانع. وقد أدى ذلك إلى قلة الإقبال على هذه المنتجات بسبب ارتفاع السعر. (المترجم).

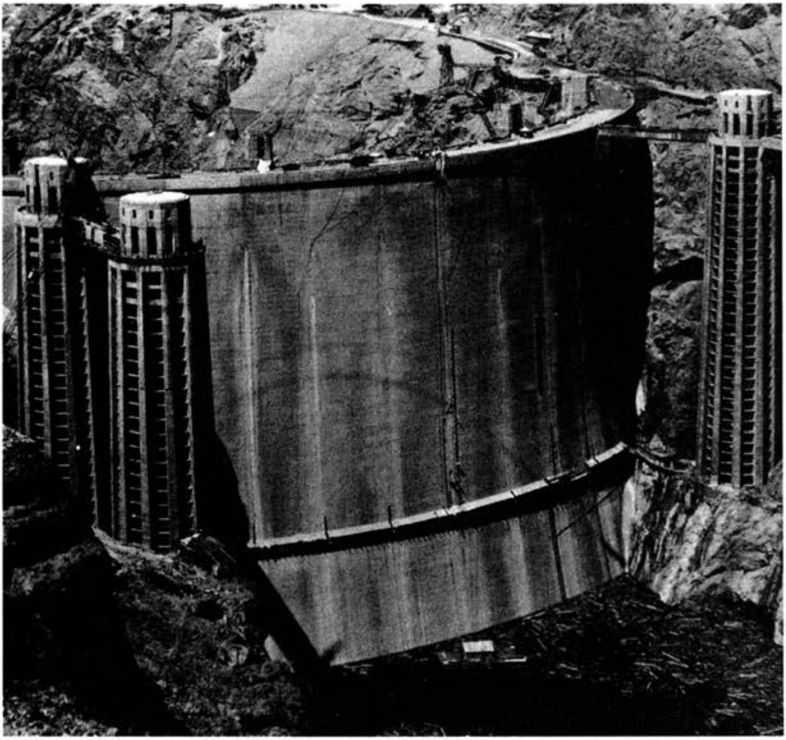
فترات الانكماش الاقتصادي. في النصف الثاني من القرن العشرين، تكوَّن عددٌ من مناطق التجارة الحرة والأسواق العامة، ولكن لا تزال هناك قيود على غير الأعضاء المشاركين في هذه المناطق التجارية الدولية الحرة. وقد قامت منظمة التجارة العالمية بعقد جلسات عدة من أجل توسيع نطاق التجارة الحرة عالميًّا. واتفق بعضهم -على الرغم من ذلك- على أن التجارة الحرة غير المقيدة تنحاز إلى مصالح الدول الثرية على حساب التطور الاقتصادي للدول الأفقر.

اقتصاد كينزي Keynesianism

الكينزية هي النظرية الاقتصادية التي طوَّرها الاقتصادي الإنجليزي جون ماينارد كينز John Maynard Keynes (١٨٨٣-١٩٤٦) في أزمة البطالة الضخمة التي سادت في ظل الكساد الكبير في ثلاثينيات من القرن العشرين. ففي حين أكد بعض الاقتصاديين أن السوق الحر سيؤدي قريبًا إلى توظيف كامل إذا وافق العمال على راتب أقل، شدَّد كينز على أن أزمة البطالة هي نتيجة قلة الطلب على السلع والخدمات، وأن تخفيض الرواتب لا يؤدي إلا إلى استمرار قلة الطلب.

ومن أجل تحفيز الطلب، أيَّدَ كينز تدخل الحكومة بمثل تمويل المشاريع العامة. وقد اتبعت الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه السياسة في الثلاثينيات وفق الإجراءات الاقتصادية التي اتخذها الرئيس روزفلت Roosevelt، والذي قام بمشاريع عملاقة مثل سد هوفر Hoover Dam. وفي الخمسينيات والستينيات تبنت العديد من الحكومات الغربية سياسات كينز الاقتصادية. ولكن أنصار النظرية

النقدية Monetarists (انظر ص ٢٥٤) في السبعينيات هاجموا أفكار كينز، ومع ذلك فلا يزال لنظرية كينز تأثير اقتصادي كبير؛ فقد أثبتت فعاليتها وقت الأزمة الاقتصادية في عامَي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨.



النمو الاقتصادي Growth

وفق المصطلحات الاقتصادية، النمو هو زيادة في إنتاج السلع والخدمات خلال مدة زمنية محددة. تتخذ الحكومات من النمو الاقتصادي واحدةً من أهم أهداف سياساتها، حيث يساهم هذا النمو في رخاء المجتمع

ويسمح بارتفاع معدل الشراء من قبل المستهلكين، كما يساهم في قدرة الحكومة على تقديم خدمات أفضل لمواطنيها مثل التعليم والصحة. وكل هذا يؤدي إلى ارتفاع مستوى معيشة الشعب.

يمكن لعوامل عدة التأثير على نمو اقتصاد الدولة: زيادة كميات السلع الرأسمالية وجودتها (مثل آلات المصانع)، وزيادة القوة العاملة، والمصادر الطبيعية؛ ويؤدي رفع كفاءة وفاعلية هذه العوامل إلى إنتاجية أعلى وتقدم تكنولوجي وتحفيز الابتكار وزيادة الطلب العام. كما تؤدي الزيادة والفاعلية في الإنتاج والتوزيع إلى انخفاض أسعار السلع، كما أنها تؤدِّي أيضًا إلى زيادة الأجر الحقيقي للعمَّال مما يؤدي بدوره إلى رفع معدلات الطلب.

لكلٍّ هذه العوامل دورٌ مثاليٌّ عندما تكون الدولة مُصنعة، وهو ما حدث في أوربا وأمريكا الشمالية خلال الثورة الصناعية في القرن الثامن والتاسع عشر، ويحدث الآن في دول مثل البرازيل والهند والصين، ففيها يتعدَّى معدل النمو الاقتصادي معدلات النمو في دول الغرب الآن.

وقد تم توجيه النقد -من جوانب عديدة- للنمو الاقتصادي بوصفه هدفًا محوريًّا للدول. إذ يمكن للنمو الاقتصادي أن يولد حاجات مُصطنعة، تَبدو للمستهلكين كأنها حاجات أساسية بالنسبة لهم، ومن ثم ينبغي لهم أن يحصلوا على أحدث صيحاتها، حتى لو لم يكن لديهم حاجة إليها اليوم.

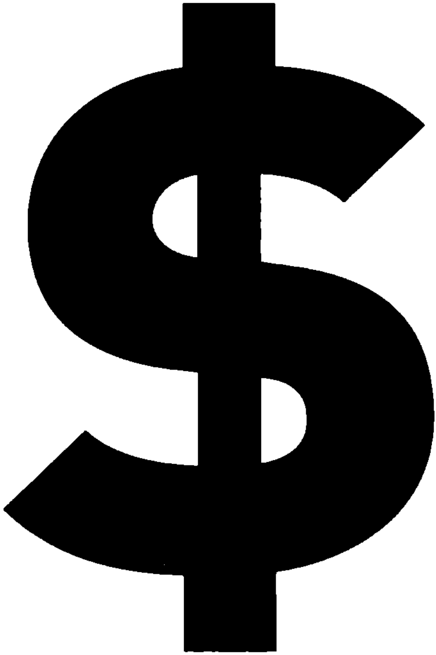
كما يمكن للنمو الاقتصادي غير المحدود أن يؤدي إلى نضوب المصادر الطبيعية غير المتجددة، مثل المعادن والحفريات والوقود.

ويمكن له أيضًا أن يؤدي إلى المزيد من الأعمال الصناعية والزراعية الـمُدمرة للبيئة. يتفق بعضهم إذنْ على أنه ينبغي للنمو الاقتصادي أن يقف عند مستوى معين من أجل الحفاظ على الكوكب.

النظرية النقدية Monetarism

النظرية النقدية هي نظرية اقتصادية ذات تأثير كبير منذ سبعينيات القرن العشرين، وهي مرتبطة بالاقتصادي ميلتون فريدمان Milton Friedman (١٩١٢-٢٠٠٦). تشدد هذه النظرية على أن العامل الرئيس في الاقتصاد هو الضخ المالي أي القدرة المالية العامة للاقتصاد، في شكل العملة والودائع البنكية. فإذا زاد الضخ المالي من دون أن يكون متوازنًا مع زيادة إنتاج السلع والخدمات، فسيزيد الطلب ويؤدي هذا إلى تضخم.

في مقابل أنصار الاقتصاد الكينزي (انظر ص ٢٥١)، يرى أصحاب النظرية النقدية أنه -إلى جانب دور الدولة في تنظيم الضخ المالي- لا ينبغي على الحكومة التدخل في الاقتصاد. ومع إيمانهم بالسوق الحر (انظر ص ٢٤٩)، فهم يرفضون السعي إلى التوظيف الكامل للعمالة، مؤكدين أن درجة ما من البطالة تساعد على إبقاء الأجور منخفضة، وبالتالي القدرة على التحكم في التضخم. في السبعينيات -عندما حلت أزمة التضخم الكبيرة- اتبعت حكومات عديدة النظرية النقدية في الثمانينيات، مثل حكومة الرئيس ريجان Reagan في الولايات المتحدة الأمريكية، وحكومة السيدة تاتشر في إنجلترا.



التطور الاقتصادي Development

في الإطار الاقتصادي، يشير مصطلح «التطور» إلى العملية التي بموجبها تتحول المجتمعات الفقيرة التي تعتمد على الزراعة إلى مجتمعات اقتصادية صناعية حديثة. وعلى الرغم من أننا غالبًا ما نطابق بين التطور والنمو الاقتصادي (انظر ص ٢٥٢)، إلا أن التطور الاقتصادي يتضمن في الواقع تحولًا بنيويًّا، وبالتالي فهو يُحدث تغيرات كيفية بقدر ما هي كمية.

لقد أصبح التطور موضوعًا دوليًّا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما انحصر الاحتلال الأوربي وتحررت منه مستعمراته (انظر ص ١٩٢). وعلى الرغم من أن توازن القوى السياسية قد تغير حينها، إلا أن العالم النامي الذي يحظى باهتمام الدول الغربية ظلَّ سوقًا لهذه الدول ولسلعها، كما ظلَّ مصدرًا مستمرًّا لمواردها الطبيعية وسلعها الزراعية، ولا يزال الاستعمار مسيطرًا، ولكنه اتخذ شكل الاستعمار الاقتصادي. وغالبًا ما ترتبط المساعدات الـمُقدمة من هذه الدول بمصالحها اقتصادية، لا سيما خلال الحرب الباردة، والتي ارتبط الدعم فيها بمصالح سياسية أيضًا. وقد ظلت الدول الغنية -ولسنواتٍ طويلة- تشكل خمس العالم فقط، في حين تشكل الدول الفقيرة باقي العالم.

بدأت الصورة تتغير بعد الحرب الباردة؛ إذ ركزت دولٌ -مثل الصين- على الاقتصاد المركزي الاشتراكي، وبدأت في عملية نمو اقتصادي سريعة. واليوم لا يزال خُمس العالم غنيًّا اقتصاديًّا، ولكن ثلاثة أخماس العالم قد انطلقت صناعيًّا، وقد يُدرك سريعًا الخُمسَ الغنيَّ، ولا يزال الخُمس الأخير فقيرًا، لا سيما جنوب صحراء إفريقيا الكبرى. وقد تم تحديد العديد من العوامل التي دحرت التطور الاقتصادي في مثل هذه الدول؛ ومن بينها الحرب الأهلية والقيادة الضعيفة والفساد والاعتماد على مورد طبيعي واحد كالزيوت والماس.

في ٢٠٠١ أعلنت الأمم المتحدة «ثمانية أهداف للتطور في هذه الألفية». ومنها السعي إلى القضاء على الجوع والفقر المدقع؛ وأن يكون التعليم الابتدائي إلزاميًّا؛ والمساواة بين الجنسين وتعزيز حقوق المرأة؛

والحد من موت الأطفال؛ وتحسين صحة الأم؛ ومحاربة الإيدز والملاريا وأمراض أخرى؛ والحفاظ على البيئة؛ والمشاركة العالمية من أجل التطور. كان من المتوقع إنجاز كل ذلك في ٢٠١٥، ولكن هذا التقدم قد أثبت أنه بطيء جدًّا في هذا الصدد.

العولمة Globalization

بدأت ظاهرة العولمة برحلات الاستكشاف الأوربية في القرن الخامس عشر والسادس عشر، والتي بشَّرت بعالم جديد من التجارة الدولية والهجرة والتبادل التجاري. وقد تسارعت وتيرة هذه العملية في العقود الحديثة، خصوصًا في نهاية الحرب الباردة. فقد خُفِّضت القيود التجارية والسياسية، مما جعل الشركات الغربية تنقل قواعدها الصناعية إلى الدول النامية ذات الأجور أقل للعمال. لعبت أيضًا ثورة النقل والاتصالات -لا سيما ناقلات الحاويات والإنترنت- دورًا في اتساع نطاق العولمة.

أدت العولمة إلى ارتفاع كبير في معدلات النمو الاقتصادي لدى الاقتصاديات «الصاعدة» مثل الصين والهند، كما أدت أيضًا إلى انتشار قيم الديموقراطية الغربية. إلا أنه قد تم توجيه النقد للعولمة؛ لأنها تزيد من معدلات ظلم واستغلال العمال في العالم النامي، وتُنحِّي جانبًا المنتجين المحليين لصالح الشركات الـمُتعددة الجنسيات، كما أنها تُهدد التنوع الثقافي بتجانس أعمى يُهيمن على كل شيء من الوجبات السريعة إلى الأفلام وحتى الموضة.



نظرية اللعبة Game Theory

نحن نتصور عند تفكيرنا في الاقتصاد أنه عبارة عن معادلات ورسومات بيانية، ولكن هذا التصور غير دقيق؛ لأن الاقتصاد يتضمن أيضًا مسالك البشر وتصرفاتهم التي ليست دائمًا منطقية. أحد الإجراءات التي يستخدمها الاقتصاديون لفهم الاقتصاد ترتبط بنظرية اللعبة، والتي يتم تطبيقها أيضًا في مجالات أخرى.

نظرية اللعبة هي فرع من الرياضيات التطبيقية، ولكنها تتضمن نهجًا مختلفًا جدًّا عن الرياضيات التطبيقية المستخدمة في العلوم الفيزيائية، والتي تتطلب توقع ما يحدث في العالم بمعزل عن الإنسان.

أسس هذا المجال الأمريكيان جون فون نيومان John von Neumann وأوسكار مورجنسترن Oskar Morgenstern في كتابهما (نظرية اللعبة والسلوك الاقتصادي) (١٩٤٤). في هذا النظرية، شبَّه العالمان الاقتصاد باللعبة التي يقوم فيها اللاعبون بتوقع تحركات اللاعبين الآخرين. منذ بزوغها، استُخدمت نظرية اللعبة في العديد من المجالات التي يكون لقرارات المشتركين فيها تأثير على الناتج النهائي. وهذا بدءًا من الاستراتيجيات الحربية، ووصولًا إلى الاستراتيجيات السياسة والتطور البيولوجي. تتجاوز نظرية اللعبة نظرية الاحتماليات الكلاسيكية في كونها تأخذ في الاعتبار سيكولوجيا العوامل مثل المصلحة الخاصة والمساومة والخداع.

واحدة من أشهر السيناريوهات في نظرية اللعبة تُسمَّى «مُعضلة السجين». وفيها يتم استجواب فردين متهمين بارتكابهما جرائم، كلًّا على حِدَةٍ. ويمنح لكلٍّ منهما الخيارات ذاتها: الاعتراف أو عدم الاعتراف. ويتم إبلاغهما أنه إذ اعترف أحدهما ولم يتكلم الآخر، فسيكون مَن اعترف حرًّا وسيُسجن الآخر عشرة أعوام. أما إذا بقي الاثنان دون اعتراف، فسيُسجن الاثنان سنة واحدة. وإذا اعترف الاثنان، فسيُسجنان خمسة أعوام.

رياضيًّا، الحل الأمثل هو بقاؤهما هما الاثنان دون اعتراف. ولكن نظرية اللعبة تقترح أن الاثنين -طبقًا للأنانية البشرية- سيعترفان على

أمل أن يُطلق سراح أحدهما بدلًا من المخاطرة بأن يكون الفرد الذي لم يعترف، وبالتالي يحصل على أقصى عقوبة. ومن ثم فإن الحل الأمثل هنا ليس هو الحل الواضح، على الرغم من أنه إذا تكررت الـمُعضلة مرات عديدة، سيتعلم المشاركون حسن التعاون.

الفصل السَّادس

علم الاجتماع

علم الاجتماع Sociology

يدرس علم الاجتماع المجتمعات الإنسانية، لا سيما تطورها وتنظيمها وعملها وتصنيفها. يرتبط مصطلح علم الاجتماع بالفيلسوف الوضعي الفرنسي أوجست كونت Auguste Comte (انظر ص ٥٧) في القرن السادس عشر، والذي اعتقد أن علم الاجتماع يمكن أن يكون عِلمًا. طَوَّرَ المجال بعده الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم Emile Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧)، ثم الألماني ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠).

واليوم -بسبب عدم قدرة قياس نتائج علماء الاجتماع على نحو تجريبي- يُنظر إلى علم الاجتماع بوصفه «علم اجتماعي» شأنه شأن المجالات الأخرى، مثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسياسة وعلم الاقتصاد وعلم النفس. تنطوي الأدوات الـمُستخدمة في علم الاجتماع على الدراسات الإحصائية للسلوكيات وللظروف الاجتماعية، بالإضافة إلى المشاركة والملاحظة والمقارنة المنهجية لمختلف المجتمعات. أما مجالات اهتمام علم الاجتماع فتشمل طبقات المجتمع، والجريمة، والانحراف، والطرق التي بها تُؤثر بنية المجتمع الكلية وشتى مؤسساته كالمدرسة أو الجيش على سلوك الفرد والمجتمع.



الأنثروبولوجيا Anthropology

تعني الأنثروبولوجيا بالمعنى الحرفي «دراسة الإنسان»، وبالتالي فنطاقها واسع جدًّا، يتضمن أنثروبولوجيا الآثار واللغويات وأيضًا الأنثروبولوجيا الفيزيائية والاجتماعية (أو الثقافية). ومن ثم يمكن أن تُخلط عناصر من العلوم الفيزيائية والعلوم الإنسانية وأيضًا العلوم الاجتماعية. عندما بدت الأنثروبولوجيا الحديثة الظهور في القرن التاسع عشر، كانت تدرس كل هذه الموضوعات مجتمعة. ولكن اليوم، يُنظر إلى مختلف فروع الأنثروبولوجيا -في عددٍ من الجامعات- بوصفها وحدات

منفصلة تُدرس في أقسام مختلفة بل كليات مختلفة.

ينظر اليوم إلى الأنثروبولوجيا الفيزيائية -وهي دراسة أصول الإنسان وتطوره وتنوعه الفيزيائي- بوصفها فرعًا من البيولوجيا الإنسانية. يمكن للأنثروبولوجيا أن تصب في علم الآثار وعلم الجينات وعلم السلوك (دراسة سلوكيات الحيوانات)، وبالمثل يمكنها دراسة العلاقة بين بيولوجيا الإنسان وبين البيئة وبين ثقافته ومجتمعه -أي الأشياء التي تميز الإنسان عن باقي الحيوانات. إن بعض الأعمال الأنثروبولوجية الفيزيائية التي قارنت بين «الأجناس» البشرية عن طريق تقنيات مثل قياس الجمجمة، صارت اليوم غير جديرة بالثقة ووُصفت بأنها علم زائف عنصري (انظر ص ١٩٢).

تتعلق الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالبنيات الثقافية والاجتماعية للجماعة الإنسانية. عندما تطور هذا المجال في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان التركيز على المجتمعات «البدائية»، ومجتمعات ما قبل الصناعة، وذلك على الرغم من أن الأنثروبولوجيين على مر العقود طوروا مناهج لدراسة المجتمعات الصناعية الحديثة أيضًا.

تُسمَّى المقارنة المنهجية للثقافات المختلفة بالأثنولوجيا، في حين أن الأثنوجرافيا هي دراسة ثقافة معينة أو مجتمع معين. تقوم الأثنوجرافيا عادةً على المشاركة والملاحظة، ويمكن للأنثروبولوجي أن يمكث في هذه الثقافة فترات طويلة. ما بين الموضوعات العديدة التي يهتم بها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون -مستخدمين النهج الأثنوجرافي أو النهج الأثنولوجي الذي يمتاز بكونه ذا وجهة نظرية أكثر عمقًا- توجد القرابة

والعلاقات بين الجنسين وتربية الأطفال والعادات والطقوس والأساطير والديانة والاستهلاك والتبادل والألعاب والحفلات والمنتجات الثقافية مثل الأدوات والغذاء والملابس.

النسبية Relativism

لمفهوم النسبية أهمية خاصة في الأنثروبولوجيا. ومن الشائع التمييز بين النسبية الثقافية والأخلاقية والمعرفية والمنهجية. وفي عصر التنوير ظهرت النسبية الثقافية التي تقوم على فكرة أنه لا يوجد ثقافة «أرفع» من الأخرى، ولكن هذه النسبية الثقافية كمبدأ في الأنثروبولوجي لم تستقر إلا في بداية القرن العشرين، إذ تهدف إلى استبدال المناهج الإثنية بمنهج موضوعي جديد.

أدت النسبية الثقافية إلى اتباع بعض الأنثروبولوجيين المنهج النسبي الأخلاقي الذي يرفض مثلًا حقوق الإنسان العالمية (انظر ص ٢٢٩). كما اقترح علماء آخرون ضرورة تبني نسبية معرفية ما، مؤكدين أن الثقافات المختلفة تتواجد في دوائر مختلفة من الفكر والمعرفة، وأنه من الصعب أو من المستحيل تعدِّي هذه الحواجز التي تفصل بين هذه الدوائر الثقافية. وقد فقدت اليوم النسبية الأخلاقية والمعرفية كثيرًا من مصداقيتها، ومع ذلك فلا يزال الأنثروبولوجيون يتبعون المنهج النسبي، يبتغون بذلك تنحية ثقافاتهم الخاصة وأحكامها الأخلاقية الـمُسبقة جانبًا من أجل فهم معتقدات وسلوكيات الآخرين.



التعديل الكبير في جسد المرأة ذات رقبة الزرافة يمكن أن نراه بوصفه مثالًا نموذجيًا للظواهر الثقافية التي تبدو غريبة بالنسبة للمعايير الغربية.

الطقوس Ritual

يهتم الأنثروبولوجيون اهتمامًا خاصًّا بالطقوس، ويسعون لفهم مغزى الأفعال التي تبدو بالنسبة للأغراب غريبةً، في حين أنها تحظى بأهمية كبيرة أو روتينية بالنسبة للمشاركين فيها. وغالبًا ترتبط الطقوس بممارسة الدين، ولكن مصطلح الطقوس يمكن أن يتضمن أيضًا أفعالًا توصف بأنها تقاليد للجماعة مَوضَع الدراسة. يمكن لهذه الأفعال أن تكون رمزية، ولكن يمكن أن يكون لبعضها وظيفة هامة.

لدينا أمثال عديدة على الطقوس بدءًا من طقوس العبور (مثل الأفراح والجنازات) وأفعال العبادة (مثل تقديم القربان) واحتفال القبول (مثل الدخول في مجموعة طقوسية خاصة) وحتى التعبير الجماعي عن الاحترام أو الاستحسان (مثل الاستحسان في نهاية العرض المسرحي)، على السبيل المثال وليس الحصر.

في بعض الأحيان تُخصص أماكن معينة لإقامة الطقوس، لا سيما الطقوس التي يقوم بها عددٌ من الأفراد. تُوجد هذه الأماكن في المعابد والمسارح والساحات الرياضية. كما يمكن إقامة بعض الطقوس في أي مكان، فمثلًا في العديد من المجتمعات عندما يتقابل شخصان يؤديان التحية بسلام الأيدي أو الأحضان أو القبلات.

تتنوع غايات الطقوس: تستوفي الطقوس الدينية المشاعر والحاجات الروحية، ويمكنها أيضًا أن تساعد على توطيد أواصر المجتمع والتعبير عن معتقداتِهِ وقيمِهِ المشتركة، كما هو الحال في العديد من الطقوس الجماعية. بعض الطقوس تشير إلى مرحلة انتقال هام، ومنها طقوس

العبور التي تُعبِّر عن تغير الحال، مثل الختان عندما يصل الولد إلى مرحلة البلوغ، أو مثل الجنازة التي تشير إلى الوفاة.

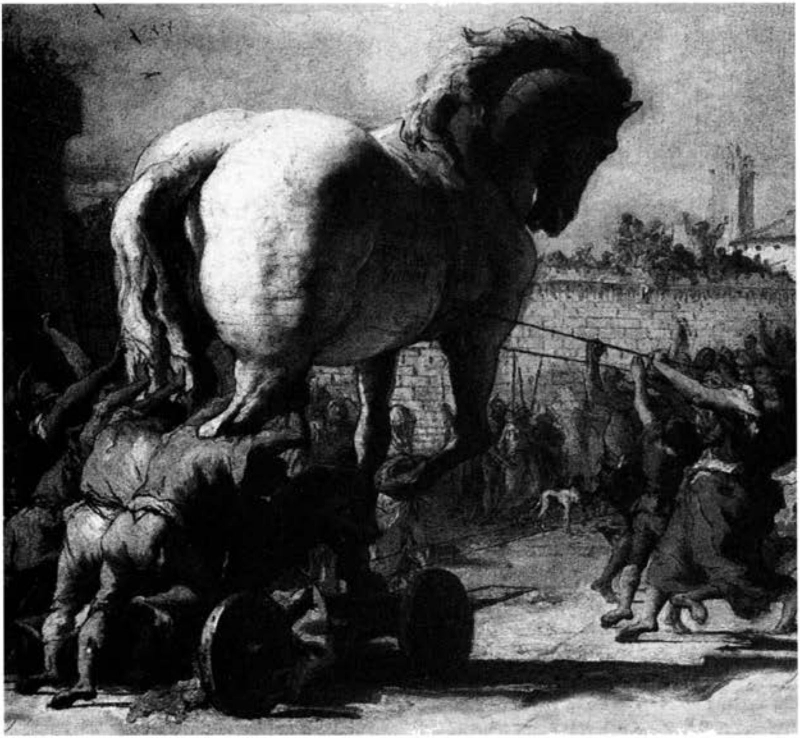
لقد فكر الأنثروبولوجيون في إيجاد بنيات مشتركة للطقوس، ورؤية ما إذا كانت طقوس الثقافات المختلفة تتضمن مكونات عالمية في السلوك الإنساني. فقد أشاروا مثلًا إلى أن كل طقوس العبور تتضمن ثلاث مراحل: الانفصال، والانتقال، والاتحاد. وتُوجد هذه المراحل في كل أنواع المراسم، سواء المراسم التي يصبح بها الأولاد في ماساي Masai في شرق إفريقيا محاربين، أو الطقس الإسكتلندي الذي يُسمَّى بطقس «القدم الأولى» في هوجمني Hogmanay.

الأسطورة Myth

على مستوى العالم ابتكرت كل المجتمعات الإنسانية أساطيرها؛ لكي تفسر العالم وتعزز هويتها. تسعى الأساطير إلى تفسير الظواهر الطبيعية –من تعاقب الفصول المختلفة إلى أصل الإنسان– ولتفسير أشياء أخرى مثل الشر والموت والمحرمات والزمن. لدينا مثلًا أساطير نشأة الكون Cosmogonies الشائعة بين كل الناس قبل عصر تقدم العلم. وعلى الرغم من أن العلم سرق دور الأساطير في التفسير، إلا أنها ظلت باقية لما تتضمنه من مشاعر وصدى روحي.

ولا يزال دور الأسطورة في توحيد المجتمعات دورًا مهمًّا عند القبائل والدول. تتضمن هذه الأساطير الأبطال القوميين (مثل جان دارك Joan of Arc وجورج واشنطون George Washington) أو الأحداث التاريخية (مثل استقرار سفينة ماي فلور Mayflower، أو جلاء دونكيرك

Dunkirk). إن عملية صناعة الأساطير Mythopoeia عملية مستمرة يقوم بها على نحو متواتر مسؤولو الدعاية للحكومات وخبراء العلاقات العامة.



الطبقة Class

نستخدم اليوم مصطلح الطبقة لتقسيم المجتمع. لكن هناك أيضًا العديد من الطرق لتقسيم المجتمعات. ومثالٌ على ذلك التقسيم الرأسي المبني على الجنس والإثنية والدين واللغة، ولا تزال هذه الأخيرة حتى اليوم تتمتع بتقسيم عرضي قائم على الطبقة.

ظهر التقسيم العرضي في المجتمعات الإنسانية منذ أن انتقلت من

نشاط الصيد والجمع إلى الزراعة المستقرة. مثل تقسيم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات (النبلاء، ورجال الدين، والعامة)، ومثل النظام الطبقي للجماعات الدينية الهندوسية Caste System الذي ساد على الأقل ألفي عام في الهند.

في النظام الطبقي الهندوسي الهندي، يصبح الفرد محدودًا -بشكلٍ دائمٍ- بطبقته التي وُلد فيها ويحرم عليه الزواج من خارجها. كما تُملي عليه طبقته الوظائف التي ينبغي عليه العمل بها. في القمة يوجد البراهمة أو الكهنة، وفي القاع يوجد المنبوذون Dalits الذين يقومون بالأعمال الوضيعة. وعلى الرغم من أن عصر الصناعة وشرعية الحكومة قد خففتا من حدة هذا النظام الطبقي، إلا أنه لا يزال يتمتع بقوة كبيرة في الهند.

في النظام الرأسمالي الصناعي الحديث، التقسيم الأساسي للمجتمع هو التقسيم الطبقي. والـمُحدد الأساسي للطبقة هو الدخل الاقتصادي، وبالتالي تتوفر إمكانات أكبر للحراك الاجتماعي داخل النظام الطبقي. لقد تصور كارل ماركس (انظر ص ٢٠٦) أن هناك علاقة مشتركة بين الطبقة ورأس المال، ويُقصد برأس المال الملكية مستخدمة لتوليد منافع (انظر ص ٢٤٣)، وقد أشار ماركس في هذا الصدد إلى طبقتين رئيستين: الطبقة البرجوازية التي تملك معظم رأس المال وتُوظِف معظم القوة العاملة؛ وطبقة العمال الذين لا يملكون رأس المال ويعملون لدى البرجوازيين في مقابل أجر.

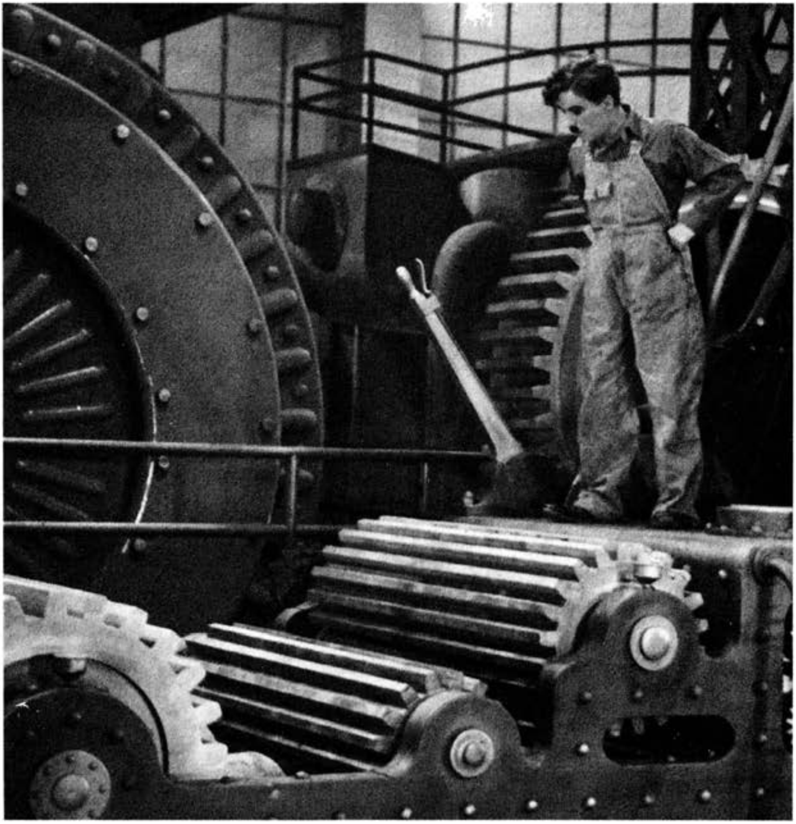
اليوم، نحن نميل إلى التفكير في الطبقة على أساس الحالة الاقتصادية

والمنصب. هذه الفكرة اقترحها عالم الاجتماع ماكس فيبر Max Weber. وينطوي هذا التقسيم على الطبقة العليا المتوسطة (المدراء الكبار وذوو الوظائف العليا مثل الدكاترة والمحامين) في أعلى السلم، ثم أصحاب الأعمال اليدوية في الدرج الأسفل.

العزلة Alienation

العزلة هي العملية التي بموجبها يفقد الأفراد الذين يعيشون في المجتمعات الرأسمالية الصناعية الحديثة شعورهم بالانتماء للمجتمع، فيصبحون عاجزين ومسلوبي الشخصية. لقد أكد كارل ماركس (انظر ص ٢٠٦) أن العمال يعانون من الانفصال عن المجتمع، ويشعرون أنهم مجرد أدوات وسلع. وكل هذا ناتجٌ عن النظام الصناعي وتقسيم العمل والظروف التي تؤدي إلى فقدان العامل سيطرته على عمله؛ فيصبح في هذا الإطار مجرد أداة. في عام ١٩٣٦، ظهر فيلم العصر الحديث Modern Times لشارلي شابلن Charlie Chaplin وقد أدَّى فيه دور رجل أصابه الجنون من جراء العزلة النابعة من عمله في خط إنتاج مصنع.

يربط بعض علماء الاجتماع بين العزلة والعبث، وهي حالة تسود المجتمع عندما تتفكك المعتقدات العامة وتختفي الثوابت الأخلاقية. ويؤدي كلٌّ من العزلة والعبث إلى اللا مبالاة وعدم الاكتراث بالسياسية، بل إلى مشاكل نفسية والرغبة في الانتحار.



الانحراف Deviance

الانحراف مصطلح مستخدم من قبل علماء الاجتماع للإشارة إلى تجاوز الفرد للقواعد السلوكية المجتمعية. يدين المجتمع هذه الانحرافات عن «قواعده السلوكية» التي هي بمثابة قوانينه وقواعده: وبعضها أخلاقي، وبعضها متضمن في القانون، وبعضها برجماتية تمامًا، في حين أن بعضها الآخر يتسم بلا منطقية على نحوٍ كبير.

تختلف القواعد السلوكية من مجتمع إلى آخر وتتغير من زمنٍ إلى آخر، وحتى في المجتمع نفسه يمكن أن يكون لدى المجموعات المختلفة (مثل الطبقة أو الفئات العمرية) قواعد سلوكية مختلفة خاصة بكل منهم على حدةٍ. بعض هذه القواعد السلوكية عالمية مثل تحريم القتل ونكاح المحارم وأكل لحوم البشر. وبعض القواعد السلوكية الأخرى خاصة بالثقافة؛ فمثلًا إشارة «رفع إبهام اليد إلى أعلى» مقبولة في العديد من الدول الأوربية، لكنها تُعتبر إهانة جنسية في جنوب سردينيا.

يمكن للمجتمع أن يعتبر مجموعة كاملة من الأفعال والمعتقدات أو الظروف انحرافًا، وهذا بدءًا من خرق آداب المائدة وصولًا إلى المحرمات الجنسية وإهانة الدين والتعبيرات العنصرية، والانحراف الجسدي أو العقلي والجرائم مثل السرقة أو القتل. كما تتراوح إدانة هذه الانحرافات بين التعبير عن عدم الرضى وذلك عن طريق اعتزال المنحرف، وحتى العقاب القانوني ممثلًا في السجن أو حتى عقوبة الإعدام.

على مر العقود القليلة السابقة، تدل مواقف المجتمعات تجاه المثليين على أنه يمكن للقواعد السلوكية أن تتغير. في الماضي، كان الأطباء النفسيون ينظرون إلى المثليين لا باعتبارهم منحرفين عن العملية الجنسية الطبيعية فقط، بل وبوصفهم أيضًا مرضى عقلين يحتاجون إلى العلاج. في ذات الوقت، أدانت القوانين الأوربية العملية الجنسية المثلية بوصفها جريمة يعاقب عليها القانون. أما اليوم، فإن المجتمعات المستنيرة تنظر إلى المثليين باعتبارهم مختلفين وليسوا منحرفين، ومن ثم لم تعد المثلية الجنسية جريمة أو مرضًا!

وبما أن وضع القواعد السلوكية والدفاع عنها ما هو إلا تعبير عن القوة المجتمعية، فقد فسر بعضهم أي صورة انحراف باعتبارها فعلًا سياسيًّا؛ فهي رفض للإقرار بإملاءات السلطة القائمة. معتقدات كتلك سادت بقوة بين التحرُّريين Libertarians في اليسار السياسي (انظر ص ٢٠١). ولكن اتساع نطاق التسامح في العديد من المجتمعات الغربية قد شارف الحد الهدام للانحراف.

الجريمة Crime

الجريمة هي أي فعل يعتبره قانون الدولة ضارًّا وخطيرًا بالنسبة للمجتمع. وفي حين شكلت السرقة والقتل جرائم بالنسبة لمعظم المجتمعات على مر العصور، إلا أن الجرائم الأخرى ارتبطت بخصوصية المجتمعات في أوقات محددة. فمثلًا، كان الانتحار جريمة في المملكة المتحدة حتى عام ١٩٦١، في حين أن «التعاقدات الداخلية Insider dealing»[٢٩] بالنسبة للبضائع والفوائد أصبحت جريمة بالنسبة للعديد من الدول فقط في الثمانينيات.

يمكن تقسيم الجرائم إلى أقسام عديدة. فهناك الجرائم التي تُقترف ضد فرد مثل القتل أو الاغتصاب الجنسي؛ وهناك جرائم ضد الملكية كالسرقة والتخريب؛ وجرائم ضد النظام الاجتماعي مثل الشغب والتحريض على الكراهية والعنصرية؛ وجرائم ضد الدولة مثل الفتنة والخيانة. في المحاكمة الجنائية، يجب على الادعاء أن يثبت أن المتهم

(٢٩) التجارة الداخلية: هي تجارة الشركات أو الأفراد دون الإعلان عن المعلومات الخاصة بهذه التجارة للدولة. (المترجم).

قد ارتكب الجريمة «متجاوزًا كل تشكيك في عدم ارتكابه للجريمة»، وأن المتهم قد ارتكب الجريمة مع سبق الإصرار والترصد. فإذا كان المتهم مذنبًا، فيمكن له أن يدافع عن نفسه بأنه ارتكب هذه الجريمة دفاعًا عن النفس أو بالإكراه، أو حتى يثبت جنون المتهم مما يخفف حدة الجريمة.

العقاب Punishment

يمكن النظر إلى الجريمة على أنها انتهاك لحقوق وحرية الضحية، تلك الحرية التي تضمن حق الحياة والملكية وعدم التعرض للأذى. فبحسب العقد الاجتماعي (انظر ص ١٦٩)، توجد الدولة للمحافظة على هذه الحقوق. ومن المفارقة أن الدولة هي التي تفرض العقوبات على مَن يسلبون حقوق وحرية الآخرين، وهو ما يعني غالبًا حرمان مرتكبي الجرائم من حقوقهم وحريتهم.

هناك تبريران رئيسان للعقاب؛ الأول يرى في العقاب خيرًا في ذاته وتعبيرًا عن العدالة التي بمقتضاها يكون «العقاب ملائمًا للجريمة». هذه النظرة العقابية للعدالة نجدها في آية من العهد القديم «العين بالعين والسن بالسن»، وهو تبرير لا يزال بعضهم يؤكده حتى اليوم عند دفاعهم عن عقوبة الإعدام لجريمة القتل.

فكرة أن المجرم «يدفع» جزاء جريمته هي أيضًا فكرة شائعة، وتدل على نوعٍ من المحاسبة الأخلاقية للمجرم. إذ يُفترض أنه طالما يدفع المجرم «الدَّيْن للمجتمع»، يمكن للمجتمع أن يستعيد توازنه واستقراره.

في بعض البلاد غير الغربية، يمكن لمرتكبي الجرائم العنيفة أن يهربوا من العقاب بدفع «الدية» لأسرة الضحية، في حين أنه في بعض البلاد الغربية يُجبر مرتكب الجريمة على دفع تعويض للضحية كجزء من عقابه.

النظرة الثانية للعقاب هي نظرة نفعية (انظر ص ٩٣) لا ترى في العقاب خيرًا في ذاته، وإنما هو شر ضروري للمساهمة في خير أكبر يعم على المجتمع. ويستطيع النفعيون أن يدافعوا عن العقاب على أسس عديدة. وإحدى تبريراتهم هي أن حرمان مرتكبي الجرائم من حريتهم (أو حتى حياتهم) يمنعهم من تكرار هذه الجرائم، وبالتالي يبقى المجتمع أكثر أمنًا. أما التبرير الثاني فهو أن العقاب يطهر المجرم، وبالتالي يكبح المجرمين المحتملين عن ارتكاب مثل هذه الجرائم، وهذا يفيض بالخير على المجتمع. أما التبرير الثالث فهو أن العقاب هو إعادة تأهيل للمجرم من أجل نفعه الخاص، فيستطيع بعده أن يندمج في المجتمع مرة أخرى.

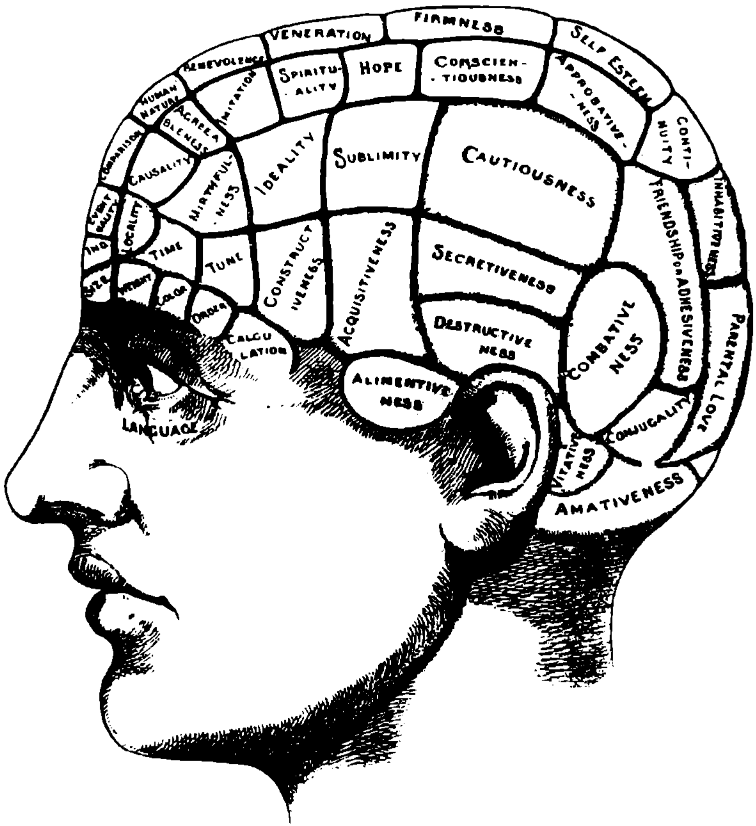
الفصل السَّابع

علم النَّفس

علم النفس Psychology

وفقًا للمنظور التطبيقي، يمكن وصف علم النفس بأنه دراسة العقل، أو السلوك الإنساني والحيواني، أو الصلة بين الأفراد ومحيطهم الاجتماعي والمادي. وعلى الرغم من أن الفلاسفة تأملوا -على مر العصور- طبيعة العقل، إلا أن علم النفس -بوصفه مجالًا مستقلًّا ذا توجه علمي وموضوعي- لم ينشأ إلا في عام ١٨٧٩ عندما أسس وليام وندت Wilhelm Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠) معملًا بحثيًّا نفسيًّا في ألمانيا.

اعتمد وندت ومعاونوه كثيرًا على طريقة الاستنباط، أي محاولة ملاحظة وتسجيل العمليات الفكرية للفرد. ولكن حتى وندت كان لديه شكوكٌ حول فاعلية هذه الوسيلة التي سرعان ما توارت مع السلوكيين، الذين حصروا علم النفس في دراسة السلوك (انظر ص ٢٩٢). وظهرت في خلال القرن العشرين العديد من مدارس علم النفس النظرية والعملية الأخرى. وقد حظى علم النفس التعليمي والعلاجي والمهني بأهمية خاصة عبر كل هذه المدارس.



الذاكرة Memory

تكمن الذاكرة في قلب إحساسنا بهويتنا الفردية (انظر ص ٣٧). وهي ضرورية لممارسة وظيفتنا ككائنات ذكية. فلن يكون لدينا شعور بالماضي ولا تبلور لإدراكنا لعلاقاتنا بالآخرين أو بالعالم الخارجي من دون الذاكرة. كما أنه لا يمكننا من دون ذاكرة الحفاظ على أي معلومة أو معرفة أو تجربة تُبنى على أساسها أفعالنا الحاضرة والمستقبلية.

تتكون الذاكرة من ثلاث عمليات؛ أولًا التوثيق- وهي العملية التي بمقتضاها تُدوَّن التجربة في العقل. ثانيًا الحفظ- والتي بموجبها تُحفظ التجربة في العقل (على المدى الزمني القريب أو البعيد). ثالثًا التذكر- والذي بموجبه تُستعاد التجربة من خزانة الذاكرة إلى الوعي.

كل يومٍ تستقبل حواسنا العديد من المعلومات من العالم الخارجي، ولكنَّ جزءًا صغيرًا فقط منها يُحفظ في الذاكرة. لقد تعلم عقلنا انتقاء ما هو مهم من هذه المعلومات. يحتاج الاحتفاظ بالمعلومة درجةً من التكرار، فمثلًا لحفظ قصيدة شِعر بشكلٍ كاملٍ، يجب أن نتلوها مرات عديدة، ولحفظ صورة مكانٍ ما، نقوم بتكرار استدعائها في عقل العين.

يعتمد التذكر على نوعٍ من الإشارات، غالبًا تتضمن اتصالات فيما بينها. فكما هو معروف، وجد الروائي الفرنسي مارسل بروست Marcel Proust ممرًّا «للزمن الضائع» في حياته المبكرة عندما تذوق كيك المادلين المغموس في كوب من الشاي، كما كان يفعل وهو طفل، كما نستنبط من روايته في البحث عن الزمن المفقود.

بدأ علماء نفس الأعصاب في فهم الذاكرة المتصلة بالعمليات الفسيولوجية داخل العقل البشري. يتكون العقل من ملايين الخلايا العصبية القادرة على نقل النبضات العصبية الكهروكيميائية من عصب إلى آخر. وقد لُوحظ عند تسجيل هذه التجارب، تكوُّن بعض المسارات العصبية في مجموعات خاصة من الأعصاب. وأنه من الممكن أن تحفظ الذكريات عندما تستخدم هذه المسارات عصبية كثيرًا كما تُستدعى عندما يقوم محفز ما بتنشيط هذه المسارات.

الإدراك والإحساس Perception and Sensation

من المعتاد التميز بين الإدراك والإحساس؛ فالإحساس يشير إلى العملية التي بموجبها تُسجِّل حواسُّنا -مثل البصر والسمع واللمس والشم والتذوق- المعلومات الواردة إليها من العالم الخارجي وترسلها إلى العقل. أما الإدراك فيشير إلى العملية التي ندرك بها ونختبر هذه المعلومات التي تزودنا بها الحواس، ويتضمن ذلك درجة من التفسير لها، ومثل هذا التفسير غالبًا ما يُبنى على تجاربنا السابقة، كما أن التنظيم العقلي لهذه المعلومات يجعلنا نصنع العالم.

لتوضيح الاختلاف بين الإحساس والإدراك، سنضرب مثلًا برضيع صغير. تُسجل عيناه المعلومات مثلما يفعل البالغون، ولكن -بما أنه ليس لديه أي فكرة عما ينظر إليه- فإن إدراكه لما يراه مختلف تمامًا عن إدراك البالغين. فمع التجربة، يسمح لنا الإدراك بتكوين توقعات، مثل افتراضنا أن الشيء الذي نراه موجود بشكل كامل حتى لو كنا نرى فقط جزءًا منه. ولكن يمكن للتوقعات أن تؤدي بنا إلى أخطاء إدراكية كما هو الحال في الأوهام المرئية.



معظم الناس يتصورون أن هذا الرسم البسيط يُمثل شابة جميلة أو عجوزًا شمطاء قبيحة. وأيًا ما كان التصور الأول الذي أدركناه إزاء هذا، فإنه سيتبدل فجأة إلى التصور الثاني.

الذكاء Intelligence

إن سؤال (ممَّ يتكون الذكاء؟) من الأسئلة التي تُوَلِّد دائمًا جدلًا، مثلها في ذلك مثل الأسئلة التي تدور حول ما إذا كانت الوراثة الجينية أو البيئة تلعب دورًا رئيسًا في تحديد ذكاء الفرد.

في السنوات الأولى للقرن العشرين، قام عالم النفس الفرنسي ألفرد بينت Alfred Binet (١٨٥٧-١٩١١) بإجراء أول اختبار للذكاء. كما أنه طبقه على أطفال المدارس. بعد ذلك بوقت قليل، تم تقديم أسس إحصائية لهذه الاختبارات في شكل «درجات الذكاء» أو IQ، وهي مبنية على النسب الفعلية للعمر العقلي، وهذا الأخير منبثق عن نتائج الاختبارات؛ إذ تستخدم اختبارات الذكاء عادة كلًّا من الاستدلال اللفظي وغير اللفظي، الذي يُفترض منه قياسه لمستوى الذكاء الفطري. ولكن بلوغ هذا الهدف لا يُكلل بالنجاح، ذلك أنه في الواقع يمكن للطفل أن يتعلم كيف يكون أفضل في اختبارات الذكاء هذه.

ومن ثم تم اقتراح نموذج آخر لقياس الذكاء من قبل عالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget (١٨٩٦-١٩٨٠). فقد درس بياجيه عملية التفكير لدى الأطفال، لا سيما الإدراك والحكم والمنطق لديهم. وقد وصف سلسلة من المراحل الكيفية المختلفة لتطور الذكاء من الطفل إلى البالغ. واستخلص من هذه الدراسة، أن هذا التطور يعتمد على العوامل البيئية التي تُزود الفرد بالتجارب الضرورية لنمو الذكاء. ومن هذا المنطلق وُجَبَ تصميم تعليم الأطفال بما يحفز هذه العملية.

وهنا لا يُؤخذ في الحسبان الفروق الثقافية في اختبار الذكاء IQ أو في نموذج بياجيه. ومن هنا أيضًا يوجد نهجٌ ثالث يُفسر الذكاء تفسيرًا ثقافيًّا؛ حيث إن المجتمعات تحفز بعض المهارات على حساب مهارات أخرى. فمثلًا مجتمعات الجمع والصيد تعزز قيمة معرفة الوسط البيئي الطبيعي والقدرة على دمج هذه المعرفة بمهارات عملية مثل التتبع والصيد. وبالتالي فإن المهارات القيمة التي تحتاجها المجتمعات الصناعية والمطلوبة لجودة الإنجاز في اختبارات الذكاء، لا صلة ولا نفع لها بالنسبة

لمهارات التي تحتاجها مجتمعات أخرى.

كما أنه يوجد نهج آخر يعزز قيمة «الذكاء العاطفي». ويقترح مناصرو هذا النهج أن الجوانب المعرفية للذكاء مثل حل المشكلات هي فقط جزء مما يشمله الذكاء في مجمله. ويقترحون في هذا الصدد أن قدرة الفرد على فهم مشاعره ومشاعر الآخرين والتحكم فيها لها نفس الأهمية التي نوليها للذكاء بصفة عامة.

الشعور Emotion

الشعور هو إحساس قوي، مثل الغضب والخوف والفرح والأسى. لا يمثل الشعور ظواهر داخلية فقط، فغالبًا ما يتم التعبير عنه في السلوك الظاهر مثل تعبيرات الوجه. وقد لاحظ داروين أن القدرة على التعرف على معاني التعبير السلوكي مهمة جدًّا للبقاء.



تتضمن المشاعر مزيجًا معقدًا من معطيات البيئة مثل التجارب الشخصية والتغيرات النفسية ومعطيات السلوك. فمثلًا يؤدي إدراك الخطر إلى الشعور بالخوف وإفراز هرمون الأدرينالين وارتفاع معدل ضربات القلب ونسبة الجلوكوز Glucose في الدم، وهي تغيرات تُهيئ الشخص«للهجوم أو الهروب». ولنأخذ مثلًا آخر، فغالبًا ما يصاحب الاكتئاب انخفاض في إفراز مادة السيروتونين Serotonin في الجسد. ولكن إذا كانت العوامل الخارجية (مثل البطالة أو فجيعة أخرى) هي سبب الشعور بالاكتئاب أو كان سببه تغيرًا في كيمياء الجسد، فمن المستحيل التكهن به. ولا يمكن أن يكون التفسير الفوري لهذه المشاعر إلا جزءًا من القصة.



التحليل النفسي وفرويد Psychoanalysis and Freudianism

إن عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦-١٩٣٩) واحدٌ من أكثر العلماء تأثيرًا في القرن العشرين. فعلى الرغم من أنه قد تم رفض العديد من نظرياته على أساس عدم علميتها، إلا أن أفكاره حول اللا وعي ومركزية الجنس في التجربة الإنسانية غيرت بشكل أساسي الطريقة التي يفكر بها الناس في أنفسهم.

في فيينا -في نهاية القرن التاسع عشر- كان فرويد رائدًا للنظرية التي عُرفت بنظرية التحليل النفسي، والتي بموجبها عالج المرضى الذين يعانون من اضطرابات عصبية مختلفة مثل الهيستريا. اعتقد فرويد أن سبب الاضطرابات العصبية يكمن في كبح تجارب الطفولة، والتي يتم تخزينها في اللا وعي. كما شدد فرويد على أن «العلاج بالكلام» الذي يتضمن اتصالًا حرًّا بأفكار المرضى وتحليلًا لأحلامهم، يمكن أن يُستخدم للوقوف على أغوار اللا وعي واكتشاف الذكريات المكبوتة.

يرى فرويد أن للعقل ثلاثة مكونات. المكون الأول هو النفس الشهوانية، وهو الجزء غير الـمُهذب من النفس الذي يطمح إلى اللذة والمتعة واسمه «الهو». والمكون الثاني وهو «الأنا»، وهو العقل الواعي، الذي يتعامل مع الاحتياجات المضادة للهو و«الأنا العليا». والمكون الثالث هو «الأنا العليا»، وهو مرادف للضمير عند فرويد، ويولد الشعور بالذنب. وعلى نحوٍ مدهش بالنسبة لعصره، أكد فرويد أن غريزة الجنس لدى الإنسان تبدأ من مرحلة الطفولة، وليس عند البلوغ كما كان يُعتقد من قبل. فمثلًا استحدث فرويد فكرة عقدة أوديب، والتي بموجبها يرغب

الأولاد من عمر ثلاث سنوات إلى ست في ممارسة الجنس مع أمهاتهم وقتل آبائهم. ويعتقد فرويد أن كبح الرغبة الجنسية في الطفولة ينتج عنه اضطرابات عصبية وتعاسة في حياتهم المستقبلية.

واليوم، يتنقد العلماء نظريات فرويد على أساس أنه لا يمكن قياسها. فلا يمكن إثبات وجود اللا وعي كما وصفه فرويد، ناهيك عن إثبات أن الرغبات المكبوتة تدفع إلى سلوك معين كما أكد فرويد. كما لا يمكن تأكيد ما إذا كان النجاح في العلاج بالتحليل النفسي للمريض سببه نظرية التحليل النفسي أم شخصية الطبيب النفسي.

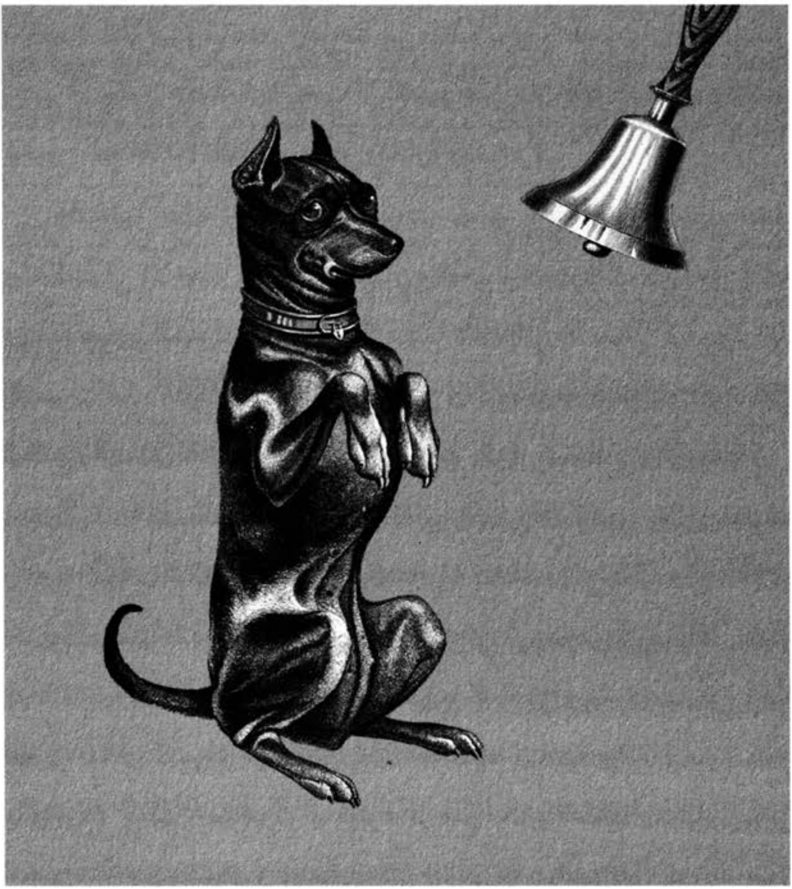
التَّكيُّف ورد الفعل المشروط

Conditioning and Conditioned Reflexes

التَّكيَّف Conditioning هو العملية التي بموجبها يمكن للسلوك أن يتغير عن طريق مُحفز مُتصل به، ومن ثم يغير الاستجابة. رائد نظرية التَّكيُّف الكلاسيكي هو عالم النفس الروسي إيفان بافلوف Ivan Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦) الذي اشتهر بإجراء سلسلة من التجارب تُظهر أن ما يجعل لعاب الكلاب سائلًا هو سبب غذائي. فإذا كان ظهور الأكل مرتبطًا بصوت الجرس على نحو منتظم، فسيسيل لعاب الكلاب عند سماع الجرس حتى لو لم يجد أكلًا، وهذا ما يُسمَّى برد الفعل المشروط Conditioned Reflex.

نوع آخر من صور التَّكيُّف هو الشرط الإجرائي Operant Conditioning. فإذا كان وظيفة التَّكيُّف الكلاسيكي تُتضمن في جزءٍ من النظام العصبي فيما وراء التحكم الواعي، فإن الشرط الإجرائي يسعى

إلى تغيير السلوك الإرادي عن طريق المكافأة والعقاب، وهي عملية تُسمَّى بالتعزيز. وقد استخدم علماء النفس تقنيات كتلك في علاج النفور والكراهية، كما استخدمه علماء نفس التعليم وعلماء نفس الصناعة. كما اهتم علماء السلوك (انظر ص ٢٩٢) بنوعي التَّكيُّف.



المدرسة السلوكية Behaviourism

سادت الدراسة السلوكية في علم النفس النصف الأول من القرن العشرين. أحد مؤسسيها الأوائل هو عالم النفس الأمريكي جون واطسون J.B. Watson (١٨٧٨-١٩٥٨)، الذي رفض التأمل الباطني Introspection -وهو المنهج الذي كان سائدًا من قبل- لكونه تأملًا شخصيًّا ذاتيًّا ميؤوسًا منه. وعوضًا عن ذلك، يرى واطسون أن علم النفس يجب أن يكون علمًا، كما يجب أن يقتصر على ملاحظة السلوك، وتجنب تخمين الحالة الداخلية للفرد مثل أفكاره ومشاعره.

ولتحقيق هذه الغاية شُيدت عدة معامل اختبارية في دول عدة. وشملت في الاختبار كلًّا من الإنسان والحيوانات، وذلك من أجل إقامة دراسة لصور السلوك المختلفة، لا سيما تلك التي لا يمكن قياسها. لقد اقتصرت هذه التجارب على منح مُحفز وملاحظة الاستجابة، ثم تحليل النتائج إحصائيًّا لكشف القانون الذي يربط ما بين الـمُحفز والاستجابة.

أَسَّسَت هذه التجارب الفريدة لعالم النفس السوفيتي إيفان بافلوف مبادئ التَّكيُّف الكلاسيكيClassical Conditioning (انظر ص ٢٩٠). أما في أمريكا، فقد طَبَّقَ عالم النفس السلوكي بورهوس فريدريك سكينر B. F. Skinner (١٩٠٤-١٩٩٠) منهج التحفيز والاستجابة من أجل تطوير مبادئ الشرط الإجرائي Operant Conditioning. قسم سكينر ما يعرف باسم «صندوق سكينر» لوضع معاير عملية لتعليم بعض الحيوانات مثل الفئران والحمام بعض السلوكيات البسيطة. كما أنه طَوَّرَ منهجه لدراسة السلوك الإنساني، وابتكر في هذا الصدد عددًا من الوسائل

التعليمية. تبنَّى بعض الأطباء النفسيين الشرط الإجرائي من أجل علاج المرضي ذوي الاضطرابات العصبية المختلفة، مستخدمين في ذلك مبدأ المكافأة والعقاب من أجل تلقينهم بعض السلوكيات الحميدة ودحض السلوكيات غير المرغوب فيها.

ولكن تم انتقاد السلوكيين على اعتبار أن منهجهم يتسم بالحتمية والاختزال، ويتعامل مع جوانب السلوك بشكل سطحي في إطار شروط مُفتعلة. لقد تجاهل السلوكيون عاملَ الاختيار الواعي، كما بدوا غير قادرين على التعامل مع ظواهر معقدة مثل المشاعر واللغة والعلاقات. وعلى الرغم من أن المدرسة السلوكية قد كشفت عن جوانب عديدة للسلوك الحيواني، إلا أنها في مجال علم نفس الإنسان قد تم إبطالها لصالح المنهج المعرفي (انظر ص ٢٩٤).

علم النفس التطوري Evolutionary Psychology

يسعى علم النفس التطوري إلى تفسير الصفات النفسية بوصفها استجابة لكلٍّ من الانتقاء الطبيعي أو الجنسي (انظر ص ١٥٥). ويعتقد مؤيدو هذا المنهج أن الكثير من السلوكيات الإنسانية قد تطورت على النحو الذي تطورت بها الخصائص الجسدية، كما تطورت الطريقة التي نتعامل بها مع ذات المشاكل التي واجهت أسلافنا. ومن هنا يُقلل علم النفس التطوري من دور الثقافة في السلوك، وإن كان لا ينفي هذا الدور تمامًا. فمثلًا القدرة الإنسانية العالمية لاستخدام اللغة هي عبارة عن تَكيُّف تطوري، في حين أن اللغات الخاصة هي بنيات ثقافية. كما يشير علماء النفس التطوريون إلى أمثلة أخرى للتطور في سلوكيات

مثل الغيرة، والاعتراف الكهني، والتعاون، والعدوانية الذكرية، واختيار الشريك.

لقد نُقدت نظريات علماء النفس التطوريين على اعتبار أنه لا يمكن اختبارها. إلا أن عددًا من هذه النظريات اختُبرت بالفعل وبنجاح، فمثلًا قد وُجِدَ أن الإنسان قادرٌ على تذكر أشياء متصلة بالبقاء (مثلًا الأكل والحيوانات المفترسة والمأوى) بسهولة أكبر من تذكره موضوعات غير ذات صلة.

النظرية المعرفية Cognitive Theory

يرتبط مصطلح «علم النفس المعرفي» بعالم النفس الأمريكي أولريك نيشر Ulric Neisser في كتابه الذي صدر في عام ١٩٦٥ والذي يحمل نفس العنوان. فقد ربط نيشر علم النفس بالمعرفة، في إطار مصطلح جامع لكل العمليات النفسية التي تشمل اكتساب المعرفة وتنظيمها واستخدامها، بدايةً من تحليل الـمُحفزات الحسية وصولًا إلى تنظيمها في التجربة الشخصية.

ومثلهم -مثل السلوكيين- (انظر ص ٢٩٢) يرفض علماء النفس المعرفيون التأمل الباطني كنهجٍ علمي. ولكنهم -على عكس السلوكيين- يعترفون بوجود مستويات عقليةٍ داخلية، كما أنهم يدرسون عمليات أخرى مثل الذاكرة والأفكار واللغة وحل المعضلات. في البداية تم توجيه النقد لعلم النفس المعرفي لدراستهم المستويات العقلية الداخلية مع العجز عن إخضاع هذه المستويات للتجربة. إلا أن علم الأعصاب قد قدم -فيما بعد- برهانًا على أن المستويات العقلية ترتبط بالحالات الفسيولوجية للعقل.

ينطوي علم النفس المعرفي على مفهومٍ للإنسان بوصفه «أنظمة ديناميكية لمعالجة المعلومات» ومشابهًا للكمبيوتر. أكد نيشر على أن هذا النهج المعرفي لعلم النفس يشمل «كل العمليات التي من خلالها تتحول معطيات الحواس وتُختزل وتُوظف وتُخزن وتُستعاد وتُستخدم. ويختص هذا النهج بهذه العمليات وإن لم يوجد محفز متصل لها، مثل في حالة الصور والهلاوس...». ساهم التقدم في الذكاء الصناعي (انظر ص ١٥٢) في الستينيات والسبعينيات في تطور علم النفس المعرفي. ويُنظر إلى علم النفس المعرفي مع علم الأعصاب (دراسة المخ والنظام العصبي)، غالبًا كفرع لمجال علمي جديد متعدد التخصصات يُسمَّى بعلوم الإدراك Cognitive Science.

لعلم النفس المعرفي العديد من التطبيقات. فهناك مثلًا العلاج النفسي المعرفي السلوكي الذي يعتمد على كلٍّ من النظرية المعرفية والنظرية السلوكية، وبالأخص الشرط الإجرائي (انظر ص ٢٩٠) والتحليل النفسي (انظر ص ٢٨٩). إن العلاج المعرفي السلوكي هو «علاج بالكلام»، ولكنَّه بدلًا من الغوص في الماضي لكشف أسباب المرض الحالي، فإنه يركز على الآن والحالي. كما أنه يستخدم العديد من العمليات النظامية الموجهة إلى أهداف بعينها. وهو يهدف أيضًا إلى معاينة نسق من المشاعر والسلوكيات والأفكار الـمُختلة. وقد دلَّل على فعاليته في العديد من حالات الاكتئاب والشره المرضي والوسواس القهري، وحالات ما بعد الصدمة واضطرابات التوتر.

القياس النفسى Psychometics

القياس النفسي Psychometrics هو فرع من فروع علم النفس يسعى إلى قياس ظواهر مثل الذكاء والمعرفة والقدرات والسلوكيات والصفات الشخصية. أجرى العالم الإنجليزي فرانسيس جالتون Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١) في أواخر القرن التاسع عشر اختبارات عقلية منهجية أثناء دراسته للوراثة. وبعد ذلك، ظهرت اختبارات كثيرة لقياس الذكاء استخدم فيها العلماء اختبارات الذكاء الموحد IQ (انظر ص ٢٨٦). وقد طُبِّق مثل هذا الاختبار بشكلٍ موسع على التعليم واختبارات التوظيف، ولكن تم انتقاد اختبارات التعليم والتوظيف لتحيزها الثقافي.

على مر العقود الحديثة، استخدم قسم الموارد البشرية -بشكلٍ متزايد- اختبارات القياس النفسي للبحث عن موظفين أكفَّاء. يسعى الاختبار للبحث عن الجدارة والقدرات و«نوعية الشخصية». كما أنه غالبًا يتخذ شكل مجموعات طويلة من الأسئلة الـمُتعددة الاختيارات التي تسأل الـمُختبَر عن ردود فعله في مواقف مُتعددة. ويؤكد أنصار هذه الاختبارات أنها تعطي صورة دقيقة لما إذا كان الـمُختبر مناسبًا للوظيفة أم لا. ولكن النقاد يزعمون أن هناك أساسًا علميًّا ضعيفًا لهذا الرأي.



في اختبار بقعة حبر رورشاس Rorschach Inkblot test، يُعرض أمام الـمُختبرين عددٌ من الكروت تظهر عليها صور مختلفة، ويتم سؤالهم عما يرون. يفترض هذا الاختبار أن ما يرونه في هذه الكروت يُبين ملامح شخصيتهم.

الفصل الثَّامن

الفن

الفن Art

لا يشمل الفنون التشكيلية فحسب، وإنما يشمل أيضًا الأدب والموسيقى والرقص والسينما. ولكن ما الرابط بين كل هذه الأنشطة؟ وهل لها وظيفة كامنة وراء التسلية، أم أنها أشبه بالسُّكَّر على سطح كعكة الحياة فحسب، ممتعة ولكنها ليست أساسية؟

تتضمن كل الفنون بنيات رئيسة، تتراوح بين تنظيم الأشكال في الرسم وحتى ترتيب المشاهد في فيلمٍ ما، ومن النوتة الموسيقية إلى السوناتيات إلى أنماط النغم في الحركة السمفونية. تمثل هذه البنيات الرئيسة نوعًا من اللغة، لغة لمجموعة من البنيات الـمُتعارف عليها بين الفنان المبدع والجمهور والتي تبدو مألوفة بينهما. وفي هذا الإطار من الأسس يسعى المبدع إلى توظيف إحساسه بها وإثارة مشاعر الجمهور وفكره.

لعصور عديدة، نُظر إلى الفنانين على أنهم ليسوا أكثر من حرفيين ذوي مواهب رفيعة، كما أن منتجهم قُيِّم على أساس الوظيفة التي يقدمها. فعلى الرغم من أن صناعة الجمال في اليونان القديمة قُدِّرت لذاتها، إلا أنه في العصور الوسطى الأوربية وُظِّفَت كثير من الأعمال الفنية لأغراض دينية. فقد قُدِّمت رسوم العائلة المقدسة والقديسين بوصفها ركيزة للتقوى، كما كان للكثير من المعزوفات الموسيقية وظيفة طقسية، واعتبرت الكاتدرائيات العظيمة أرفع المباني.

في عصر التنوير ظهرت فكرة وجود أفراد متميِّزين يتمتعون بنشاطٍ إنساني خاص يُسمَّى الفن، وقد أثرت هذه الفكرة بقوة في الحركة الرومانسية (انظر ص ٣١١)؛ فقد أكد الرومانسيون على الدور الاستثنائي

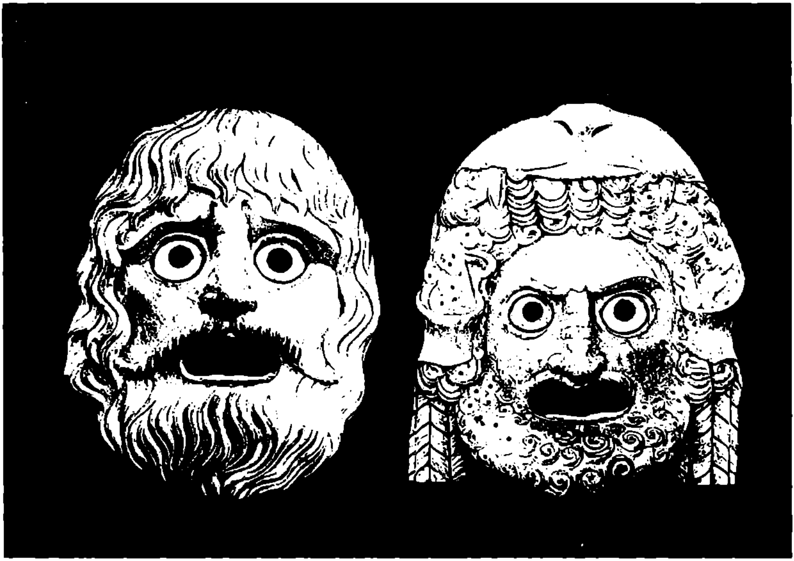
للفنانين، والذين ظلوا في عزلة عن المجتمع، ولكنهم استطاعوا بتأثيرهم وعبقريتهم ونضالهم إبداع أعمال قادرة على تغيير الإنسانية.

اليوم، وعلى الرغم من أن انفعالنا بالأعمال الفنية لم يتغير، إلا أننا لا نزال ننظر إلى الفنانين بوصفهم نتاجًا لزمنهم وطبقتهم وثقافتهم، ونرى قيمتهم مُتَضَمَّنة في أعمالهم. فقد تلاشت الصورة الدينية للفن التي تقدم لنا لمحات من عالم آخر للوجود.

المحاكاة Mimesis

Mimesis هي كلمة يونانية قديمة تُرجمت بشكل واسع بـ «التمثيل» أو «المحاكاة»، وتشير إلى العملية التي بموجبها يكون الفن «مرآة للطبيعة». عندما استخدم أرسطو (انظر ص ٢٠) هذا المصطلح، اقترح أن الفن تحسين للطبيعة. وهذا لأن العالم الواقعي مليء بالحوادث والتفاهات؛ فما يفعله الفن هو اختيار وتشكيل جوهر العالم الأكثر دلالة من أجل منح صوتٍ للحقائق العليا.

كيف يكون «الحق» هو الفن؟ إن الرسم ليس المرسوم نفسه، كما تُعرف الرواية بوصفها خيالًا. فهل يعني هذا أنه ينبغي علينا اعتبار الفن كذبًا؟ هذا هو الأقرب بالتأكيد إلى ما يصفه الفلاسفة بالمقولات الخاطئة Category Error (انظر ص ٧٥)، أننا نرى العالم ونفسره من خلال كل أنواع بنيات العقل (اللغة والاعتقاد الديني والمناهج العلمية... على سبيل المثال لا الحصر). الفن إحدى هذه العدسات، ولكنه عدسة غالبًا ما تساعدنا على رؤية العالم بصورة أوضح.



التصوير الخيالي Imagery

إن التصوير الخيالي هو أحد المكونات الرئيسة للأدب والفنون التشكيلية أيضًا. يتمثل التصوير في الفنون التشكيلية شكل تصوير الأشياء، في حين أن المبدع في الأدب يستخدم الكلمات لتوليد صور عقلية، أو إثارة تجارب شعورية أخرى، مثل الأصوات والروائح. يمكن استخدام التصوير الخيالي لرسم مشهد؛ كما أنه من الممكن ابتكار نظرة جديدة للمألوف؛ أو الإشارة إلى طبقاتٍ للمعنى غير حرفية كما هو حال الأمثولة Allegory (انظر ص ٣٠٥) أو الرمزية Symbolism (انظر ص ٣١٥).

في الخطاب الأدبى، الأداتان الأساسيتان للتصوير الخيالي هما التشبيه والاستعارة. التشبيه هو مقارنة شيء بآخر؛ مثل «حبي مثل وردة حمراء»،

أما الاستعارة فهي عندما نقول إن شيئًا ما هو شيءٌ آخر؛ مثل «اذهبي يا وردتي الحبيبة!». لدى كل من التشبيه والاستعارة أثر مماثل في الربط بين شيءٍ ما وشيءٍ آخر، ومن ثم نجد في التشبيه والاستعارة تكثيفًا أو تجديدًا أو تعقيدًا لإدراكنا لشيءٍ ما.

يمكن لبعض الصور الخيالية أن تصبح تعبيرات أدبية تقليدية. فمثلًا في ملاحم هوميروس، البحر دائمًا «نبيذ غامق» أو «أصابع وردية»، في حين أنه في الشِّعر الإنجلوساكسوني يبدو البحر غالبًا «ممر الحوت» والنهر «ممر البجع».

تمتلئ آداب ورسوم العصور الوسطى وعصر التنوير بالصور التشبيهية التقليدية الدينية أو غيرها التي يفهمها الجمهور. فمثلًا وصَف الروح القدس بالحمامة البيضاء، ويَرْمُز البجع إلى تفاني الوالدين والإيثار (فمن الـمُعتقد أن البجعة تنقر صدرها لإطعام صغارها من دمها)، في حين أن النسور تُمثل القوى الإمبراطورية.

غالبًا يلعب الفنانون المبتكرون على الصور الخيالية التقليدية، فهم شغوفون بتعديل الـمُتَوقَّع من هذه الصور. ومن ثم بدأ شكسبير السوناتا رقم ١٨ بالسؤال: «هل يجب أن أقارنها لك بيوم صيفي؟». ثم نُفَاجأ أن حبيبته ليست مثل يوم صيفي، ولكنها في الحقيقة أفضل من ذلك. وعندما يبدأ السوناتا رقم ١٣٠ بقوله: «عينا سيدتي لا يمكن مقارنة جمالهما بالشمس»، نعرف أن التشبيهات التقليدية تمضي في طريقها للتجديد، إن لم تكن قد انحصرت تمامًا.

الحكاية الأمثولة Allegory

الحكاية الأمثولة Allegory هي قطعة من الأدب أو الفن التشكيلي، تُناظر مكوناتها -مثل الشخصيات أو الأشياء أو الأماكن- أشياء أخرى على نحو منهجي، بحيث تبدو قصة أو رسمًا ما بسيطًا، ولكنَّه في الواقع مُحملٌ بكتلة من المعاني الـمُضافة. والهدف منها يمكن أن يكون تعليميًّا أو أخلاقيًّا أو ساخرًا.

غالبًا ما تنطوي الحكاية الأمثولة على تشخيص للمجرد. فمثلًا تحتوي لوحة برونزينو Bronzino أمثولة فينوس وكيوبيد An Allegory of Venus and Cupid c. (١٥٤٥) على عددٍ من الصور ترمز إلى الجنون والاحتيال والغيرة والزمن. نجد أيضًا مثلًا أقل إشكالًا للحكاية الأمثولة في القصة التي كتابها جون بيان John Bunyan بعنوان رحلة الحج Pilgtim's Progress (١٦٧٨)، والتي تروي رحلة البطل، كريستيان، الذي انطلق من مدينة الدمار ومرّ بمناطق عديدة مثل دار الغرور وأرض الكآبة، وصولًا في النهاية إلى مدينة السماء. وهناك مثل عصري للحكاية الأمثولة ذائعة الصيت نجده في رواية جورج أورويل George Orwell مزرعة الحيوان Animal Farm (١٩٤٥)، وهي عبارة عن حكاية خرافية تقدم نقدًا لا لبس فيه لكيفية تحول الثوار المثاليين في روسيا إلى فاسدين تحت حكم ستالين، مستشهدًا في الرواية بخنزير اسمه نابليون.

الرواية The Novel

لمدة ثلاثمائة عام، هيمنت الرواية على الأنواع الأدبية. قبل هذا كان الشِّعر -وبالأخص شِعر الملاحم- يحتل الصدارة. لقد اهتمت ملاحم مثل إلياذة هوميروس، إنيادة فيرجيل، والفردوس المفقود لميلتون بموضوعاتٍ كبرى، موضوعات غالبًا تمتزج بالأسطورة أو المقدس، وتتضمن آلهة وأبطالًا. في المقابل تقدم الرواية -التي سيطرت على الأنواع الأدبية- العالم الواقعي اليومي، وشخصيات على الرغم من أنها خيالية، فإنها تعيش حياةً ليست بعيدة عن حياة القارئ ذاته.

لقد شاع النثر الخيالي في العالم القديم، مثل ساتيتريكون Satytricon للكاتب الروماني بترونيوس Petronius. كما ذاع صيت الحكايات النثرية والخرافية والرومانسية بين الـمُتعلمين القلائل في العصور الوسطى وعصر النهضة. وقد كانت رواية دون كيشوت Don Quixote (١٦٠٥، ١٦١٥) للكاتب الإسباني ميجال دي سرفنتس Miguel de Cervantes أول رواية حقيقية، تسخر من ادعاءات وفانتازيا الرومانسيات وقصصها عن العوانس المنكوبة والفرسان النبلاء. وقد أثار الصراع بين الوهم الخيالي الذي تحلَّى به الدون كيشوت العجوز وبين واقع العالم الحديث انفعالات الرثاء.

وفي القرن الثامن عشر، ازدادت شعبية الرواية أضعافًا مضاعفة. ولقد أدى انتشار التعليم إلى هذه الزيادة. كما تبنَّى كُتَّاب الرواية مجموعة من التقنيات والمناهج الفنية. فمال بعضهم إلى استخدام «أنا» الراوي، كعنوان للرواية مثل رواية روبنسون كروزو Robinson Crusoe لدانيال

ديفوه Daniel Defoe (١٧١٩)، والتي تُقرأ بالتالي كأنها سيرة ذاتية. كُتاب آخرون طوروا رواية الرسائل، والتي تُقدم فيها الرواية على شكل سلسلة من الرسائل المتبادلة، ومن الأمثلة المشهورة لهذا النوع رواية كلاريسا Clarissa لساموبل ريشاردسون Samuel Richardson (١٧٤٧-١٧٤٨).

وُلدت أيضًا ألوانٌ أخرى من الرواية، تراوحت بين رواية الرعب والأشباح وبين الرواية التاريخية والرومانسية. ولكن خلال القرن التاسع عشر سيطر على الرواية اللون الواقعي (انظر ص ٣١٢)، لتقدم مقطعًا عرضيًّا للمجتمع المعاصر، كما اعتنت الرواية الواقعية في الوقت نفسه بتطوير الشخصيات وتعقيد الحبكة. وقد شهد ظهور الحداثة (انظر ص ٣١٨) في بداية القرن العشرين الإطاحة بالعديد من التقاليد الروائية، وعلى الرغم من استفادة الرواية التجريبية من هذه الظاهرة، إلا أنها في الوقت نفسه قد دللت على أنها مرحلة انتقالية فحسب.

الباروك The Baroque

استُخدمت كلمة «الباروك Baroque» لنقد الأسلوب الذي كان مُهيمنًا على الفن والهندسة في أوربا في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. المصطلح منشق من «barroco»، وهي كلمة برتغالية معناها اللؤلؤ الخام أو اللؤلؤ غير المتناسق الشكل. ومن ثم فهذه التسمية ترمز إلى نوع من الازدراء الذي يرجع إلى عدم التناسق الزخرفي والقتامة المأساوية (في مقابل الضوء والظل)، والإسراف في الأسلوب

في مقابل الهدوء والتوازن الذي يتسم به فن النهضة. كان فن الباروك في الأصل وسيلة لمناهضة الإصلاح، وبوصفه رد فعل عنيفًا من الكنيسة الكاثوليكية في مواجهة انتشار البروتستانتية. لقد كان هدف فن الباروك إظهار القوة والمشاعر الـمُكثفة. وقد تجسدت خصائصه في منحوتات برنيني Bernini، ولوحات كارافاجيو Caravaggio وروبنز Rubens، وفي بناء الكنائس من بافاريا حتى أمريكا اللاتينية.

في هذه الآونة، كان تطبيق هذا الطابع الباروكي في الموسيقى اختياريًّا على نحوٍ ما، على الرغم من أن هذا الاتجاه يناسب الأسلوب الزخرفي لبعض الألوان الموسيقية. ونذكر هنا من المؤلفين الموسيقين الباروكيين الرواد: مونتيفردي Monteverdi وفيفالدي Vivaldi وباخ J. S. Bach.



الكلاسيكية Classicism

الكلاسيكية اتجاه واسع في الفن يهدف إلى إحياء القيم الجمالية في اليونان القديمة (٥٠٠ ميلاديًّا- ٣٣٨ قبل الميلاد). وغالبًا ما تتسم الكلاسيكية بإعلاء قيم التوازن والتنسيق والمنطق والتجانس. وتعزز هذه القيم كلًّا من الجمال المثالي والنظام الهادئ الصافي.

إن الفن البصري اليوناني الكلاسيكي الذي أثبت خلوده حتى يومنا هذا هو فن النحت والهندسة. تأسست الهندسة اليونانية على هندسة الأشكال: الدائرة والمربع والمثلث والمستطيل. لقد قدمت «نظم» الهندسة اليونانية الدورسية والأيونية والكورنيثية Doric, Ionic and Corinthian (التي نراها بشكل كبير في الأسلوب الزخرفي لأعلى العواميد اليونانية) مفردات للتصميم استفاد منها العديد من المهندسين اللاحقين لتأسيس تصميماتهم الخاصة. في النحت، قام اليونانيون برسم مثالي لوجوه الإنسان وغيرها من الصور المنحوتة الأخرى بدلًا من نحت هذه الوجوه بكل ملامحها الغريبة والمعيبة، وقد لاقت هذه النظرية اليونانية المثالية في النحت صدى لها في نظرية عالم الـمُثل لدى أفلاطون (انظر ص ٢٠).

استعار الرومان كثيرًا من الفن اليوناني، ولكن بعد انهيار روما في القرن الخامس عشر توارت القيم الكلاسيكية لآلاف السنين. وهذا حتى عصر النهضة الذي استعاد فيه الفنانون والمهندسون بحماسةٍ الأشكال اليونانية والرومانية الكلاسيكية. وقد ظل للكلاسيكية تأثيرها المُلهم والكبير، لا سيما في الهندسة.

كما استُخدمت النماذج اليونانية والرومانية القديمة في الأدب أيضًا في عصر النهضة. فقد طور النقاد كتابات أرسطو عن الدراما (انظر ص ١٠٠- ١٠١) إلى فكرة الوحدات الثلاث (الفعل والمكان والزمان) في المسرح. ونلاحظ الاستخدام الصارم لهذه القواعد الثلاث من قبل كُتَّاب المسرح الفرنسيين العظام في القرن السابع عشر من أمثال راسين Racine وكورناي Corneille ؛ ولكن وليام شكسبير -وهو من أعظم كُتَّاب المسرح- لم يولِ عناية لهذه القواعد، ومن ثم اتُّهم مسرحه في

عصره بغير المألوف والبربري.

يَدين العصر «الكلاسيكي» للموسيقى (١٧٧٠- ١٨٢٠) -عصر هايدن وموزار وبيتهوفن- بشكل أضعف لمنتجات اليونان الكلاسيكية، وهذا على الرغم من أن الكثير من البنيات المتوازنة والدقة الهارمونية في هذه الموسيقى قد استلهمت بالتأكيد الروح اليونانية الكلاسيكية.

الحركة الرومانسية Romanticism

الرومانسية حركة اجتاحت أوربا وأمريكا منذ أواخر القرن الثامن عشر، عُرفت الرومانسية بشكل جزئي كنقيض للكلاسيكية (انظر ص ٣٠٩). إذ رفضت قيم الهدوء والمنطق الكلاسيكي، لصالح الصراع والشغف الرومانسي. ومعها لم يعد الفنان ركيزة المجتمع المنظم، بل أصبح منعزلًا وعبقريًّا مُلهمًا ومناقضًا لباقي العالم، كما لم يعد الجمال قابعًا في اللوحات الـمُشذبة جيدًا، ولكن في الروح البرية والعنيفة لعناصر اللوحة.

ظهرت الخيوط الأولى للحركة الرومانسية مع الحركة الأدبية الألمانية المعروفة باسم العاصفة والتوتر. فقد افتتح كُتَّاب مُبدعون مثل جوته Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢) وشيلر Schiller (١٧٥٩-١٨٠٥) الطريق، ولحق بهما من بعد العديد من الكُتاب في دول أخرى، من ووردزورث Wordsworth، وشيللي Shelley حتى فيكتور هيجو Victor Hugo وإلكسندر بوشكين Alexander Pushkin. أثرت روح الحركة الرومانسية أيضًا على الفلاسفة المثاليين من أمثال كانط وهيجل (انظر ص ٥٤)، كما

أثرت على رسامين ومؤلفين موسيقين مثل تورنر Turner وتشيكوفشكي Tchaikovsky.



لوحة التعجب على أعلى بحر من الضباب، رسمها كاسبار دافيد فريدريش Caspar David Freidrich في عام ١٨١٨.

الحركة الواقعية والطبيعية Realism and naturalism

في الآداب والفنون البصرية، يتسم مذهب الواقعية بنهج يحاول الفنان من خلاله تصوير العالم كما هو، بدلًا من تصوير عالم مثالي أو خيالي. يتعلق هذا المصطلح بشكل خاص بفترة ما بعد الرومانسية، عندما رفض الواقعيون التوجه العاطفي والمثالي للكثير من الأعمال الأدبية

والفنية في القرن الثامن عشر. كما أنهم رفضوا الذاتية والعاطفة والشغف بالموضوعات البطولية والنبيلة التي تميز بها الرومانسيون.

استُخدم مصطلح «الواقعية» لأول مرة في فرنسا في ثلاثينيات القرن الثامن عشر لوصف أعمال بالزاك Balzac وستندال Stendhal الروائية. في سلسلته الروائية والقصصية التي بدأت في عام ١٨٣٥ وعُرِفَت بالكوميديا الإنسانية، ألقى بالزاك ضوءًا وهاجًا على المجتمع الفرنسي في عصره. فشخصيات بالزاك مُعقدة، ومن الناحية الأخلاقية لا سوداء ولا بيضاء، وإنما تنتمي لمنطقة رمادية. ركز بالزاك على مجتمعه المعاصر، وشارك الأدباء الواقعين منظوره النفسي للشخصيات الروائية، بدايةً من فلوبير Flaubert وموباسان Maupassant في فرنسا، مرورًا بتورجينيف Turgenev وجوجول Gogol وتولستوي Tolstoy وشيكوف Chekhov في روسيا، وحتى ديكنز Dickens وترولوب Trollope وجورج إيلوت George Eliot في إنجلترا.

ظهرت الواقعية الفنية أيضًا في فرنسا، التي مثلت المشاهد الباردة والقاسية للحياة المعاصرة التي روعت الجمهور، مثل لوحة كوربيه Courbet محطمو الأحجار The Stonebreakers (١٨٥٠)، ولوحة الفطار على العشب لمانيه Manet (١٨٦٣) التي تصف داعرتَينِ مع زبائنهما. كما كان الفنانون مثل كوروت Corot وتيودور روسو Théodore Rousseau يرسمون في الأماكن المفتوحة بدلًا من الغرف المغلقة، وهو ما أثار الجدل أيضًا.

في نهاية القرن التاسع عشر، ظهر نهج أدبي جديد هو النزعة الطبيعية

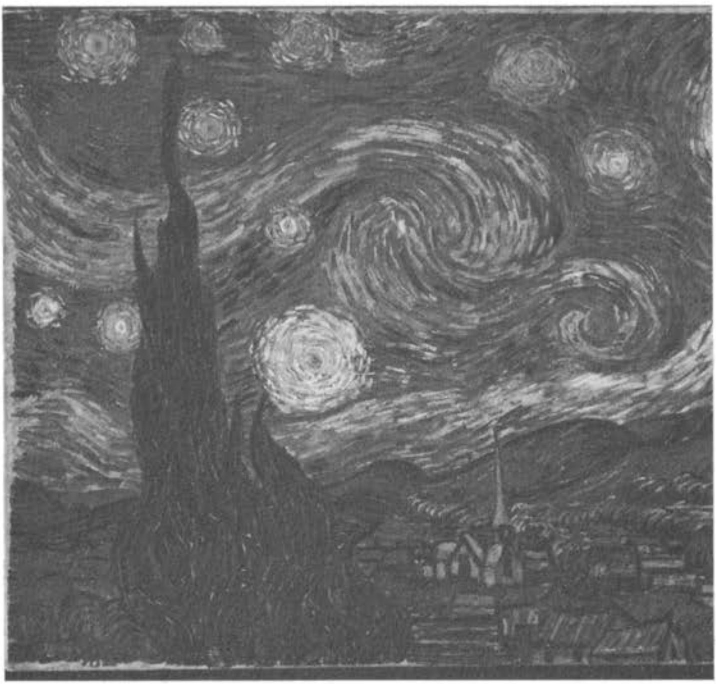
Naturalism. وبحسب هذا المذهب تبدو هذه الروايات الواقعية انتقائية، وغالبًا ما يكون التركيز فيها على أفراد قلائل. وفي هذا النهج الطبيعي للرواية نجد كُتَّابًا مثل زولا Zola في فرنسا، وجوركي Gorki في روسيا، ودريسر Dreiser في الولايات المتحدة الأمريكية. وتنطوي رواياتهم على نطاق واسع من الملاحظات الاجتماعية «العلمية»، كما تهتم بشكل كبير بكيفية تحديد الوسط الاجتماعي للسلوك الذي يسلكه البشر، وبكيفية إصلاح المجتمع.

المدرسة الانطباعية Impressionism

الانطباعية حركة فنية ظهرت في فرنسا في ستينيات القرن التاسع عشر. اكتسبت هذه الحركة الفنية اسمها من المعرض الفني لكلود مونيه Claude Monet الذي قدَّم فيه لوحته الشهيرة انطباع؛ شروق الشمس، فكان هذا بمثابة أول معرض انطباعي في عام ١٨٧٤. كما نجد فنانين انطباعيين آخرين مثل رينوار Renoir، مانيه Manet، ديجاس Degas، بيسارو Pissarro، سيزان Cézanne، ماري كاسات Mary Cassatt، سيسلي Sisley، سورت Seurat، وسينياك Signac، في حين نجد أن سيزان Cézanne، جوجين Gauguin، وفان جوخ Van Gogh يُعرفون غالبًا بوصفهم فنَّاني ما بعد الانطباعية Post-Impressionists. ركزت الحركة الانطباعية، مثلها مثل الحركة الواقعية (انظر ص ٣١٢) من قبلها على مشاهد من الحياة المعاصرة ورسمت لوحاتها في الهواء الطلق.

كان الانطباعيون مسؤولين عن العديد من الابتكارات. فقد فكروا

في آسر «الانطباعات» العابرة للضوء والحركة، رافضين الحدود الصلبة للأشياء، متبنين منظورات غير اعتيادية، ومختبرين بضربات الفرشاة الآثار الناتجة عن خلط الألوان بكثافتها المختلفة. وقد كان تأثيرهم على الفن عميقًا. فمثلًا ألهم فان جوخ التعبيريين، كما ألهم سيزان التكعيبيين، وألهم مونيه التعبيريين التجريديين.



الحركة الرمزية Symbolism

من الشائع التمييز بين الرمز Symbol وبين العلامة Sign ، والاثنان شكلان للتصوير الخيالي (انظر ص ٣٠٣) يُستخدمان في الفن والآدب. فالحكاية الأمثولة Allegories (انظر ص ٣٠٥) والحكايات الخرافية

Fables هي نظم من الرمز بصفة عامة، وهي عادة علاقة واحد لواحد بين الدال والمدلول. فهي أشبه بالترجمة من لغة إلى أخرى. فمثلًا يرمز «كيوبيد» للحب، في حين أن «مستر فوكس» يدل على المكر.

يعمل الرمز بطريقة أقل وضوحًا، مازجًا بين الدلالة والمدلول، ويُقصد بالمدلول العملية التي بموجبها توحي الكلمة والجملة والشيء أو الصورة بنسق من الصلات أو الأفكار.

فمثلًا كُنيَة الشخصية موبي ديك Moby-Dick في رواية هيرمن ملفيل Herman Melville (١٨٥١) لا تعني ببساطة الحوت الأبيض العظيم؛ إذ نكتشف عبر الرواية أن الحوت يكدس تلًّا من الأدوار الرمزية؛ فهو مثال الشر، وهو الإله الذي يريد البشرُ تدميرَهُ، وهو الآخر غير المروَّض، كما أنه يشير إلى لا مبالاة الكون، وإلى قضية غاية الطموح التي يتطلَّع إليه الإنسان. بل يتضمن أيضًا البحث الجنوني عن معنى غير موجود.

ومن ثم يمكن لرمزٍ مثل الحوت الأبيض أن يُولِّد تعددًا ثريًّا عظيمًا من المعاني والدلالات، ولكن غموض الرمز يمكن أيضًا أن يُنتج ألغازًا. وهذا بالتأكيد موضع النقد الذي وُجِّه للحركة الرمزية التي ظهرت في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، والتي يرجع ظهورها جزئيًّا إلى كونها رد فعل للحركة الواقعية (انظر ص ٣١٢). وقد كشف الشعراء الرمزيون من أمثال بول فيرلان Paul Verlaine وستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé عن القيم الموسيقية والتواصلية للغة، والتي تثير عواطف غزيرة وسريعة الزوال بوصفها مرحلة غامضة من الوجود تتلألأ على حدود العالم الفيزيقي والعالم الروحي.

لقد كان هناك أيضًا حركة رمزية في مجال الرسم. وأبرز روادها هم أديلون ريدون Odilon Redon وجوستاف مورو Gustave Moreau. وقد كان للشعراء الرمزيين تأثير عظيم على كُتَّاب الحداثة العِظام أمثال ت. س. إليوت T. S. Eliot، وإزرا باوند Ezra Pound، وييتس W. B. Yeats، وجيمس جويس James Joyce ورينر ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke.

المذهب الجمالي Aestheticism

في عام ١٨١٨، قدَّم الفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان Victor Cousin محاضرة في جامعة السوربون Sorbonne بباريس، قال فيها: «يجب أن يكون لدينا دِين من أجل الدِّين ذاته، وأخلاق من أجل الأخلاق ذاتها، وفن من أجل الفن في حد ذاته... لا يمكن أن يكون الجميل هو النافع أو الخيّر أو الـمُقدس؛ فالجميل يؤدي إلى ذاته».

أصبحت جملة «الفن من أجل الفن ذاته» شعار الحركة الجمالية، وهي حركة سيطرت على الفن في القرن التاسع عشر رافضةً فكرة وجوب خدمة الفن لأي غرض غير ذاته، كما أنها وضعت الفنان في «برج عاجي». وقد تبنت حركات عديدة المذهب الجمالي مثل حركة الرمزيين، ومجموعة ما قبل رافائيل Pre-Raphaelites[٣٠]، علاوة على اتباع المذهب الجمالي

(٣٠) تكونت مجموعة ما قبل رافائيل من الرسامين والنقاد والشعراء الإنجليز في عام ١٨٤٨ على يد وليام هولمان هانت وجون إيفرت ميليس ودانتي جابريل روستي William Holman Hunt, John Everett Millais and Dante Gabriel Rossetti. وقد سعت هذه المجموعة إلى إصلاح الفن عن طريق رفض النهج الآلي للفن الذي تبناه أتباع مانت Mannerist الذين ظهروا بعد رافائيل ومايكل أنجلو. وتعتقد هذه المجموعة منهج رفائيل الفني دون مَن لحق به واتبعوه من الفنانين. (المترجم).

أنفسهم. ويعد أوسكار وايلد Oscar Wilde من أكبر مؤيدي الحركة الجمالية، وقد اشتُهر في هذا الصدد بقوله «إنه من الأفضل أن تكون جميلًا عن أن تكون خيِّرًا». وقد أثارت أقوالٌ كتلك السخرية من النزعة النخبوية والمتكلفة ولا أخلاقية للجماليين، وهي نزعة ساعدت بطريقة ساخرة على إضعاف جدية الفن نفسه.

الحداثة وما بعد الحداثة

Modernism and Postmodernism

الحداثة هي المشروع الفني العظيم للقرن العشرين. وسواء كان هدف الحداثة منصوصًا عليه أم لا، فهي ترمي إلي أمرٍ جدِّيٍّ وعميقٍ، ألا وهو تغيير الطريقة التي نفكر وندرك بها العالم وأنفسنا. ولتحقيق هذا التغيير، تم نسف المعتقدات القديمة البالية لخلق حالة جديدة تمامًا، أي «أرض جديدة» تحمل تجارب جريئة ومشحونة بالرؤى وبمفاهيم جديدة عن الفن والواقع. ومن ثم فقد اتسمت كثير من الفنون الجديدة التي أبدعها أتباع الحداثة بالتحدي الـمُتعمد و«الصعوبة».

وقد أثَّرت طموحات الحداثيين على كل الفنون. ففي الموسيقى هجر المؤلفون –من أمثال شوينبرج Schoenberg وسترافينسكي Stravinsky وبارتوك Bartók– الألحان التقليدية، كما ظهرت تجارب موسيقية بألوان وإيقاعات وبنيات جديدة. وفي الفنون البصرية شاعت فكرة أن اللوحات تُمثل «نافذة للعالم» وذلك من خلال تعدد مستويات الصورة في المدرسة التكعيبية (انظر ص ٣٢٣)، ومن خلال إعلاء القيم الشكلية للتجريديين

(انظر ص ٣٢١)، وكثافة المشاعر لدى التعبيريين (انظر ص ٣١٩) وكشف السرياليين لأغوار اللا وعي (انظر ص ٣٢٤).

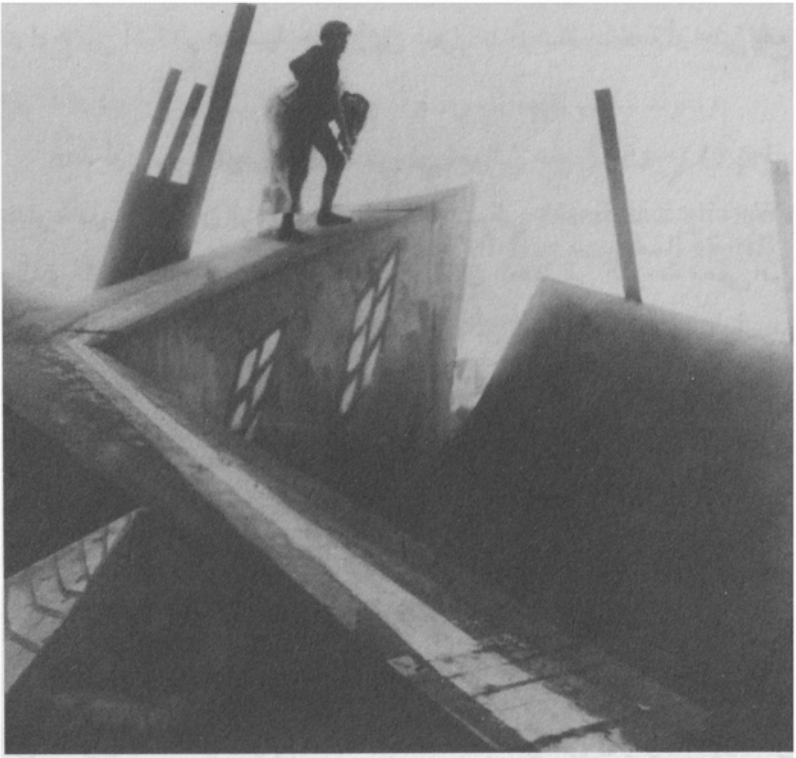
وفي الأدب، تم تفكيك بنية كلٍّ من الجملة والموضوع والمنظور على يد أتباع المدرسة الرمزية (انظر ص ٣١٥). وقد ناهزت هذه الظاهرة حدودها القصوى في قصيدة ت. س. إليوت الأرض الخراب The Waste Land (١٩٢٢)، فقد تضمنت القصيدة مجموعة مختلفة من المشاهد والأصوات والصور التي تشكل نظيرًا شِعريًّا للخراب الفيزيقي والأخلاقي والروحي الذي خلفته الحرب العالمية الأولى. وبالمثل بدت رواية أوليس Ulysses (١٩٢٢) لجيمس جويس James Joyce مُبتكرة في هذا الصدد، إذ بدلت السرد الخطي بتعددية وجهات النظر هذا، بالإضافة إلى تبنيها لتيار الوعي من أجل تحرير الأفكار والأحاسيس الفورية للشخصيات.

في نهاية القرن العشرين، بدأ النُّقَّاد في استخدام مصطلح «ما بعد الحداثة» لتوصيف الأعمال الفنية التي تستخدم تقاليد جديدة أنشأها ما بعد الحداثيين بطريقة ساخرة وناقدة للطموحات البطولية للحداثيين، مثلما نجد مثلًا في روايات فالديمير نابوكفوف Vladimir Nabokov وكورت فونجوت Kurt Vonnegut أو جورجي لويس بورخيس Jorge Luis Borges.

الحركة التعبيرية Expressionism

في عام ١٩٠٧، كتب الرسام النرويجي إدفرد مانك Edvard Munch يقول «يمكن للعمل الفني أن ينبع فقط من أعماق الفرد». وقد اتخذت الحركة التعبيرية من هذه العبارة شعارًا لها، وهي حركة فنية ظهرت في بداية القرن العشرين تتسم بالجرأة والتحريف والمبالغة، وفي هذه الحركة «تصبح الصورة الفنية تجسيدًا للروح» بحسب الرسام أوسكار كوكوشاكا Oskar Kokoschka.

كانت الحركة التعبيرية قوية بالأخص في ألمانيا والنمسا، وقد أصبحت سوداوية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهو ما يمكن أن نراه في لوحة «الرؤى الكابوسية» لماكس بيكمان Max Beckmann ولوحة «هجاء وحشي» لجورج جروز George Grosz. كما أثر التعبيريون أيضًا على فنون أخرى مثل الأعمال الموسيقية الأولى لشوينبرج ومسرحيات ستريندبرج Strindberg وويديكند Wedekind، والسينما الألمانية الصامتة. والمثال البارز لهذه السينما هو فيلم عيادة الدكتور كاليجاري The Cabinet of Dr Caligari (١٩١٩) لروبرت واين Robert Weine، وتتمثل الصفات مثالية للحركة التعبيرية في كلٍّ من زاوية التصوير المجنونة، والتناقض الحاد بين الضوء والظل، والتركيز على حالات الشعور والجنون المتفاقمة.



الحركة التجريدية Abstraction

قلل اختراع التصوير في القرن التاسع عشر من غاية التمثيل الصارم للرسم، ألا وهي «التمسك بمحاكاة الطبيعة». فاتجه بعض الفنانين إلى التعبيرية (انظر ص ٣١٩)، في حين انغمس آخرون في التجريب. من بين الفئة الأخيرة، اتجه بعضهم -من أمثال التكعيبيين Cubists (انظر ص ٣٢٣)- إلى اختزال ظاهر الأشياء إلى أشكال بسيطة. وقد يبدو هذا

الاختزال تجريدًا، ولكن التجريد الحقيقي يُجافي أي مظهر من مظاهر التمثيل، وعوضًا عن ذلك يُبنى العمل الفني على أشكال غير تمثيلية، تتراوح بين أشكال هندسية حادة وبين ضرابات فرشاة جامحة أو حتى بقع من الألوان.

قُدِّمَ أول رسم تجريدي حقيقي في حوالي عام ١٩١٠-١٩١١ في بافاريا على يد الفنان الروسي وسيلي كاندينسكي Wassily Kandinsky، والذي كتب في عام ١٩١٢ يقول: «إذا كان الخط في اللوحة معفى من تمثيل شيء، فهو شيء في حد ذاته. كما أن جوهره لا يضعف بأدوار خاضعة لرسم شيءٍ ما، بل يكتسب قوته الداخلية الكاملة من ذاته». يوضح كاندينسكي التجانس بين الرسم المجرد والموسيقى وهي الفن الأكثر تجردًا، مما يعزز البعد الروحي للرسم التجريدي.

تبنَّى الفنان الهولندي بيت موندريان Piet Mondrian رؤية روحية مماثلة. وتتكون لوحاته بشكل مميز من شبكة من الخطوط السوداء على خلفية بيضاء، مع مربعين أو ثلاثة أو مع المستطيلات الملونة بلون من الألوان الأساسية. وفي عام ١٩٣٧، كتب موندريان يقول: «إن الفن المجرد يتضاد مع الطبيعة الحيوانية الخام للإنسان، ولكنه أيضًا يُطابق حقيقية الطبيعة الإنسانية».

يمثل فنانون مثل موندريان أنقى وأرفع نوع من فن التجريد الهندسي. في المقابل، فإن الرسم المجرد الذي شاع في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية يتسم بكونه أكثر جموحًا ومرونةً كما أنه يعرض لقضايا بطولية أكثر من ذي قبل. لقد عُرف هذا الفن الأخير بالتجريدية التعبيرية Abstraction Expressionism. وقد طَوَّرَ بعض التجريديين

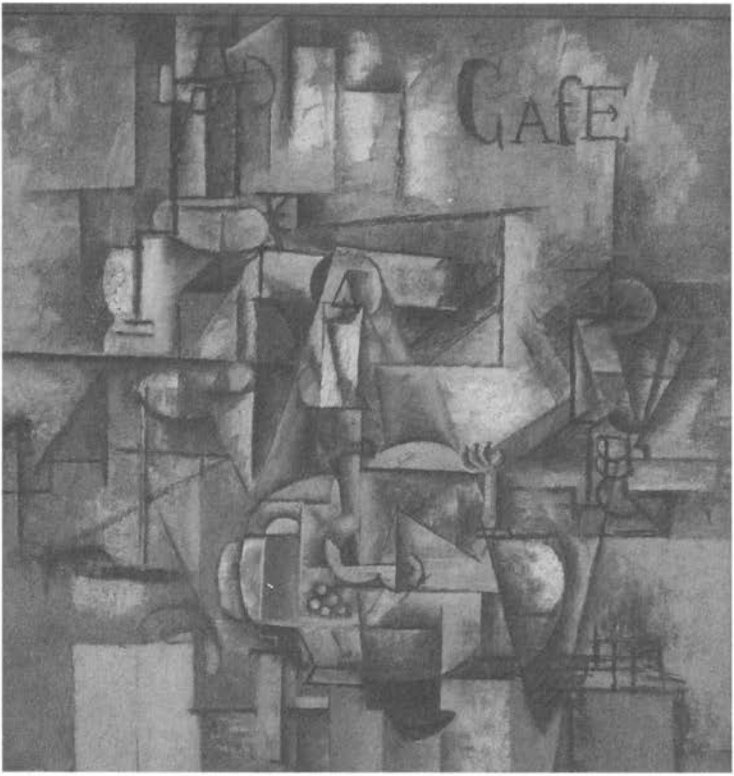
التعبيريين من أمثال جاكسون بولوك Jackson Pollock التقنية المسماة بالتصوير الانفعالي Action Painting، والتي بمُوجها يُدفع بقدر من الألوان على اللوحة وفقًا للابتكار التلقائي.

وسواء كانت تابعة للموضة أم لا، فقد ظل كلٌّ من التجريد «الحر» والهندسي مستمرًّا في كونه ركيزة مهمة للفن المعاصر.

الحركة التكعيبية Cubism

فكَّر الرسَّام بول سيزان Paul Cézanne (١٨٣٩-١٩٠٦)، وهو ينتمي إلى ما بعد الانطباعية، في رسم الأبنية في ما وراء المساحات والأشياء الطبيعية. وفي عام ١٩٠٤، عبر عن عقيدته هذه بقوله: «تعامل مع الطبيعة بتركيبات مثل الأسطوانة والدائرة والمخروط». فقد رفض سيزان بنهجه هذا النزعة الحسية للانطباعيين لصالح اهتمام أكبر بكلاسيكية الشكل. وقد كان لهذا النهج تأثير عميق على الفنان الإسباني الشاب بابلو بيكاسو Pablo Picasso (١٨٨١-١٩٧٣)، الذي أنشأ -قرابة عام ١٩٠٧ مع الرسام الفرنسي جورج براك Georges Braque- الحركة الفنية الجديدة المعروفة بالتكعيبية Cubism.

تتصل التكعيبية غالبًا بأسلوب حياة؛ إذ تقيد نطاق الألوان وتتجاهل آثار الضوء من أجل التركيز على الشكل. كما أنها تبدل المنظور التقليدي الذي يتسم بالأحادية والطموح الوهمي بتعددية المنظور. وتمثل التكعيبية الأشياء من زاوية مختلفة، ثم ترسمهما معًا كعناصر مُركبة أو متشابكة. وقد أثرت هذه الطريقة الجديدة لتمثيل الصلابة والكم على بعدين من اللوحة تأثيرًا مستدامًا على الرسم في القرن العشرين.



السريالية Surrealism

كشفت كتابات سيجموند فرويد (انظر ص ٢٨٩) عن فحوى الأحلام والرغبات المكبوتة واللا وعي لتفتح بذلك عالـمًا جديدًا للفنانين والكُتَّاب. فقد اعتراف بالوجه اللا منطقي في الطبيعة الإنسانية وكسر المحرمات القديمة -لا سيما تلك التي تمنع الحديث عن الجنس- وقد كان هذا بمثابة تجربة تحرر. كما كان أيضًا بمثابة ثورة قادرة على تكسير القيم التقليدية المحافظة. ومن ثم بادر كلٌّ من الرسامين والكُتَّاب

المسرحيين والشعراء المنتمين للحركة السريالية في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته بإزالة النظام البرجوازي التقليدي.

ومثل هذه النزعة المتمردة في الفن الحديث ليست جديدة. فقبل الحرب العالمية الأولى، رفض المستقبليون Futurists [(٣١)] في إيطاليا كل الفن السابق عليهم، وشددوا على أن محرك السيارة هو مثال الجمال. وبالمثل رفضت حركة دادا Dada [(٣٢)]، في أثناء الحرب، كل القيم الجمالية المستقرة. وكان من رواد هذه الحركة الأخيرة، مارسيل دوشان Marcel Duchamp (١٨٨٧-١٩٦٨)، الذي اشتُهر برسمه لمبولة في لوحته المسماة النافورة Fountain، والتي عرضها في معرض فني عام ١٩١٧.

نبعت السريالية مباشرةً من حركة دادا في أواخر عام ١٩٢٢. وقد حدد رائد السريالية، أندريه برتون André Breton (١٨٩٦-١٩٦٦) ماهية الحركة بقوله إنها «روح نقية تلقائية، تعبر بالكلام أو بالكتابة أو بأي وسيلة أخرى عن العملية الحقيقة للفكر. فهي تخضع لإملاءات الفكر المحرر من أي قيد منطقي، كما أنها لا تعبأ بالقيود الجمالية أو الأخلاقية». لقد ربط برتون السريالية بالاشتراكية، على الرغم من أن الحزب الاشتراكي قد رفض -في المقابل- ارتباطه بالسريالية.

---

(٣١) هي حركة فنية إيطالية ازدهرت بين عام ١٩٠٩ وعام ١٩١٦. وهي الحركة الأولى بين عددٍ من الحركات الفنية التي حاولت الانفصال عن الماضي في كل مجالات الحياة. عزز المستقبليون قيمة القوة والسرعة والحماس المصاحب لعصر المكينات. تعلم المستقبليون من التكعيبيين تكسير الأشياء إلى صور متعددة واستخدام الكثير من الألوان.

(٣٢) هي حركة فنية أوربية طليعية في بداية القرن العشرين. نشأت الحركة كرد فعل سلبي لترويع الحرب العالمية الأولى. رفضت الحركة المنطق، ورفعت من قيمة اللا منطقي والحس. احتوت الحركة على كل الفنون التي تناهض الحرب والبرجوازية.

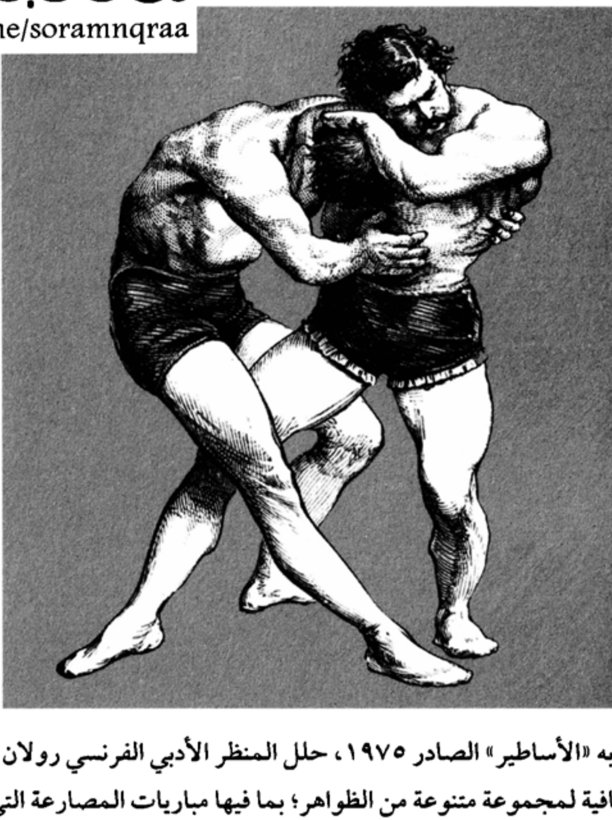
ووفقًا لفلسفة برتون، أسس الأدب السريالي أعماله على الكتابة التلقائية، واصفًا كل ما يدور في عقلهم بشكل تلقائي في كتابتهم. تتبع بعض الفنانين السرياليين نفس العملية (كما هو الحال في لوحة التدليك Frottages لماكس إيرنست Max Ernst والرسم الحر لأندريه ماسون André Masson)، ومنهم مَن كون لوحاته من «أشياء» عشوائية، بينما يبتكر آخرون مثل سلفادور دالي Salvador Dali ورينيه مارجريت René Magritte عالـمًا شبيهًا بالخيال مُمثلًا في أشياء متجاورة بشكل غريب في لوحاتهم. كما ظهرت لوحات كهذه في العروض المسرحية والسينمائية. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية فقدت السريالية قدرتها على إثارة الدهشة، وتم استيعابها في البعد التجاري.

البنيوية وما بعد البنيوية

Structuralism and Post structuralism

البنيوية Structuralism هي نظام نقدي تحليلي نابع من علم اللغويات في خمسينيات القرن العشرين. انتشر هذا النظام النقدي في الفنون والأنثروبولوجيا وعلم النفس. المبدأ الأساسي للبنيوية هو أن كل الظواهر الثقافية تتضمن نظمًا من الإشارات اللفظية واللا لفظية، كما أن الإشارات بمفردها لا معنى لها، ولكن معناها ينبع من علاقاتها معًا، والتي غالبًا ما تكون في إطار تضاد ثنائي مثل الطبيعة/ الثقافة، الرجل/ المرأة، الفعال/ الخامل. وقد اقترح الناقد الفرنسي رولان بارت Roland Barthes أن هذا الصراع في المعنى يمثل تضاد البطل الخَيّر في مقابل الشرير. وتشمل هذه النظم البنيوية عقل الإنسان و«لغته»، فبدلًا من كون عقل الإنسان هو المبتكر لهذه اللغات، فإن بنية هذه اللغات هي التي تتحدد بمقتضى بنية عقل الإنسان.

يشدد البنيويون على أن لغات كهذه (اللفظية واللا لفظية) تحتاج دراسات علمية، في حين شدد ما بعد البنيويين على أن هذه اللغة مراوغة وغير مستقرة، وأن معانيها مؤقتة. وعلاوة على ذلك، ارتاب ما بعد البنيويين في صدق القدرة التفسيرية للفلسفة والتاريخ على أساس البنية الثابتة، مؤكدين أنهما أيضًا عبارة عن لغات لا تخلو من مراوغة مثلها مثل الموضوعات التي تدرسها.



في كتابه «الأساطير» الصادر ١٩٧٥، حلل المنظر الأدبي الفرنسي رولان بارت اللغة الثقافية لمجموعة متنوعة من الظواهر؛ بما فيها مباريات المصارعة التي شبهها بالمسرح الرسمي لليونان الكلاسيكية.

موجز لأفكار عظيمة

يقول المترجم محمد حسونة في مقدمة ترجمته المتميزة لهذا الكتاب القيم:
في البدء كانت العلوم والمعارف والمعتقدات وحدة واحدة، اختلط فيها السحر بالفن والحرفة والدين. وفي العصور الوسطى، جمع العلماء بين تخصصات عدة. فمثلًا ابن سيناء -من العلماء المسلمين- كان طبيبًا وفيلسوفًا وشاعرًا في آنٍ واحدٍ. ولكن مع تقدم العلم في العصر الحديث، زاد التخصص، وأصبح كل علم مستقلًا بذاته، وأصبحت الدراسة الجامعية متخصصة أكثر فأكثر في مجالٍ بعينه، حتى أننا نجد طالب الطب لا يعلم الكثير عن الفلسفة، ولا يعلم طالب الفلسفة إلا النزر اليسير عن العلوم. ومع تزايد متطلبات الحياة الاقتصادية الصعبة والمعقدة وتفاقم الضغوط، انصب اهتمام الطلاب على الحصول على علامات جيدة في الصف الجامعي لزيادة فرصهم في العمل فحسب. ومع ضغوط العمل نفسه، لم يعد هناك وقت للمطالعة. وشيئًا فشيئًا، فقدت الثقافة العامة ميزتها الوجيهة، وهي التي كانت تمنح الفرد منافع جمة. فالتعرف على مختلف العلوم الإنسانية يثري الفرد عقلًا وروحًا؛ إذ تُغذى القدرة الابتكارية للعقل بالمزج بين شتى العلوم، كما تُضفي عليه طابعًا إنسانيًّا؛ لأنه به يوقن أن القيم الإنسانية مطلقة ورحبة جدًّا، مما يوسع نظرته للحياة، وبها يدرك أنه لا يوجد منظور واحد للصعاب التي يواجها في الحياة. فمع استيعابنا لرحابة الفكر الإنساني، ندرك أن المشاكل اليومية ليست إلَّا شيئًا بسيطًا مقارنة بالعالم الواسع الممتد اللانهائي، تأثير ذلك هو تأثير رؤية البحر أو الصحراء اللانهائية. حينها نعلم أن آفاق الحياة شاسعة ولا تتوقف على اليومي المحدود الخاص الضيق وسجن الذات.

ومن هنا تظهر أهمية هذا الكتاب. فهو يحيط بشتى المجالات الفكرية العامة؛ الفلسفة- الدين- العلم- السياسة- الاقتصاد- علم الاجتماع- علم النفس- الفنون.

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يشرح المصطلحات والأفكار الجوهرية في هذه المجالات. فمع نهاية قراءة كل فصل، تتشكل لدى القارئ معرفة شاملة وعميقة -في آن واحد- بأساسيات كل مجال، مما يوفر عليه عناء قراءة العديد من الكتب في العديد من المجالات لإدراكها، أو ربما يفتح شهيته لمتابعة الجديد في كل مجال بتفاصيله ودقائقه. كما يمتاز الكتاب بأن كل المصطلحات فيه مبوبة على شكل معجم مما يسهل على القارئ التعرف على أي مصطلح شاء.

آفاق